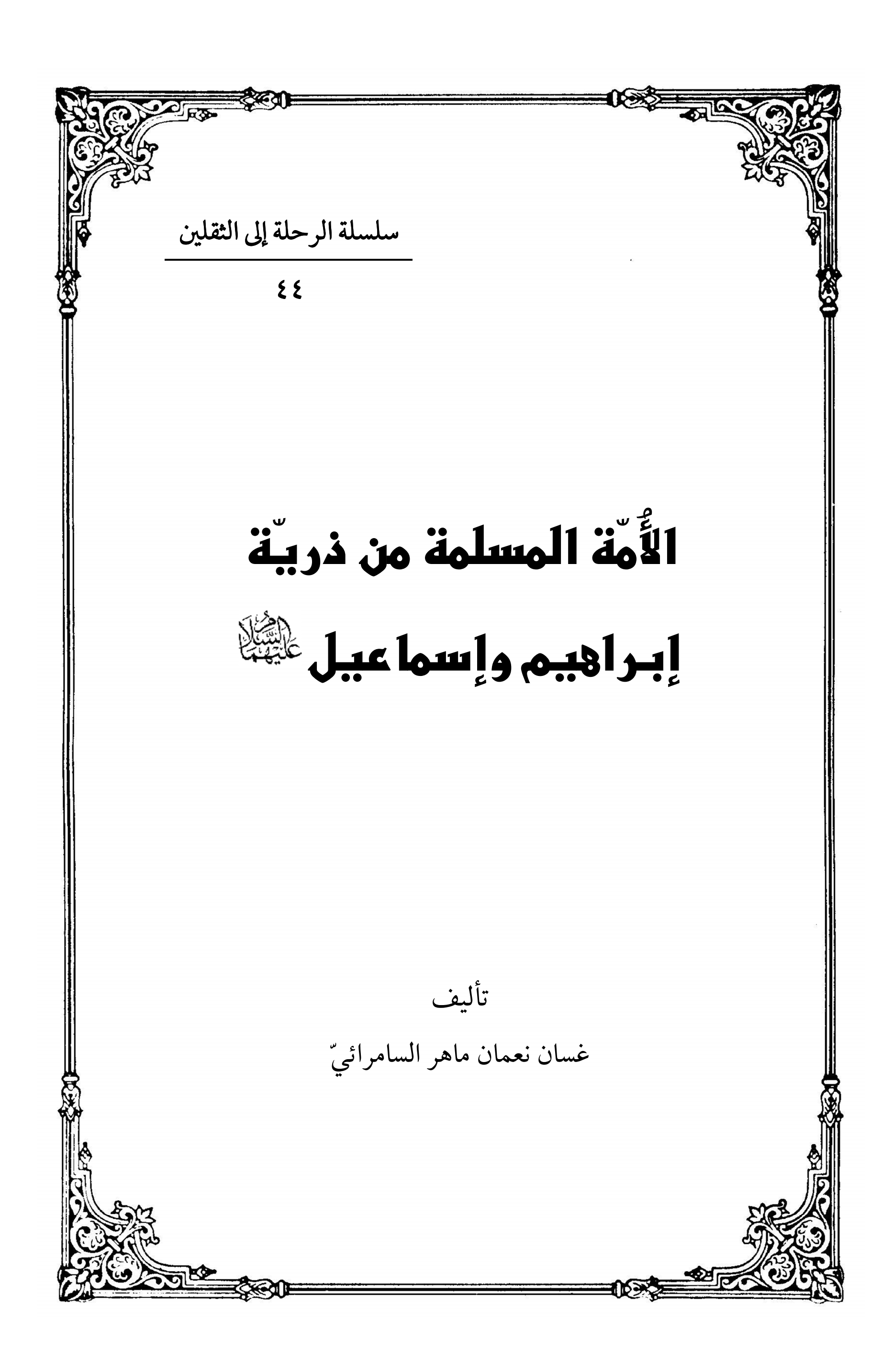
الأُمَّةُ المُسْلِمَةُ

مِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عليهما السلام

تأليف

غسان نعمان ماهر السامرائي




سلسلة الرحلة إلى الثقلين
٤٤

الأُمّة المسلمة من ذريّة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام

تأليف
غسان نعمان ماهر السامرائيّ

مركز الأبحاث العقائدية.قم المقدسة ١٤٤٢هـ = ١٤٠٠ ش
سلسلة الرحلة إلى الثقلين / الأمّة المسلمة من ذريّة إبراهيم وإسماعيل. ١٤٤٢هـ = ١٤٠٠ ش
الفهرسة حسب نظام فيبا
اللغة عربية
سلسلة الرحلة إلى الثقلين / ٤٤
ألف: العنوان. ب مركز الأبحاث العقائدية
نظام ديوي:
رقم الإيداع في المكتبة الوطنية الإيرانية:

مركز الأبحاث العقائدية

❖ إيران . قم المقدسة . صفائية . ممتاز . رقم ٣٤
ص.ب ٣٧١٨٥/٣٣٣١
الهاتف: ٣٧٧٤٢٨٠٨ ـ ٣٧٧٤٢٠٨٨ (٢٥) ٩٨+
الفاكس: ٣٧٧٤٢٠٥٦ (٢٥) ٩٨+

❖ العراق . النجف الأشرف . شارع الرسول صلى الله عليه وآله
شارع السور . جنب مكتبة الإمام الحسن عليه السلام
الهاتف: ٣٣٢٦٧٩ (٣٣) ٩٦٤+
ص.ب: ٧٢٩

الموقع على الإنترنت: www.aqaed.com
البريد الإلكتروني: info@aqaed.com

شابك (ردمك):
الأمّة المسلمة من ذريّة إبراهيم وإسماعيل
تأليف: غسان نعمان ماهر السامرائيّ
الطبعة: الأُولى ١٠٠٠ نسخة
سنة الطبع: ١٤٤٢ هـ ق ، ١٤٠٠ ش
الفلم والألواح الحسّاسه: تيزهوش
المطبعة: الوفاء



محتوى الكتاب

مقدمة المركز

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم
المرسلين محمّد وآله الميامين

من الثوابت المسلّمة في عملية البناء الحضاري القويم، استناد الأُمّة إلى قيمها السليمة ومبادئها الأصيلة، والأمر الذي يمنحا الإدارة الصلبة والعزم الأكيد في التصدّي لمختلف التحدّيات والتهديدات التي تروم نخر كيانها وزلزلة وجودها عبر سلسلة من الأفكار المنحرفة والآثار الضالة باستخدام أرقى وسائل التقنية الحديثة.

وإن أنصفنا المقام حقّه بعد مزيد من الدقّة والتأمّل، نلحظ أنّ المرجعيّة الدينية المباركة كانت ولا زالت هي المنبع الأصيل والملاذ المطمئن لقاصدي الحقيقة ومراتبها الرفيعة، كيف؟! وهي التي تعكس تعاليم الدين الحنيف وقيمه المقدّسة المستقاة من مدرسة آل العصمة والطهارة عليهم السلام بأبهى صورها وأجلى مصاديقها.

هذا، وكانت مرجعية سماحة آية الله العظمى السيّد علي الحسيني السيستاني ـ مدّ ظله ـ هي السبّاقة دوماً في مضمار الذبّ عن حمى العقيدة ومفاهيمها الرصينة، فخطت بذلك الخطوات المؤثّرة والتزمت برامج ومشاريع قطفت وستقطف أينع الثمار بحول الله تعالى.

ومركز الأبحاث العقائدية هو واحد من المشاريع المباركة الذي أُسس لأجل نصرة مذهب أهل البيتعليهم السلام وتعاليمه الرفيعة.

ولهذا المركز قسم خاص يهتم بمعتنقي مذهب أهل البيتعليهم السلام على مختلف الجهات، التي منها ترجمة ما تجود به أقلامهم وأفكارهم من نتاجات وآثار ـ حيث تحكي بوضوح عظمة نعمة الولاء التي منّ الله سبحانه وتعالى بها عليهم ـ إلى مطبوعات توزّع في شتى أرجاء العالم.

وهذا المؤلّف ـ «الأُمّة المسلمة من ذريّة إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام» ـ الذي يصدر ضمن «سلسلة الرحلة إلى الثقلين» مصداق حيّ وأثر عملي بارز يؤكد صحة هذا المدّعى.

على أنّ الجهود مستمرة في تقديم يد العون والدعم قدر المكنة لكلّ معتنقي المذهب الحقّ بشتى الطرق والأساليب، مضافاً إلى استقراء واستقصاء سيرة الماضين منهم والمعاصرين وتدوينها في «موسوعة من حياة المستبصرين» التي طبع منها أربعة عشر جزء لحدّ الآن، سائلين المولى تبارك وتعالى أنّ يتقبّل هذا القليل بوافر لطفه وعنايته.

ختاماً نتقدّم بجزيل الشكر والتقدير إلى كلّ من ساهم في مراجعة وإخراج هذا الكتاب، وإعداده للطبع، والحمد لله ربّ العالمين.

محمّد الحسّون
مركز الأبحاث العقائديّة
١٤ جمادي الثاني ١٤٤٢هـ
الصفحة على الإنترنيت: www.alhasun.com
البريد الإلكتروني: muhammad@aqaed.com

مقدمة المؤلف

أين اسم علي بن أبي طالب في القرآن؟

لماذا لم يذكر القرآن أسماء علي وأهل البيت لو كانوا كما تقولون؟

لماذا لم يذكر القرآن إمامة أهل البيت لو كانت منصوصاً عليها كما تزعمون؟

لماذا يذكر القرآن تفاصيل فقهية وتاريخية ولا يذكر قضية عقائدية كبرى؟

من مارس النقاش في الخلافيات الدينية كم سمع بمثل هذه الاعتراضات، والتي لا شك في أن الكثير من مطلقيها حسنو النية، بينما الكثير من غيرهم قد أجيبوا ولكنهم يعيدون نفس الإشكالات حيث أن النية ليست من أجل الحق و الحقيقة.

فمن مارس مثل هذا النقاش يجده غالباً ما يتنقل بين أُطُر التحاجج القرآنية والحديثية والتاريخية والمنطقية، إما بشكل تسجيل نقاط ليس إلا، أو بطريقة عشوائية، أو بطريقة المراوغة ـ تأتي بحادثة تاريخية فيطالبك بحديث شريف، فتأتيه بالحديث، فيجيبك: كلا، هات من القرآن فهو لا خلاف عليه، فتأتيه بآية قرآنية، فيعود إلى الحديث، وربما استخدم الإشكال المنطقي مع أنه غير منطقي مطلقاً.

أو تأتيه بما هو في الكتب المعتمدة عنده، فيطالبك بما في الصحاح، فتأتيه بها، فيطالبك بحصرها في كتابي البخاري ومسلم، فإذا فعلت عاد إلى المطالبة بالقرآن!

وهكذا في سلسلة لا تنتهي من المراوغة.

❊

كان القرآن المجيد، وسيبقى، المرجعية الأولى للدين ولجميع المسلمين عموماً، ولكن بالخصوص في جميع البحوث الإسلامية. وهذا يأتي من أمرين:

الأول / عقيدة المسلمين أن القرآن هو المستند الأول والأعظم في الدين، لأنه ليس كلام بشر، بل كلام الله الموحى إلى نبيه وصفيه محمّد صلى الله عليه وآله؛

الثاني / إيمان المسلمين أن القرآن محفوظ بحفظ الله تعالى.

من هنا جاءت أهميته العظمى فوق كل مستند ومصدر ديني.

سبب آخر يجعله المرجع الأساس والأول في النقاشات الدينية وفي الخلافيات المذهبية، وهو أنه كتاب واحد في أيدي جميع المسلمين وليس مجامع حديثية أو تاريخية كبيرة لا تتوفر إلا للقلة من أبناء الأمة، فإن توفرت لدى بعضهم فإنهم غير مختصين بما يعني رجوعهم إلى المختصين على أية حال.

وسبب آخر، وهو أنه حتى هذه المجاميع الحديثية، فإنما هي روايات الحديث الشريف من النبي صلى الله عليه وآله جاءت لتبين آيات القرآن إلى الناس، حيث أنها مهمته صلى الله عليه وآله الثانية ـ بعد بلاغ الوحي ـ.

❊

ولكن في التحاجج بالقرآن مشكلة؟

القرآن "مبين" في بعض آياته، ولكنه ليس كذلك في الكثير غيرها، ومن هذا جاءت النصوص لتفرّق بين "البلاغ" وحسب و "البلاغ المبين" أي البلاغ الذي يحتاج إلى البيان الرسولي ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل:٤٤. هذا أولاً.

ثانياً، لأن الله تعالى يعلم أن الأمور ستسير بشكل معين ينحرف عن المرجعية الشرعية لأهل البيت عليهم السلام، ولأنه سيسمح بهذا كسنّة إلهية في الفتنة التمحيصية ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ العنكبوت:٢ ـ ٣، فإنه جعل آيات كتابه المجيد تحتوي على التأصيل المؤكد لمرجعية أهل البيت عليهم السلام بشكل فيه اختلاف في درجة وضوحه ـ الواضح تماماً والخفي تماماً وما بين هذين.

ومن يطالع هذه الآيات المباركات، وينظر فيها، ويدقق فيها، يفهم قوله تعالى ﴿...وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فصلت:٤١ ـ ٤٢ ، فهو عزيز عن التغلب عليه مهما كانت درجة العناد، يخلو من أي خطل أو خطأ مهما حاول أعداء الدين أن يجدوا فيه، لأنه من صاحب الحكمة المطلقة، المحمود على فعاله كلها ومنها هذا الكتاب الفريد.

*

ولقد رويت الروايات العديدة في مقدار ما نزل من القرآن في أهل البيت عليهم السلام، على درجات التصريح والتلميح المختلفة، إضافة إلى المصاديق (بحيث أنهم عليهم السلام يمثلون أحد مصاديقها).

من ذلك ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله: «إن القرآن أربعة أرباع: فربع فينا أهل البيت خاصة، وربع في أعدائنا، وربع حلال وحرام، وربع فرائض وأحكام»

(تفسير فرات الكوفي ص٢٤٩، وعنه في شواهد التنزيل للحسكاني ج١، ص٥٦ ـ ٥٧). وقريب منه في ص٥٧ و٥٩، وقريب منه في مناقب ابن مردويه ص٢١٨.

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «نزل القرآن أثلاثاً: ثلث فينا وفي عدونا، وثلث سنن و أمثال، وثلث فرائض وأحكام» (الكافي ج٢، ص٦٢٧). وقريب منه عنه عليه السلام أيضاً في شواهد التنزيل ج١، ص٥٨.

ولا شك في أنّ هذا العدد الكبير من الآيات يتضمن أكثرية كاثرة في روايات المصاديق، بحيث أنهم عليهم السلام يمثلون قادة المؤمنين، وبحيث أن عدوهم إنما هو عدو الدين.

مثلاً ما روي عن تعبير ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ من روايات:

عن النبي صلى الله عليه وآله: «ما أنزل الله تعالى آية ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾، إلا وعلي رأسها وأميرها»؛ وفي بعضها: «إلا وعلي أميرها وشريفها»؛ أو «إلا وعلي رأسها وقائدها» (المناقب لابن مردويه ص٢١٩ ـ ٢٢٠، والمناقب للموفق الخوارزمي ص٢٦٧، والدر المنثور للسيوطي ج١، ص١٠٤، وفيض القدير للمناوي ج٣، ص٦٠، وكنز العمال ج١١، ص٦٠٤، وتاريخ دمشق ج٤٢، ص٢٦٢-٢٦٣).

هذا وإن لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام القدح المعلّى من الآيات التي تم تشخيص نزولها، حتى روي: «ما نزل في أحد من القرآن ما نزل في علي بن أبي طالب» (تفسير الثعلبي ج٢، ص٢٧٩، وشواهد التنزيل للحسكاني ج١، س٥٤). أو كما روي عن ابن عباس: «ما نزل في أحد من كتاب الله تعالى ما نزل في علي» (المناقب لابن مردويه ص٢١٧، وشواهد التنزيل ج١،

ص٥٢).

ومن الروايات ما تحدد أعداداً، كما في رواية مجاهد: «نزلت في علي عليه السلام سبعون آية ما شركه في فضلها أحد» (الخصال للصدوق ص٥٨١، وشواهد التنزيل ج١، ص٥٢ و٦٠، والمناقب لابن مردويه ص٢١٧)؛ أو رواية ابن أبي ليلى: «نزلت في علي عليه السلام ثمانون آية صفواً في كتاب الله (عزَّ وجلَّ) ما شركه فيها أحد من هذه الأمة» (الخصال للصدوق ص٥٩٢، وشواهد التنزيل ج١، ص٥٥).

❊

جواب التساؤلات

ويبقى السؤال، وسيبقى يطرح ويكرر:

لماذا لم يذكر القرآن إمامة أهل البيت عليهم السلام صراحة ولا أسماءهم؟

قبل أن أجيب، أسأل عن الصيغة التي كان يمكن للقرآن أن يذكرها بحيث إنّ الذين يرفضون الصيغ الحالية مع البيان الرسولي لها سيوافقون ويطيعون ويؤمنون بالمرجعية الشرعية لأهل البيت عليهم السلام ـ أي صيغة سيقبلون بها؟

لو قال القرآن: «علي هو الإمام»، سيقولون: «نعم، ولكن غيره إمام أيضاً»!

لو قال: «علي هو الخليفة»، سيقولون: «طبعاً، نعترف به خليفة بعد الثلاثة»!

لو جعلها أكثر تحديداً فقال: «علي هو إمام الدين بعد النبي»، سيقولون: «نعم، أليس عمر كان يرجع إليه في الفتيا»!

وربما يقولون «هو الإمام بكل تأكيد، ولكن بعد الثلاثة قبله»!

إذاً، ليجعلها أكثر تحديداً فيقول: «علي هو الخليفة بعد النبي بلا فصل»، فسيقولون: «نعم، المقصود أنه الخليفة في أهله صلى الله عليه وآله»!

فماذا يصنع؟ يجعلها أكثر تحديداً مع التحذير: «علي هو الخليفة بعد النبي ولا يجوز التقدم عليه»، سيقولون: «نعم، ولكنه بايع من تقدموا عليه وانتهى الأمر»!

فإن جعلها مستحيلة على الالتفاف: «علي هو الخليفة بعد النبي ولا يجوز التقدم عليه ومن تقدم عليه فقد حادّ الله ورسوله»، سيقولون: «ولكن خشينا الفتنة»!

وهكذا، لا توجد أي صيغة لن يتم التعامل معها بما يبطلها، حتى ولو كان تأويلاً واضح الفساد (ما يؤكده الأمثلة المختلفة لتأويلات المفسرين في هذا الكتاب).

والآن، أجيب على هذا التساؤل بما أجده واضحاً من رحمة الله تعالى بهذه الأمة، وأستدل عليه بما فعله العلماء المخالفون من المفسرين من المحاولات المستميتة لصرف الآيات عن الطاهرين عليهم السلام مما علمه الله تعالى قبل وقوعه قطعاً ـ هذا مع عدم التصريح بالأسماء، كيف لو كانت الأسماء صريحة.

ما أجده هو أن الله عز وجل لما علم أن هذه الأمة، في الأكثرية من روادها من الصحابة، ستدير ظهرها للمرجعية الشرعية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله فإن أسماء علي وأولاده الطاهرين عليهم السلام لو أنزلها صريحة في كتابه العزيز فإنه لن يكون هناك هامش ولو صغير للانحراف عنهم، وعندها ستكون هذه الأكثرية قد تركت الأمة

بكفرها بالنصوص الصريحة؛ ولأنه تعالى رحيم بعباده، ولأنه أراد لهذه الأمة أن تبقى جسماً واحداً ـ على الرغم من الاختلافات والخلافات ـ من أجل إيصال رسالته الخاتمة إلى الناس، فإنه عز وجل ضمّن أسماء أوليائه الطاهرين عليهم السلام في ثنايا آيات كتابه المجيد، بأشكال مختلفة من التضمين، ما يقترب بعضه من التصريح ويبتعد غيره عنه إلى الإشارة الخفية وما هو بين هذين الحدّين.

ولكن لأن الله تعالى لابد وأنه يقيم حجته على خلقه جميعاً، فإن هذه الآيات المشار إليها أعلاه قد أنزلها بشكل معجز مبدع هي ـ والله العظيم ـ مما لا نظير له في البلاغة الموصلة للحقائق، وما لا نظير له في منع التحريفات والتأويلات الفاسدة من أن تنتصر على الحق ـ اللهم إلّا مع الذين في قلوبهم مرض فهؤلاء لا ينفع معهم القرآن كله.

تبقى نقطة مهمة بخصوص عدم التصريح بأسماء علي وأولاده الطاهرين عليهم السلام، وهي نقطة التمحيص:

﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾ العنكبوت:٢-٣.

هذا وعد قاطع من الحق تبارك وتعالى أنه لا بد من الاختبار، وذلك من أجل أن تخرج النفوس دواخلها إلى أفعال وأقوال كي تحاسب عليها ـ بصدقها في الإيمان ودرجات هذا الإيمان أم بانطوائها على شعبة أو أكثر من شعب النفاق...

فكان هذا البيان القرآني بالتضمين دون التصريح.

❊

ولكن التلميح أقوى من التصريح أحياناً.

سيجد القارئ كيف أن الله عز وجل قد ضمّن كتابه العزيز موقعية أوليائه الطاهرينعليهم السلام في العديد من الآيات المباركة، وبشكل جميل رائع معجز، ربما سيكون في بعضها أقوى من التصريح، الأمر الذي انتبه إليه مفسروا أهل الخلاف، أو بعضهم على الأقل، ولهذا ـ وكما سألفتُ إليه في الخاتمة ـ جاؤوا بما لا يقبله العقل أو الذوق السليم، أحياناً بمجرد النظرة البسيطة للآيات المباركة.

وكم هو جميل غاية في الجمال هذا التعاضد بين آيات القرآن وأفعال النبيصلى الله عليه وآله في بيانه للآيات، بأقواله وأفعاله، مستثمراً بذكائه وفراسته بحال قومه أحياناً، وبأمر الله تعالى أحياناً أخرى ـ وكله مما لا يخرج من التسديد الإلهي التام لنبيه وصفيهصلى الله عليه وآله ـ، فتجد الآيات تنزل لتصف ما فعله عليعليه السلام في هذه الحادثة أو تلك مع النبيصلى الله عليه وآله، أو تنزل لتصف موقعية الإمامعليه السلام من الشرع بما يحتاج إلى إعلانها من النبيصلى الله عليه وآله، أو ليدسّ فعله تعالى في تطهير الصفوةعليهم السلام في الوسط من آيات غيرهم ليستخلصهم النبيصلى الله عليه وآله من الآخرين، أو ليصف النبيصلى الله عليه وآله بعضهمعليهم السلام بوصف يربطه مع وصف للمصطفين من الأنبياءعليهم السلام في القرآن... وغير ذلك مما سيجده القارئ الكريم في هذا الكتاب.

وسيرى القارئ الكريم هذا الإبداع المعجز في جميع فصول هذا الكتاب، مع ملاحظة أن هذا جهد شخص واحد لا يدعي العلم، ولكنه محاولة جادة لتدبر الكتاب العزيز كما حثنا عليه تعالى.

وكيف لا ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ يوسف:٢١.

هـذا، وإن البيـان الرسـولي سـيكون متنوعـاً، بـالقول والفعـل، كمـا وجدناه صلى الله عليه وآله يفعل مع آية التطهير. كما وسيكون البيان الرسولي أكثر عـدداً، كمـا وجـدناه فـي المجـاميع الحديثيـة والتاريخيـة لأهـل السـنّة، والتـي مـن المستحيل أن تتواطأ كلها – مع أنها مخالفة – لإبراز الدور والموقعيـة المتميـزة لعلي وأولاده عليهم السلام.

ونقطة أخرى، أن الإشارة تعني المرور من المعوقات الحكومية والعلمائيـة المرتبطـة بالحكـام، بينمـا العبـارة كـانوا سيضـعون أمامهـا التفسـيرات الباطلـة والأحاديث الكاذبة (هم لم يقصروا مع الإشارة، فما بالك لو كانت بالعبارة!)

❊

قضية أخرى: المصطلحات بين القرآن والفهم السائد

إن الباحث المدقق في المصطلحات القرآنية كما يفهم مـن لغتـه وبلاغتـه وطريقته الفريدة في التعبير، سيجد في الكثير من هذه المصطلحات فرقاً صغيراً أو كبيراً بينها قرآنياً وبين الفهم السائد في الأمة. ويصل الفارق في بعضها إلـى درجة الاختلاف التام بين المعنـى الـذي يفهـم مـن الآيـة أو مجمـوع الآيـات، سـواء التـي فـي سـياق واحـد أو التـي تعضـد بعضـها بعضـاً فـي ثنايـا القـرآن المختلفة، وبين السائد.

من هذه المصطلحات مصطلح «الذين آمنوا» الذي يرد كثيراً، والذي نجد أن الفهم السـائد فيـه، وهـو أنـه يعنـي "المـؤمنين"، فهـم خطـأ، وذلـك لوجـود مصطلح «المؤمنون» الذي يرد فـي القـرآن كثيـراً أيضـاً، والقـرآن لا يسـتخدم

مصطلحين لنفس المعنى تماماً؛ أيضاً لوجود الدليل على أن «الذين آمنوا» تعني «المسلمين جميعاً على اختلاف درجات إيمانهم أو عدمه».

ومن هذه المصطلحات مصطلح «الأمة المسلمة» الذي يرد في آيات دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام عندما كانا يرفعان القواعد من البيت الحرام. فإنك لو سألت عامة الناس، بل لو سألت الغالبية العظمى من العلماء، عن المقصود من هذه «الأمة المسلمة» لأجابوك: الأمة الإسلامية أو المسلمون. وهذا هو موضوع الكتاب.

❊

الكتاب: الآيات المتعلقة بمصطلح "الأمة المسلمة"

إن آيات دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يتضمن «الأمة المسلمة» بمواصفات محددة، كما يتضمن رجلاً يبعثه الله تعالى من ضمن تلك "الأمة المسلمة" ليكون المُنطَلَق لها والمُطلِق لها بعد تعليمها وتزكيتها، وهو الرسول صلى الله عليه وآله:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ البقرة:١٢٨ ـ ١٢٩.

وبالتالي فإن الكتاب سينقسم إلى عدة أقسام، ليغطي «بعض» آيات الرسول المبعوث في تلك الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ويغطي «بعض» آيات الأمة المسلمة هذه، والتي ستنقسم بدورها إلى قسمين: الآيات المعروفة بشكل مستفيض سواء في المؤلفات أو في التحاجج المذهبي، والآيات التي لا ترد كثيراً إما لخفاء تعلقها بالأمة المسلمة أو حتى

لجهل الناس بها نتيجة خفاء علاقتها كما نتيجة لعدم الاستناد إليها في التحاجج المذهبي هذا.

❊

ماذا عن الآيات التي لم أتعرض إليها؟

أما الآيات التي لم أخترها كجزء من هذه البحوث فهي مما لا يستفاد منه الدلالة القاطعة على موقعية الأمة المسلمة من ذرية ابراهيم وإسماعيل عليهما السلام كأئمة وشهود على الناس (وهو ما أثبتناه في القسم الثاني الذي يفصّل في ذلك الدعاء المبارك وغيرها من آيات متعلقة به).

مثال ذلك الآية المباركة ﴿**أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لاَ يَسْتَوُونَ**﴾ السجدة:١٨، والتي رويت الروايات أنها نزلت في الإمام علي عليه السلام، وذلك لأن كون المرء مؤمناً حقاً لا تعني أن له مقام الإمامة في الناس، لأن هناك الكثير من المؤمنين حقاً.

مثال آخر ﴿**وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ**﴾ الأحزاب:٢٥، والتي روي فيها أنها نزلت في علي عليه السلام، ولكن أولاً تحدثت بعض الروايات عن أن الله تعالى بعث ريحاً شديدة مما جعل الكافرين في حالة صعبة، وثانياً لأن القراءة التفسيرية التي نسبت لابن مسعود «وكفى الله المؤمنين القتال بعلي بن أبي طالب» بعد أن قتل بطل الأحزاب عمرو بن عبد ود، إنما هي قراءة معينة تضيف إلى الآية ما ليس فيها، فتبقى تفسيرية، وأهم من ذلك أن تلك الفضيلة العلوية الفريدة لا تصلح دليلاً على إمامته، أي في الذي يبحثه هذا الكتاب.

أو حتى سورة الإنسان، أو سورة ﴿**هَلْ أَتَى**﴾ الإنسان:١، التي أتفقت

الروايات عند سائر المسلمين أنها نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام (عندما صاموا ـ مع المرأة الجليلة خادمتهم فَضَّة رضي الله عنها ـ شكراً لله على شفاء الحسنين عليهما السلام من المرض ثم ما أن همّوا بتناول أقراص الخبز وهي طعام الإفطار إلّا ويأتي مسكين في اليوم الأول ويتيم في اليوم الثاني وأسير في اليوم الثالث ليؤثروا كلاً منهم على أنفسهم، حتى وصلوا إلى حالة الضعف الشديد في اليوم الثالث فنزلت السورة بعظمة هؤلاء الصفوة من آل محمد صلى الله عليه وآله)، وذلك لأن هذا الفعل الفريد ـ على عظمته في العبادة والإيثار والصبر ـ لا يدل بالقطع على الإمامة على الناس، وإن كان من شروطها الشخصية مثل هذه الصفات السامية.

❊

أخيراً: تناول جديد

إن هذا الكتاب يقدم تناولاً جديداً للآيات التي لم يزل البحث فيها، ابتداءً أو نقاشاً، لإثبات أو نقض إمامة أهل البيت عليهم السلام؛ وهذا الجديد من جانبين ربما لا يجدهما المتتبع في العديد من التفاسير المعتمدة:

الأول / النظر الدقيق في الآيات المباركة، من خلال ما يفهمه أي عربي من اللغة، ثم من بلاغة القرآن، وبعد ذلك السياق وغيره، بحيث لا يحتاج إلى الذهاب إلى الروايات التفسيرية إلّا لحاجة الآية أو الآيات المباركة إليها، كجزء لا يتجزأ من وظيفة رسول الله صلى الله عليه وآله **﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾** النحل:٤٤؛

الثاني / ربط الآية أو الآيات بآيات الأمة المسلمة في دعاء إبراهيم

وإسماعيل عليه السلام وما ينتج عنها من منازل لأفراد هذه الأمة المسلمة.

عسى أن أكون قد وفقت لتقديم ما يضيف إلى هذه البحوث المهمة التي تتعلق بالقيادة الشرعية للبشرية، وكتحصيل حاصل القيام بجزء بسيط من الواجب تجاه ثقل الرسول صلى الله عليه وآله الأكبر ـ القرآن المجيد، والذي يعلم الجميع أنه يشكو الهجران في عالم المسلمين.

*

ملاحظة:

هذه بحوث قرآنية، والتعرض للروايات الحديثية يأتي في سياق منهاج البحوث ومنطلقاتها، أي في تدبر القرآن في لغته وتعبيراته، وفي إطار العقل الذي ينظر في الآيات كما الذي يحاكم الآراء المخالفة لما نذهب إليه، وعند ذكر التفسيرات الأخرى التي جاء بها بعض المفسرين والتي استندت إلى روايات نسبت للحديث الشريف أو نسبت إلى آراء بعض الصحابة أو التابعين أو العلماء، وعليه فإن الذي يريد الروايات الحديثية في هذه الآيات المباركة عليه أن يطلبها من الكتب الكثيرة المؤلفة في هذه المجالات، من العلماء الأجلاء أو الباحثين (ولقد ذكرت الكثير منها في بعض الآيات المهمة في كتابي «العودة إلى الأصل ـ إلى آل محمد» عند الاستدلال بالقرآن الكريم في موضوع الإمامة).

مع ذلك، قمت بإيراد مصادر الروايات التفسيرية أو آراء المفسرين، سواء المؤيدة لما ذهبت إليه أو المخالفة له أو المعارضة له، للآية المعينة في آخر الفصل التي يبحثها، من أجل عدم التأثير على المنهاج القرآني للبحوث في

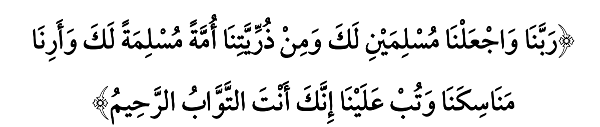
الفصول المتعددة.

أما التفسير نفسه، فإن الحصول على مصدره من أيسر ما يكون، إذ ما على الباحث أو المطالع إلّا الذهاب إلى ذلك التفسير، إلى السورة المباركة، والآية أو الآيات التي يبحثها الفصل.

على أن غالبية التفاسير تعتمد على تفسير «جامع البيان في تفسير القرآن» لمحمد بن جرير أبي جعفر الطبري، أحياناً باستخدام نص ما قاله الطبري حرفياً (دون الإشارة إليه)!

وعندما أذكر أقوالاً لمفسرين آخرين، كالثعلبي أو السعدي أو النسفي أو ابن كثير، فإني أذكره.

أما عندما أذكر «خلاصة الأقوال» من أجل عرضها على الآية كي ننظر هل أنها تناسبها أم لا، فإني إنما أذكر المختصر من الأقوال المعروضة، وغالباً ما هي في تفسير الطبري، الذي هو الأوسع.



﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

القسم الأوّل

المنهاج والتمهيد

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

الفصل الأوّل
منهاج البحوث

إن المنهاج المعتمد في هذه البحوث يقوم على أربعة جوانب:

الجانب الأول / القرآن الكريم

(وهو عمدة البحوث.)

لماذا القرآن الكريم؟

أولاً: يسلّم جميع المسلمين أن القرآن الكريم هو الأصل الأول والأكبر والأهم والمرجع الأول عند المسلمين في كافة البحوث التي تتعلق بالدين. ثم إن اعتماد طريقة تدبر القرآن هو مما نجده في القرآن الكريم كأصل في التنزيل كما نجد فيه الحث الشديد. القرآن يقول ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل:٤٤، ويقول ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ ص:٢٩، ـ ليدّبروا «لام» الأمر أي دعهم يتدبرون، قل لهم يقوموا بالتدبر، أو أنزلناه للتعليل أي أنزلناه ليتدبروا الآيات. ثم هناك حث شديد فيه نوع من التقريع في حالة الفشل، في حالة عدم التدبر ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ محمد:٢٤. لهذا فإن عملية التدبر ستكون من أخص لوازم الاهتمام بالقرآن فتعتمدها هذه البحوث.

ثم أن هناك اتجاهاً متصاعداً في تقديم القرآن كأصل في النظر، ولكن

من منطلقين مختلفين:

منطلق إيجابي، وهو فعلاً يريد أن يضع القرآن في موضعه الحقيقي، لا أن يصبح تابعاً لغيره ـ يصبح القرآن هو الذي تعرض عليه المرجعيات الأخرى؛

منطلق سلبي، يلغي السنّة النبويّة تماماً، والذي نجد أن البعض من ذلك فيه شبهة والبعض الآخر فيه ما هو مشبوه. هذا هو الجانب الأول.

*

الجانب الثاني / إطار العقل

١/ نحن أصلاً في أصل النظر، أصل النظر في القرآن، نعتمد العقل. فعندما نتحدث به مع بعضنا لولا العقل لما كان هناك متسع أو مجال ولكان يمكن اعتماد أي كلام في هذا المجال أو في غيره مطلقاً. فأصل النظر هو العقل.

٢/ إن النظر في القرآن يحتاج إلى العقل، يحتاج إلى النظر في تفاصيله كما سنبيّن من مرجعيات النظر فيه. هذا إضافة إلى أننا عندما ننظر في آية من القرآن لا بد أن ننظر في ما قيل في تفاسير هذه الآية أو فيما نجده عند التدبر في أكثر من وجه لها. فإذا ما عرضنا المرويات عليها سنجد تناقضاً أو تضارباً أو تساقطاً، لذلك سنحتاج إلى العقل للنظر فيها. وهذه مسألة قام ويقوم بها الناس في البحوث المختلفة.

٣/ ثم نحتاج إلى العقل عند النظر في خلفيات المتلقي وردود فعله، كما سنبيّن في الجانب الرابع، لأنه صحيح أن المنطقي المنصف هو "أنظر إلى ما قيل لا من قال"، لكن على أرض الواقع، نعم، القائل خلفياته وردود فعله للماضي والحاضر لها مدخلية كبيرة في ما خرج منه، من العلماء أو

المتحاورين علمياً الذين ننظر في كلامهم.

٤/ بعد ذلك، العقل هو المرجعية التي لابدّ منها للجمع بين كل هذه الأدلة والقرائن والإشارات واللطائف وإلّا لا يمكن أن نخرج بنتيجة في النظر المنفصل لهذا أو لذاك، بل سنصل فقط إلى عرض هذه الأدلة دون نتيجة؛ لا بد من الجمع لنصل إلى نتيجة ولو على سبيل الاحتمال الأقوى ثم الأقل ثم الأقل.

❊

الجانب الثالث / الماضي والحاضر

(أي الإحاطة بالواقع التاريخي والواقع المعاصر.)

ذلك أنه أولاً هذه طريقة نتعلمها من القرآن الكريم ـ القرآن الكريم مليء بقصص الماضي؛ لماذا؟ لأن قصص الماضي ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأَوْلِي الأَلْبَابِ**﴾ يوسف:١١١، والذين لا يتعظون من الماضي سيكررون أخطاءه في سلسلة لا نهاية لها، وهو الحاصل على أرض الواقع. ثم إن القرآن الكريم يقول لنا على المستوى الشخصي ثم على مستوى المجموع: إنّه عندما يعرض هذا يقول ﴿**وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ**﴾ الأنعام:٥٥، لكي لا نقع فيها، لأننا في النتيجة نريد الآخرة، وهي الحصاد لزرعي في الدنيا، فمن الضروري أن أعلم في أي سبيل أسير كي أصل إلى الآخرة بسلام.

وعندما نتدبر القرآن نجد أن هناك آيات واضحة تتحدث عن الأحداث التي كانت تجري في ذلك العهد، العهد النبوي، عهد التنزيل. فبالتالي كيف أعرف أو أستطيع أن أقول وأقنع نفسي كيف أتحرك في الاحتمالات الأكبر لتفسير الآية لولا أن يكون عندي معرفة بما جرى في الماضي؟

وبعدما وضعنا الإطار، من المهم أيضاً أن نكتشف علاقة المواقف في الحاضر، سواء في الفعل أو في ردة الفعل، علاقتها بالماضي، لأن هذا يتصل بترسيخ التنشئة والتعليم، إضافة إلى الاستعداد الشخصي أو غياب الاستعداد العقلي والنفسي.

❊

الجانب الرابع / الجانب النفسي

وهو أن هذه البحوث تتضمن أضواء على الجانب النفسي، لأنه من القرآن الكريم ومن الحديث الشريف ومن استقراء الواقع التاريخي والحاضر إلى ما نتلمسه يومياً، نجد أن للنفس اليد الأعلى على العقل، ولذلك نجد أن القرآن لا يقول: وأكثرهم للحق لا يفهمون، بل يقول ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ المؤمنون:٧٠، الكره قضية نفسية، لماذا؟ هذه مسألة ثانية.

النفس لها مدخلية كبيرة جداً، والدليل هو أن غالبية الجهود في البحوث المقارنة والنقاشات تنتهي إلى لا شيء مع الأسف؛ لماذا؟ لأن النفس هي الأميرة على الجسد، كما ورد في الأثر «وَكَمْ مِنْ عَقْلٍ أسيرٍ تَحتَ هوىً أَمِير» (نهج البلاغة:الحكمة ٢١١)، الهوى هو الذي له السطوة على العقل. (وهذا أيضاً ما تذكره البحوث الطبية في المراحل الخمس في تلقي الأخبار الصادمة بمرض خطير عند الإنسان، وفي حالتنا المعلومات الصادمة لما نشأ عليه الفرد، مما يفصل بشكل أفضل ويعطي جانب التفهم لموقف الآخر).

هذا منهاج البحوث والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثاني
منطلقات البحوث

تنطلق هذه البحوث من الآتي:

المنطلق الأول: منهاج التدبر القرآني

المنطلق الثاني: مرجعية السنّة النبويّة

المنطلق الثالث: التزام المسلم بالبيان الرسولي

المنطلق الرابع: موقف العلماء المخالفين

المنطلق الأول: منهاج التدبر القرآني

للتدبر القرآني أدوات، والأدوات التي يعتمدها هي:

١ / اللغة ـ لغة القرآن في قواعد اللغة العربية (التي لا تخالفها إلا لضرورة بلاغية فريدة)؛ وفي بلاغة القرآن (الذي يستخدم أنواع البيان الأدبي كما عرفه العرب في نثرهم وشعرهم)؛ لأن هذه هي مادة النص الأصلي.

٢ / مرجعية القرآن نفسه: نحن نعلم أن هناك المحكم والمتشابه، فمرجعية القرآن في المحكمات شيء وفي المتشابه شيء آخر، ما يعطي العام والخاص والمطلق والمقيد.. إلخ من الأقسام.

٣ / مرجعية المُصطَفَين الذين عندهم العلم الصحيح للقرآن، وهؤلاء ينقسمون في أدوات تدبرنا إلى قسمين:

الأول ـ مرجعية الرسول صلى الله عليه وآله في صفته الرسولية وفي صفته النبوية، وحتى في صفته البشرية، كما هو مفصل في القرآن، أو مما نستطيع أن نجعله في هذه الأقسام الثلاثة.

الثاني ـ مرجعية خلفاء الرسول صلى الله عليه وآله الذين يستمدون شرعيتهم من النص القرآني ومن الرسول صلى الله عليه وآله.

فهناك تراتبية: مرجعية اللغة هي التي نفهم منها القرآن، مرجعية القرآن تعطي مرجعية الرسول صلى الله عليه وآله، مرجعيتا النص القرآني والرسول صلى الله عليه وآله تعطيان مرجعية خلفائه.

٤ / مرجعية العلماء، والتي نجد تأصيلها في بعض آيات القرآن المجيد، كما نجدها في الحديث الشريف.

٥ / مرجعية العقل، التي أشرنا إليها في منهاج البحوث، لأن مرجعية العقل أولاً لها التأصيل في القرآن، يعني عندما يأمر بالتدبر وعندما يتكلم عن أولي الألباب هي كلها إشارة للموقعية الكبيرة جداً للعقل، وهذه المرجعية نجدها أيضاً في الحديث الشريف، الأهمية الكبيرة للعقل كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن خلفائه.

٦ / الأداة السادسة في التدبر القرآني أسميها: إطار المنهج الصحيح. وهذا المنهج الصحيح:

أولاً، في التدبر وهو في النظر وجمع المعلومات كيف يكون، لا بد أن يكون هناك منهج، ولا تكون القضية عشوائية، كيف أجمع المعلومات وأنا أنظر في هذه الآية وفي تلك الآية، في سؤال العلماء ماذا قالوا في هذه الآية، وماذا قالوا عن تلك؛ ثم في التفكر والبحث، ما نقوم به نحن، لأن القرآن أوسع

من أن يمكن تحجيمه في قول عالم أو في قول ألف عالم فهو دائم العطاء.

ثانياً، هناك ما أُسمّيه «لا عناد»، أنه مع العناد المضاد لما أثبته البحث نسأل لماذا البحث إذاً؟ لماذا نضيع وقتنا إذاً؟ فيجب أن يكون هذا أيضاً معتمداً عند الإنسان الباحث والمتلقي.

٧ / إطار التقوى، فبدون التقوى تتغلب النفس، يتغلب هوى النفس، وكل ما قلناه عن هذه المرجعيات: اللغة، البلاغة، حديث رسول الله وآله، كل ذلك يذهب هباءً، يأتي الهوى فيطيح به مرة واحدة دون معيار.

❊

المنطلق الثاني: مرجعية السنّة النبويّة

وذلك من خلال البيان الرسولي في القرآن. فإن الله تعالى يقول ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل:٤٤، إنا أنزلنا إليك القرآن لكي تبيّن لهم أنت، فهذا ما أُسمّيه هنا: البيان الرسولي للقرآن. فإنه لا يجوز شرعاً لمن يؤمن بالقرآن أن يضرب الحديث الشريف تحت أية ذريعة.

نعم، ما حصل للحديث الشريف في العصر الأول كان كارثة أدّت إلى ما وصلت إليه من تضارب وتناقض في الروايات، ولكن إذا أهملنا الحديث الشريف فإننا نكون قد أعنّا تلك الكارثة على أن تنتج ما هو أشد وأشد على الدمار. بل نقف بوجهها لنقول: لا، الحديث الشريف هو المبين للنص، نعم سنتعب لأنه لم يتم التدوين، وهذا موضوع آخر، لكن هذا الذي يهمنا الآن أن هذه المرجعية لا يمكن شرعاً إهمالها.

❊

المنطلق الثالث: إلتزام المسلم بالبيان الرسولي.

عندما سنأتي إلى بحوث الأمة المسلمة نأتي إلى التفاصيل، الآية الفلانية، الآية الفلانية، القرآن يقول كذا، العقل يقول كذا، نجمعها، ماذا قال الرسول صلى الله عليه وآله وهو المنزّل عليه هذه الآية؟ أن تهملها يعني أن تهمل القرآن الذي أمر برسول الله صلى الله عليه وآله، ولا يمكن التلاعب بهذا المبدأ، إما أن تأخذه وإما أن تكون ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض.

سنأتي في هذه التفاصيل إلى أن هذه القضية قضية إيمانية، فالله تعالى عندما يقول ﴿**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ النساء:٦٥، فهذه آية من أهم الآيات لأنها تتعلق ليس بمرجعية التحاكم فقط بل بكيفية التعامل مع حكم هذه المرجعية الرسولية، كيف أتعامل معها في الواقع الخارجي، كيف أخضع وكيف أتعامل معه في داخل نفسي، وهذا هو المؤشر إلى الإيمان. لذلك قال تعالى: ﴿**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾ فلا يمكن للمسلم أن يبتعد عن ذلك خصوصاً مع ما سنعرضه أيضاً من آيات طاعة الرسول صلى الله عليه وآله على اختلاف درجاتها.

❊

المنطلق الرابع: موقف العلماء المخالفين

نسأل مع وجود هذه الأدلة الواضحة: لماذا يا ترى يخالف عالم وهو يؤمن بأن هذا صحيح؟ لماذا يخالف بشكل قاطع بينما هو يجد أنه ـ على الأقل ـ ربما يكون صحيحاً؟ يكون هذا العالم من القدماء الذين أخرجوا حديث البيان الرسولي، أخرج حديث التفسير الرسولي لهذه الآيات التي أُنزلت عليه، ثم لماذا

يهمله؟ لماذا يخالفه إلى فهم آخر بعيد عن ذلك؟ نسأل هذا. هذا انحراف، ولا يجوز أن نخدع أنفسنا بأن كل عالم هو بالضرورة متدين أو ورع، كما لا يمكن أن نقول أن كل عالم هو على نفس الدرجة من العلم والفهم، لا يجوز ذلك. إننا، عند التدقيق والفحص، سنجد حقيقة في هذا التاريخ وهي وجود وتفشي الكتمان والتدليس والكذب والكيل ليس بمكيالين، بل بخمسين مكيالاً! لأنه كما قلنا، وسنظل نقول: إنه هوى النفس، وإلّا فإن النظر العقلي المجرد واضح. وهذا ما له من علاقة مباشرة بمرجعية القرآن والسنّة.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

القسم الثاني

دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام والاجتباء والتشخيص

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

الفصل الثالث

دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام

هذا الفصل أول الفصول التي ننطلق منها إلى آيات الأمة المسلمة، حيث نتناول مفردة «الأمة المسلمة» في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لنصل إلى فهم معناها، والذي لابُدَّ منه كخطوة أولى في طريق البحث في آيات قرآنية تتعلق بها.

الآيات

نقرأ الآيات ومنها نتكلم في المعنى:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ البقرة:١٢٧ـ١٣٢.

هذه الآيات من سورة البقرة وموضع الكلام هو الآية ١٢٨:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾.

المعنى من الآيات

آية ملفتة للنظر، لأن إبراهيم عليه السلام هنا هو في بناء الكعبة وكان قد مرّ بمراحل كثيرة، مرّ وهو فتى يقال له إبراهيم وماذا فعل بالأصنام وخرج من هناك، وفي العراق رجع ثم لم يمكث مدة مع زوجته ابنة عمه التي لم تنجب له أولاً، ثم تزوج من هاجر وأخذها إلى مكة إلى الحجاز وولد إسماعيل عليه السلام هناك وتركهما ورجع وعاد، وفي العراق حاج إبراهيمَ في ربه ذلك الطاغية... مراحل متعددة، ثم يأتي بعد ذلك بناء البيت العتيق مع إسماعيل عليه السلام، أي أن إسماعيل عليه السلام صار فتى أو شاباً أو حتى رجلاً.

هذه المراحل وإبراهيم عليه السلام هو يمثل الإسلام، الإسلام لوجه الله، كيف يأتي بعد هذه المراحل كلها ليدعو مع ابنه إسماعيل ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾؟

إذاً، هنا يطلبان من الله تعالى أن ينالا المستوى الأعلى في الإسلام.

وهذا هو الإسلام بمعناه الأصلي في اللغة، وحتى في المصطلح القرآني الذي غالباً ما نذهل عنه فنقول: إنّ الإسلام هنا هو الدين الإسلامي. نعم، في القرآن الإسلام هو الدين الإسلامي في بعض، ولكن المعنى الأكمل وفي آيات كثيرة معنى الإسلام أي التسليم لله تعالى فيما أمر ونهى؛ وهذا هو الطريق إلى العروج في آفاق أعلى للقرب من الله تعالى وحب الله تعالى.

فهنا عندما يدعوان عليهما السلام ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ لا يمكن أنهما يدعوان بشيء هو موجود عندهما؛ إذاً هما عندهما الإسلام في درجات عالية ولكنهما عليهما السلام يدعوان إلى المستوى الأعلى.

ثم يدعوان عليهما السلام: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾، فإذاً هذه معطوفة «واجعل

من ذريتنا أمة مسلمة لك»؛ بالتأكيد كلمة ﴿مُسْلِمَةً﴾ هنا على نفس السنخ من ﴿مُسْلِمَيْنِ﴾ هناك. إذاً، هما يدعوان إلى جماعة، يدعوان إلى أمة مسلمة، تمثّلت الإسلام إلى هذا المستوى الأعلى من الإسلام.

ونجد الجار والمجرور ﴿لَكَ﴾ في الاثنتين ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ وهناك في ﴿أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ تسليم لك وحدك لا شريك لك.

المعنى السائد عند المسلمين

الكثير يذهبون إلى أن «الأمة المسلمة» هي الأمة الإسلامية، أي جميع أمة لا إله إلا الله محمد رسول الله من المسلمين على اختلاف أعراقهم ومذاهبهم ومشاربهم. ولكن هذا لا يمكن أن يكون، لأن هذه الأمة المسلمة المقصودة في آية دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هي من الذرية، من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وبالتالي لا يمكن أن تكون الأمة الإسلامية التي فيها من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ومن غيرهما.

وبالتالي هذه الأمة المسلمة المقصود فيها:

هي جماعة من تلك الذرية كبرت أو صغرت، الآن ليس في التشخيص الدقيق ولكن في التشخيص أنها بالتأكيد من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام؛

فلا يمكن أن تكون الأمة الإسلامية لأن فيها من الذرية ومن غير الذرية.

تسمية الذرية من لدن إبراهيم عليه السلام وحتى نزول القرآن

إذا ذهبنا إلى سورة الحج الآية ٧٨، الله تعالى يخاطب فيقول:

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ

أَبِيكُمْ إبراهيم هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

موضع الشاهد هنا ما في عبارة الآية المباركة والتي تربط زمان النزول بزمان إبراهيم عليه السلام:

- ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ اصطفاكم، ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم﴾، إذاً أيضاً يخاطب من هم ذرية إبراهيم عليه السلام حصراً،

- ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ في تلك الآية، آية ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ هذه الأمة المسلمة من الذرية هي التي هناك في آية الحج ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾، من قبل ماذا؟

سمّاكم إبراهيم عليه السلام من قبل، قبل آلاف السنين عندما يرفع القواعد من البيت، أي يبني البيت العتيق مع ولده إسماعيل عليه السلام.

﴿وَفِي هَذَا﴾ أي في القرآن: هذا الكلام هنا بعد نزول القرآن.

فهذه تعضد تلك وتؤكد على أن معنى الأمة المسلمة هي جماعة مخصوصة من الناس من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وليس من ذرية إسحق عليه السلام؛ ليست من الفرع الإسحاقي وإنما من الفرع الإسماعيلي.

وهذه هي في الدعاء، واستجاب الله الدعاء لأنه هنا يقول ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾: فإذاً جعل هذه الأمة واصطفاها.

وسنجد في الآيات الأخرى من دعاء إبراهيم ما هو هذا الاصطفاء ونتائج ذلك ما هي.

الخلاصة

أن الأمة المسلمة (في الآيات) التي من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لا يمكن أن تكون جميع الأمة الإسلامية، بل لا بد أنها جماعة صغيرة منها، وهو معنى نجد استخدامه في لغة العرب كما في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ القصص:٢٣، وهي واضحة في أن «الأمة من الناس» التي كانت عند مورد الماء لا بد وأنها مجموعة صغيرة من الأشخاص.

الفصل الرابع
ويعلّمهم الكتاب والحكمة

إننا نجد دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في مجموعة آيات فيها هذه الآية المباركة، نقرؤها ثم نقرأ ثلاث آيات مشابهة لها، مشابهة جداً، ولكنها غير متطابقة.

الآيات

يجمع هذه الآيات الثلاث جامع وتختلف عن هذه الآية، آية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام:

فقد قرأنا في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في سورة البقرة الآية ١٢٩:

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

هناك ثلاث آيات أخريات مشابهة:

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة:١٥١.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ آل عمران:١٦٤.

تشبهها أيضاً ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الامِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ الجمعة:٢.

هذه الآيات المباركات الأربع، آية دعوة إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام ثم الآيات الثلاث المشابهة.

التدقيق في الآيات المباركة

لتوضيح الدقة القرآنية هنا ما يتعلق بموضوع الأمة المسلمة، سأفصّل الآن كل آية إلى أقسامها الثلاث ثم أضع هذه الأقسام الثلاث كلاً مع بعض لكي يتبين الفرق.

فالآية ١٢٩ من سورة البقرة التي فيها دعاء إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام:

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

ثم يأتي بعد ذلك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ثم الآية ١٥١ من سورة البقرة ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

وآية آل عمران ١٦٤ ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾.

ثم تأتي أخيراً الآية ٢ من سورة الجمعة ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الامِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾.

المقارنة بين أقسام الآيات المباركة

هنا كي يتوضح الفرق بين كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة في كل من الآيات سنضعها مع بعض:

فالقسم الأول في أربع آيات:

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ﴾

و ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾

و ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الامِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ﴾

الفارق بين آية دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام والآيات الباقية هو:

دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام موجه مخصص في الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

أما هذه الثلاث فواحدة منها ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولا مِنْكُمْ﴾ يتكلم مع الأمة الإسلامية كلها، مع كل المسلمين.

وآية آل عمران ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ تتحدث مع المؤمنين من المسلمين (لأننا نعلم أن المسلمين فيهم المؤمنون وفيهم المنافقون والذين في قلوبهم مرض والذين في قلوبهم زيغ، كما نعلم أنه ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ الحجرات:١٤، إذاً هنا الآية ١٦٤ من آل عمران تتحدث مع المؤمنين في المسلمين).

وأخيراً آية الجمعة ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الامِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ تتحدث مع الأمّيّين، وهم أكل مكة أو أهل مكة والمدينة أهل الحجاز عموماً أو الجزيرة

العربية، وهذا الرأي ليس جديداً من المفسرين (ولكن البعض يذهب إلى الرأي الآخر بأن الأمّيّين هم الذين لا يعرفون القراءة والكتابة، وهو رأي باطل بدليل أنه صلى الله عليه وآله الرسول النبي الأمي ونحن لا نعتقد أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان لا يقرأ ولا يكتب، ولكن لم يكن يمارس ذلك من أجل إحاطته من الله تعالى بجميع ما يرد الافتراءات والشبهات عليه ﴿**وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ العنكبوت:٤٨، حتى لا يقولون أنك أنت كنت تكتب)، ولكن «أمّيّ» من الأمّيّين (وهذا يمكن التعرف عليه في آيات أخرى في القرآن أنهم أهل مكة أو الحجاز عموماً، وربما الجزيرة العربية أو العرب عموماً عندما نزل الكتاب المبين).

فإذاً الآيات الثلاث تستوعب الأمة الإسلامية كما تستوعب المؤمنين فيها وأيضاً المسلمون الذين نزل فيهم عندما نزل الكتاب وهم الأميّون. بينما الآية الأولى في دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هي قطعاً الذرية المسلمة التي ستكون على المستوى الأعلى من الإسلام حسب دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

أما القسم الثاني

من كل من هذه الآيات الشاهد على موضع الدقة في التعبير القرآني، نجد أن الآيات الثلاث (غير آيات دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام) :

يبدأ بـ «يتلو عليهم الآيات ثم يزكيهم وبعد ذلك يأتي التعليم والكتاب والحكمة».

نجد ﴿**يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم**﴾ عندما يتكلم مع الأمة الإسلامية، ﴿**يتلو عليكم آياتنا و يزكيكم و يعلمكم الكتاب والحكمة**﴾ يتحدث عن المؤمنين مَنَّ

على المؤمنين ﴿يتلو عليهم آياته و يزكيهم و يعلمهم الكتاب والحكمة﴾ يتحدث عن الأمّيّين ﴿يتلو عليهم آياته و يزكيهم و يعلمهم الكتاب والحكمة﴾.

لكن عندما نأتي إلى دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام عن الأمة المسلمة ماذا يقول؟ يقول:

﴿يتلو عليهم آياتك و يعلمهم الكتاب والحكمة و يزكيهم﴾.

الفارق الأساس في نصوص الآيات المباركة

الفرق واضح الآن إن شاء الله:

(البقرة:١٢٩) ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾

(البقرة:١٥١) ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آَيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾

(آل عمران:١٦٤) ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾

(الجمعة:٢) ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾

إن «في تلاوة الآيات، تلاوة القرآن» موجودة في جميعها في البداية، لكن الفارق هو في «تعليم الكتاب والحكمة»:

مع آيات الذرية المسلمة يأتي مباشرة قبل ﴿ويزكيهم﴾، مع الآخرين لا، يأتي بعد التزكية، فما معنى هذا؟

النظر في الآيات المباركة

عندما نزل القرآن في الأمّيّين، ثم بعد ذلك عندما يخاطب المؤمنين الذين آمنوا وتمثّلوا الإيمان ويصدق عليهم صفة المؤمنين، أو عندما يتحدث مع المسلمين الآن، أول شيء لكي يدخل الإنسان في الإسلام أول شيء أنه يستمع إلى آيات القرآن، «تلاوة» الآيات، مشتركة بين الآيات الثلاث مع آية

دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، لأن الطريق إلى آيات القرآن هي من رسول الله محمد عليه السلام، هو صلى الله عليه وآله أوحي إليه بها فمن عنده صلى الله عليه وآله تذهب وتصل إلى الآخرين؛ إذاً في هذه الحالات كلها يتلو الآيات أولاً.

وعندما يأتي صلى الله عليه وآله ويتلو آيات القرآن على الشخص أو الجماعة عندما كان يعرض عليهم الإسلام، أول شيء يتلو عليهم القرآن، يقول: أني قد أوحي إليّ، هناك احتمالان:

الاحتمال الأول / أن هذا الشخص المستمع إما يقبل هذه الآيات وإما يرفض، وإذا رفض هذه الآيات يبقى على كفره بالإسلام؛ ربما يدعوه النبي صلى الله عليه وآله مرة أخرى، لكن عندما لا يستجيب بقي على ما هو عليه، هذا لا يمكن أن يفعل رسول الله صلى الله عليه وآله معه أي شيء آخر، أي لا يأتي إليه ويقول تعال أعلمك الكتاب والحكمة، فهو أصلاً رافض له.

الاحتمال الثاني / قَبِلَ، عندما يقبل يقول له: إني أصدقك في هذا، ماذا أفعل؟ يقول له: تدخل الإسلام، يسأل: كيف؟ يقول له: تتشهد الشهادتين، فيقول:«أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله»؛ بعد ذلك يسأل: ماذا أفعل؟ يقول: أعلمك الآن؛ فيعلمه صلى الله عليه وآله العقائد، طبعاً في البداية المبادئ الأساسية لا تشرك بالله شيئاً وتؤمن بالمعاد وتؤمن بالرسالة والأحكام الفقهية حسبما تتنزل.

(اليوم كذلك، إذا جاء شخص أول ما يدخل إلى الإسلام نقول له: تشهد الشهادتين، بعد ذلك نعلمه الكتاب والحكمة، والكتاب هو الأحكام، أي الدين في العقيدة وفي الأحكام الشرعية الفقهية، لأن لمفردة «الكتاب» في القرآن

معاني متعددة، فهنا نعلمهم الكتاب بعد تلاوة الآيات، و«الحكمة» وضع الشيء في موضعه، وهنا يتعلق بالهَدْي، بعيداً عن إفعل ولا تفعل).

إذاً، ما الذي حصل في هذه الآيات الثلاث مع الأمّيّين، ومع المسلمين، ومع المؤمنين في المسلمين؟

أولاً / الآيات الثلاث

إنه تُليت عليهم آيات القرآن ثم تم تعليمهم الكتاب والحكمة في المرحلة الثالثة، هناك شيء حصل في الوسط هو أنهم تشهدوا الشهادتين فقط، هذا يحتاج أن يتشهد الشهادتين مع انعقاد النيّة والصدق في ذلك، بعد ذلك مباشرة يصبحون جاهزين لتعليم الكتاب والحكمة. إذاً هذا الشيء وهو النطق بالشهادتين هو يزكيهم، أو يزكيكم حسب التعبير، مخاطب أو غائب، فما معنى هذه التزكية؟ معناها التزكية من الشرك، إذاً هو طهركم فزُكِّيتُم أنتم من نجاسة الشرك إلى طهارة الإيمان والإسلام لله.

(وهذا هو معنى الزكاة ، فحتى زكاة المال لماذا سميّت زكاة؟ هي ضريبة في حركتها الخارجية، لكن سُمّيت زكاة لأنها تزكّي المال تطهّره من النجاسة التي فيه، كأنما المال إلى أن يخرج منه حق الله تعالى هو مختلط ليس نظيفاً تماماً، أخرجت منه حق الله تعالى صار زاكياً صار طاهراً ، أصبح جميع ما تبقى منه بعد التزكية حلالاً لك).

إذاً، هذه الآيات الثلاث، بكل تأكيد (١) تلاوة القرآن بعد ذلك (٢) التزكية هي في الدخول في الإسلام بالنطق بالشهادتين مع انعقاد النية على ذلك، بعد ذلك (٣) تعليم الكتاب والحكمة.

ثانياً / آية «الذرية المسلمة»

ولكن آية الذرية الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام تقدّم التعليم، تعليم الكتاب والحكمة على التزكية. لماذا؟ لأن هذه الذرية المسلمة هي في الأصل مسلمة، لم يخالطها الشرك والكفر مطلقاً، فإن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام دَعَوا الله تعالى أن يجعل من ذريتهما هذه الأمة المسلمة وفي أرقى درجات الإسلام، فهذه الجماعة من الذرية، ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قد تلبّست في الإسلام منذ اللحظة الأولى، لم يخالطها الشك أصلاً، فلا تحتاج أن تأتي لتتزكى من الشرك بعد تلاوة الآيات بأن تتشهد الشهادتين، (نعم الجميع يتشهدون الشهادتين لتأكيد ذلك كل يوم، رسول الله صلى الله عليه وآله عندما كان يصلي يتشهد الشهادتين وهو من هو، ولكن الكلام عن أصل الدخول إلى الدين).

فإذاً، يتلو عليهم آياتك، هذه الأمة المسلمة من الذرية الابراهيمية الاسماعيلية ﴿**يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ**﴾ ومباشرة ﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾ لأنهم جاهزون لذلك، أصلاً أول ما تلي الكتاب عليهم هم مسلمون، فلطالما كانوا مسلمين، وكما قلنا في آيات الحج ﴿**سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ**﴾.

إذاً، تعليم الكتاب والحكمة مباشرة لأنه لا يحتاج إلى التزكية من الشرك. فما معنى كلمة ﴿**يُزَكِّيهِمْ**﴾ في الأخير؟ هناك في الآيات الثلاث الأخرى يزكّيهم في التلفظ بالشهادتين، أما هنا ما معنى ﴿**يُزَكِّيهِمْ**﴾ في هذه الآية؟ **لا يتبقى لمفردة ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ إلا معنى التزكية أنه يقدمهم إلى الناس «هؤلاء أزكّيهم من النقص من الشرك من الجهل من الظلم بعد أن أعددتهم بتعليم**

الكتاب والحكمة».

وإلا، فمن غير المعقول أن تكون الذرية المسلمة التي هي الأعلى في الإسلام بحاجة إلى مَن يأتي فيزكيها بالشهادتين بعد أن يتلو عليها الآيات، إذ أن الشهادتين متلبسة بها أصلاً، منذ دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام واستجاب الله تعالى لها.

الخلاصة

فهذا هو الفارق المهم جداً بين هذه الآيات في دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، آية الأمة المسلمة، والآيات الأخرى، ما يثبت أن الأمة المسلمة هي ليست ما يُظن من الفهم السائد أنها الأمة الإسلامية جميعاً.

أولاً أنها ليست جميعها من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وثانياً لهذه النكتة الدقيقة في كتاب الله تعالى.

وإتماماً لذلك /

نجد أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يقولان ﴿**إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾.

بينما الآيات الأخرى، واحدة تقول ﴿**وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾، وآيتان تقولان ﴿**وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ**﴾، ضلال مبين ضالّون عن الهدى ضالّون عن الإيمان لأنكم كنتم من المشركين من الكافرين، يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون تحتمل هذا وذاك.

ولكن بالتأكيد آية الذرية هي ﴿**إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ ولا يذكر أنهم كانوا في ضلال أو في جهل أبداً.

❊

فهذا الجزء من نصوص «الذرية الأمة المسلمة» يؤكد أن هذه الأمة المسلمة ليس فقط من ذرية إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام ليست الأمة الإسلامية كلها، ولكن جماعة مخصصة، وليس فقط أنها جماعة مخصصة وكفى، ولكن أيضاً أن هذه الجماعة لها دور كبير خطير مهم، بحيث أن الرسول المبعوث فيهمصلى الله عليه وآله يهيؤهم ثم يطلقهم إلى الناس، يزكّيهم إلى الناس، أن هؤلاء أنا أزكيهم أنهم لا شائبة فيهم من شرك من جهل من ضلال من ظلم.

الفصل الخامس
الاجتباء والشهادة على الناس

مما يتصل بالأمة المسلمة من ذرية إبراهيم عليه السلام ما نجده في قضيتين مرتبطة إحداهما بالأخرى:

ـ الاجتباء من بين الخلق.

ـ الشهادة على الناس، كإحدى نتائج الاجتباء (والذي هو ـ أي الاجتباء ـ يتضمن في الأصل القيادة الشرعية في الدنيا، لتكون الشهادة على الناس الجانب التالي في الآخرة).

نجد قضية **الشهادة على الناس** في آية سورة الحج.

نقرأها ثم نقرأ الآية الثانية أيضاً في سورة البقرة لنلقي ضوءاً على موقعية الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

آية سورة الحج المباركة

في سورة الحج الآية ٧٨:

﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

هذه الآية تقول:

ـ ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ إصطفاكم منذ دعوة إبراهيم عليه السلام لأنه يربطها **﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾**؛ واضح أن **﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم﴾** من ذريته، إذاً

يتحدث عن تلك الأمة.

ـ ﴿**هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ**﴾، عندما قال ﴿**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ**﴾ ﴿**هُوَ سَمَّاكُمُ الْـمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ**﴾ أي إسلام؟ هذا النوع من الإسلام الذي هو في الدرجة الأعلى من الإسلام لله تعالى والتسليم والخضوع لله تعالى.

﴿**وَفِي هَذَا**﴾ يعني في القرآن. الكلام معهم الآن بعد أن أُنزل القرآن، وسمّاهم عندما كان يرفع القواعد من البيت العتيق مع إسماعيل عليه السلام قبل نزول الإسلام بنحو ألفين وخمسمائة عام؛ الآن نزل القرآن، في القرآن أيضاً هذا إسمكم.

ثم يقول ﴿**لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾.

هذه اللام في ﴿**لِيَكُونَ**﴾ يمكن أن تكون «لام» الأمر أو لام التعليل. ولكن لو كانت أمراً للرسول صلى الله عليه وآله أن يكون شهيداً عليهم لكانت جزمت «يكون» بحذف الواو لتصبح «لِيَكُن الرسول»، لكن هذه اللام ما حذفت بل نصبت ﴿**لِيَكُونَ**﴾، إذاً هي لام التعليل ـ أي «من أجل»، أي أنّ **علّة اجتبائكم وما جعل عليكم في الدين من حرج هو من أجل أن يكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس**. وبما أن ﴿**تَكُونوا**﴾ محذوفة النون، فإنها (كواحدة من الأفعال الخمسة في قواعد اللغة) منصوبة، وبالتالي هي معطوفة على ﴿**يَكُونَ**﴾، وهي المنصوبة بلام التعليل.

إذاً «الاجتباء والتهيئة» بأن «لم يجعل عليهم في الدين من حرج» هما من أجل «أن يكون الرسول شهيداً عليهم» ومن أجل «أن يكونوا شهداء على

الناس».

آية سورة البقرة المباركة

في سورة البقرة ١٤٣ هناك آية:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

هنا ـ مثل تلك ـ أيضاً تذكر مفردات (١) أُمّة و (٢) شهداء على الناس و (٣) يكون الرسول عليكم شهيداً. فإذا كانت «الشهداء على الناس» تلك هي الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فإن هذه هي أيضاً.

الفهم السائد أن الأمة الإسلامية ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، ولهذا تجدهم يتحدثون عن مفردة الوسطية وأن الأمة الإسلامية أمة وسطية تأتي من هنا، وهذا فهم خطأ، لأن هذه بالضبط هي تلك؛ لماذا؟

ربما يأتي شخص ويقول: لماذا لا يمكن أن تكون آية سورة الحج تخص الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهنا آية سورة البقرة تشمل الأمة الإسلامية كلها؟

نقول له: لا، لا يمكن ذلك، لأن الأمة الإسلامية فيها أصناف البشر حتى من ضمن الدين من الناس الذين هم قمم في الإيمان والعطاء والتقوى والتضحية والنبل والعمل إلى ما هم على أشد درجات السوء من الفاجر والفاسق والظالم والخائن وما شئت، فكيف يكون هؤلاء شهداء على الناس. الشهادة على الناس تعني يأتون يشهدون أن هؤلاء الناس قاموا بواجباتهم ويأتي الرسول صلى الله عليه وآله فيشهد على هؤلاء الشهداء أنهم هم قاموا بواجبهم في

الشهادة على الناس. فهل يمكن أن هؤلاء الفجرة الظلمة الفسقة يكونون من ضمن المسلمين ويكونون شهداء على الناس؟! ليس معقولاً. هذه الأمة التي تضم خليطاً من هؤلاء هل يمكن أن تكون شاهدة على الناس؟ لا يمكن. لاسيما عندما تكون في مراحل من الأوضاع المزرية كالتي نعيشها الآن. إذاً هذه الأمة الشاهدة هنا (آية البقرة) هي الشاهدة هناك (آية الحج).

هؤلاء الشهداء على الناس هم جماعة خالصون مخلصون من الشك والدرن، هم المسلمون كما قلنا في دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في أعلى الدرجات من الإسلام.

ما هي الشهادة على الناس؟

وشهادتهم على الناس، ما هي شهادتهم على الناس؟ يشهدون على ماذا؟

الشاهد هو المطلع على ما حصل، فسيأتي ويقول أنا أشهد بأن هؤلاء الناس قاموا بكذا أو لم يقوموا بكذا، نجحوا في واجباتهم أو فشلوا، درجة نجاحهم كانت ٥٠ أو ٧٠ أو ٩٠ ٪، إذاً هو قائم عليهم هو وليّ لهم، هو المعلم لهم هو القائد لهم.

التزكية إلى الناس

الذي ذكرناه في كلمة ﴿يزكّيهم﴾ التي جعلها الله تعالى في المرحلة الثالثة في الآية ١٢٩ من سورة البقرة في دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يزكيهم إلى الناس. فهؤلاء بعد أن كانوا منذ البدء على هذه الدرجة من الإسلام، ثم تم إعدادهم من الرسول المبعوث فيهم بتعليم الكتاب والحكمة، ثم تزكيتهم إلى الناس، هؤلاء الخالصون المخلصون

من الشرك ومن الجهل، يقومون بدورهم في هداية الناس.

كيف يتفاعل الناس معهم؟ هنا في يوم القيامة يشهدون تفاعلاً معنا كذا وكذا وكذا، بالسلب والإيجاب.

الأمة الوسط

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، الوسط هنا إذاً الذين يتوسطون التطرف يميناً وشمالاً، فهي الأمة الوسط ليست الوسط بالمعنى الذي تستخدم أحياناً إلى درجة إهمال الأسس الدينية، ولكن الوسط تعني على الصراط المستقيم ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، هذا هو الوسط، هذه هي الوسطية.

اختبار المسلمين في الآية المباركة

ولعل من الشيء الجميل في هذه الآية في سورة البقرة الآية ١٤٣ ما يلي:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

قضية القبلة قضية مهمة يقول ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلا لِنَعْلَمَ﴾ «وما.. إلاّ» تعني فقط، يعني الهدف من جعل القبلة إلى بيت المقدس عدة أشهر، وقيل حتى أكثر من سنة، هذه كانت فقط لاختبار المسلمين مَن منهم يتبع الرسولﷺ فيصلي خلفه إلى تلك القبلة مع التسليم بما أمر الرسولﷺ ومَن منهم ينقلب على عقبيه. فقد صار اليهود يعيّرونهم أنكم أنتم تتبعوننا،

ولذلك كان يضيق حتى رسول الله صلى الله عليه وآله يقول ﴿**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا**﴾ لأنه يقول لهم: نحن لا نتبعكم، أنتم تتبعوننا، أنتم دين جاء بعدنا وها أنتم تصلون إلى المكان المقدس عندنا. هنا يتبين من يتبع الرسول صلى الله عليه وآله، الرسول صلى الله عليه وآله قال نصلي إلى بيت المقدس، ﴿**وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ**﴾ الذين هم ضعاف في صفة الهدى يتزلزلون. يقولون: هذا الرسول يبعث الشك، ومن هنا يأتي الانقلاب على الأعقاب.

فالجمال في ربط قضية القبلة مع الأمة الوسط الشهداء على الناس، أنهم يشهدون على الناس جميعاً مسلمين وغير مسلمين، وأنها أمة وسط على الصراط المستقيم الذي يتبع الرسول صلى الله عليه وآله يسير وفق ذلك ولا يخالف؛ ويتبين أيضاً من ينقلب على عقبيه، ﴿**وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ**﴾.

علاقة الشهادة على الناس بالصفات والموقعية

إذاً هذه هي الشهادة، الشهادة على الناس مرتبطة بالموقعية ومرتبطة بالمواصفات، فلا يمكن أن يكون شهيداً على الناس إن لم يكن على المستوى الأعلى في الإيمان والمستوى الأعلى في العلم. عندما يطلبون شاهداً في المحكمة لا يأتون بشخص يُطعن في صدقه في قضية محددة، مثلاً شخص استدان من شخص آخر، فما بالك بقضية الدِّين؟ إذاً يجب أن يكونوا محاطين بلطف الله تعالى ورحمته، لا يمكن إلّا أن يكونوا من تلك الدرجة العليا والإسلام التي دعا إليه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، خصوصاً إبراهيم عليه السلام بعد كل مسيرته يدعو أن يجعله الله تعالى بهذا المستوى من الإسلام.

الفصل السادس
تشخيص الأمّة المسلمة

بعد أن قدمنا معنى الأمة المسلمة بالمعنى اللغوي والقرآني، والذي توصلنا فيه إلى أن الأمة المسلمة لا يمكن أن تكون الأمة الإسلامية جمعاء، وذلك بلحاظ أنها من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بينما ليست الأمة الإسلامية كلها من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، إضافة إلى أن هذه الأمة هي مصطفاة ﴿**هُوَ اجْتَبَاكُمْ**﴾، وإضافة إلى أن هذه الأمة هي الأمة التي تكون شاهدة على الناس، في آيتي ﴿**وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاس**﴾ الحج:٧٨، ﴿**لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾ البقرة:١٤٣، ما يعني أن الشهادة تكون من الذين يتمتعون بالثقة الكاملة، وهذا ينطلق من الجذر الذي هو أساس التسليم الكامل لله في كلمة الأمة المسلمة الذي هو نوع الإسلام الأعلى، بحيث أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام دعيا به وهما في القمة من العلاقة بالله تعالى...

بعد هذا، هنا أقدم التشخيص ما هو، أو من هم أعيان الأمة المسلمة؟

تشخيص الرسول المبعوث فيهم

مما قدمنا أن الأمة المسلمة في دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وفي الآيات الأخرى التي ذكرناها، أن الرسول الذي منهم ﴿**وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ**﴾ والذي ﴿**يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ**﴾، هذا الرسول لا خلاف في أنه رسول الله محمد بن

عبد الله صلى الله عليه وآله، لا خلاف بين المسلمين في هذا.

إلا أن الخلاف وقع في تفسير الأمة المسلمة.

مستندات التشخيص

المستند الأول

قلنا أن هذه الآية كلمة «**الأمة المسلمة**» بما قدمناها بهذه المواصفات،

(أولاً) أنها من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

(ثانياً) أنها مجتباة، هاتان الصفتان لا يمكن أن تكون للأمة كلها.

و (ثالثاً) ـ وهو المهم ـ لا يوجد إجماع من المسلمين على منزلة وفضل جماعة من كبار المسلمين في الصدر الأول في القرون الأولى لا يوجد إجماع إلّا على أهل البيت عليهم السلام بالتحديد علي وفاطمة والحسن والحسين، (هذا على أقل تقدير، لأن هؤلاء يتمعتون أيضاً بدرجة الصحبة التي هي الدرجة العليا عند أهل السنّة).

المستند الثاني

فهذه الأمة المسلمة، هذه الجماعة، هي الوحيدة التي تنطبق عليها أنها من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، أنها يمكن بصفاتها العليا التي لا ينازعها فيها أحد من المسلمين يمكن أن تكون شهداء على الناس، تشهد هؤلاء الناس فعلوا كذا ولم يفعلوا كذا، أين قصّروا أين لم يقصروا.

المستند الثالث

وثالثاً، هناك بيان ضمني أو مصرح به بهم، الحد المشترك فيه على الأقل هو ما يجري على لسان كل مسلم يقيم الصلاة كل يوم عدة مرات «يصلي

على آل محمد كما يصلي على محمد، ولا يصلي على غيرهم من الأصحاب أو من التابعين أو من الأمة كلها».

فما هو التشخيص؟

فإذاً التشخيص الذي نتوصل إليه: هو أن الأمة المسلمة هي هذه من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، **هم أهل البيت** عليهم السلام **علي وفاطمة وأبناؤهما الأئمة** عليهم السلام والرسول الذي هو فيهم الذي هو يتلو عليهم آيات القرآن، هو الذي يعلمهم قبل أن يزكيهم يطلقهم إلى الناس أئمة هدى هو رسول الله محمد صلى الله عليه وآله.

بحوث الأمة المسلمة

من هذا سيكون محتوى البحث، في فصول على ثلاثة أقسام:

القسم الثالث من الكتاب /

فصول مخصصة للرسول، رسول الله صلى الله عليه وآله ، فهو رسول الله في القرآن.

حلقة عن الأوصاف، وأيضاً عن المكانة في خلق الله.

فصل آخر عن الرسول والعلاقة مع القرآن، الامتزاج والافتراق.

فصول في المرجعيات المحمدية والنبوية والرسولية، أي بصفته صلى الله عليه وآله البشرية، وبصفته النبوية، وبصفته الرسولية، حيث تمتد فيها ـ بدرجات مختلفة ـ أسس التشريع، والتي ستكون الأكبر في المرجعية الرسولية، والأقل في المرجعية المحمدية/البشرية والتي تتعلق أكثر بجوانب الهَدْي، مما سنوضحه في الآيات التي سنختارها. (راجع الفصل الخامس الذي يفصّل في تعريف كل من هذه المرجعيات.)

القسمان الرابع والخامس من الكتاب /

من هذه البحوث ستكون الأمة المسلمة من الذرية التي بُعث فيهم الرسول صلى الله عليه وآله والتي قلنا أنها أهل البيت عليهم السلام علي وفاطمة وأولادهما الأئمة من العترة الطاهرة.

هناك ستكون مجموعة من الفصول تتناول:

(١) في «القسم الرابع من الكتاب» الآيات التي دائماً ما يعرضها شيعتهم إلى إخوانهم من المذاهب الأخرى، عندما يريدون أن يعرّفوهم بما جهلوا من موقعية هؤلاء الأطهار.

(٢) في «القسم الخامس من الكتاب» مجموعة أخرى من الآيات التي هي أقل شهرة على الرغم من دلالاتها العظيمة، بل العظيمة جداً.

كل ذلك فيما يتعلق بهذا المصطلح الذي لا نغادره في جميع البحث وهو «المسلمة التي وصلت إلى الدرجة العليا من التسليم» ـ لا ننسى الدرجة العليا التي طلبها إبراهيم عليه السلام بعد كل هذه المراحل التي قطعها، في الدرجة العليا. وعليه هذه الآية، ما دلالتها؟ ما وظيفتهم عليهم السلام وقد وصلوا إلى تلك المنزلة؟

فنأخذ آية التطهير، آية الولاية، آية المباهلة، من سورة الكوثر فيما يخص فاطمة عليها السلام ومن ولدها، وأيضاً الحسنان عليهما السلام وآيات الأسباط، آيتا التصدّق عند النجوى، عند مناجاة الرسول صلى الله عليه وآله، وكيف فعل علي عليه السلام، وآية المنذر والهادي في سورة الرعد أيضاً نزلت في علي عليه السلام مع آية ويتلوه شاهد منه، وهناك أيضاً طاعة أولي الأمر التي تثبت المرجعية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، المرجعية ليس فقط في إمامة الدين ولكن أيضاً في إمامة الحكم، إدارة الدولة.

ثم هناك مجموعة آيات أخرى التي قلنا هي أقل شهرة والتي فيها آيات

الرسول والأمة المسلمة مما لا يُلتفت إليه عـادة، مثـل آيـة ﴿وَعَلَّـمَ آَدَمَ الاسْـمَاءَ كُلَّهَا﴾ البقرة:٣١ ، وآية الحسد ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آَتَـاهُمُ اللهُ مِـنْ فَضْـلِهِ﴾ النساء:٥٤، وآية ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ التوبة:١١٩، وآيات أخرى مما يمكـن أن يعضد معنى الإسلام في الأمة المسلمة أو يستفاد منـه لتفسـير هـذه الآيـة أو تلك.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

القسم الثالث

الرسول المبعوث فيهم

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

الفصل السابع
الرسولﷺ تقديم ومحتوى

هذا القسم يقسّم آيات الرسول المبعوث فيهم، ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ﴾ البقرة:١٢٩، من بعد أن قال إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ البقرة:١٢٨، ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ﴾، فهذا الرسول الذي هو رسول منهم هو الذي بدونه لم تحصل تلك الأمة المسلمة على الشرعية؛ لأنه هو الذي بعد أن تلا عليهم وعلّمهم الكتاب والحكمة زكّاهم إلى الناس.

هذا القسم يعطي إضاءات على رسول اللهﷺ في هذه البحوث.

الحصر غير ممكن

أولاً: أقول: إنّ الحصر متعذر جداً، لأن رسول اللهﷺ مندكٌّ في القرآن، فإن آيات الرسولﷺ لا حصر لها...

وبما أنه ـ كما روي عن النبيﷺ ـ «إنَّ القُرآنَ ليُصدّقُ بعضُهُ بعضاً، فلا تكذّبوا بعضَهُ ببعض» (كنز العمال ج١، حديث ٢٨٦١)، وكما روي عن الإمام عليعليه السلام «ويَنطِقُ بعضُهُ ببَعض، ويشهَدُ بعضُهَ على بَعض» (نهج البلاغة الخطبة ١٣٣)، فإن تناول آيات الرسولﷺ في القرآن سيكون بمثابة تفسير كامل لكتاب الله، وطوبى لمن وُفّق إلى ذلك.

أمثلة فقط عن آيات الرسول صلى الله عليه وآله

لهذا فإن آيات الرسول صلى الله عليه وآله ستكون أمثلة وقد أدرجتها في فصول:

فصل أوصاف رسول الله صلى الله عليه وآله.

وفصل مكانته صلى الله عليه وآله في خلق الله، وذلك من خلال منزلته صلى الله عليه وآله عند الله وموقعيته صلى الله عليه وآله في صراع الهدى والظلام وشهادته صلى الله عليه وآله على الناس، لأنه في منزلته صلى الله عليه وآله عند الله تعالى ننظر كيف هي موقعيته صلى الله عليه وآله عند الأمة في صراع الهدى والظلام، وهذه موقعية سينتج عنها أنه صلى الله عليه وآله سيشهد على الناس بما فعلوا.

وهناك فصل يلفت إلى أن علاقته صلى الله عليه وآله بالقرآن تفترق إلى قسمين:

قسم نجد فيه الانفصال عن القرآن وآخر نجد فيه الامتزاج معه؛ إن انفصال الرسول صلى الله عليه وآله عن القرآن ضروري لإثبات أن القرآن من عند الله وليس من إنشائه صلى الله عليه وآله، والامتزاج من أجل ترسيخ طاعته صلى الله عليه وآله التي هي طاعة الكتاب.

وفصل يلفت إلى وجوب التفريق الدقيق في الخطاب القرآني.

(مما يؤسف له أنه ليس فقط القراءة السريعة للقرآن، أو قراءة الناس عموماً، ولكن حتى قراءة العلماء، بل وحتى من المفسرين، تجد كثيراً من التفاسير حتى الحديثة ليس فيها ذلك التدقيق في دقائق القرآن، نعم هناك إلتفات عند الذين يجلسون لينظروا في القضايا البيانية في بيان القرآن وبلاغته، لكن المفسر يحتاج إلى اهتمام بهذا؛ كي يحلق في آفاق أكثر وأكثر من هذا الكتاب العجيب... لا نجد هذا).

يتبع ذلك فصول المرجعيات: المحمدية والنبوية والرسولية:

أولاً: فصل في المرجعية المحمدية، أي بصفته البشرية والتي نقدم عنها مثالين ربما، مثال من الهدي، طريقته، سمته، كيف يفعل، ومن التشريع أيضاً، لأن هناك أيضاً ما يتعلق بالتشريع من صفته البشرية.

ثم فصل عن مرجعيته النبوية، أي هذا الرسول بصفته النبوية، أيضاً نأخذ في الإدارة وفي التشريع، الآيات التي تتحدث عن إدارة، آيات مرحلية (فيها جانب مكاني وزماني)، والآيات التي صارت تشريعاً.

ثم ثلاثة فصول في المرجعية الرسولية، وهذا من أهم ما يتعلق ببحوث الأمة المسلمة، لأن الكلام هو ﴿**وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ**﴾ البقرة:١٢٩، فالمرجعية الرسولية التي تتدرج في علاقتها، درجة حريتها مقارنة بالنص القرآني إلى ثلاثة مستويات:

المستوى الأول: هو تلاوة القرآن، لأنه هو يتلو عليكم النص القرآني وأيضاً يبيّن الشيء بالشكل المباشر، ربما نجده في ﴿**أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ**﴾ الأنفال:٢٠.

المستوى الثاني: هو البيان الرسولي من خارج النص، آيات نزلت، يعلمنا كم عدد ركعات الصلاة مثلاً لا توجد في النص، فيبينها من خارج النص، هذا يمكن في ﴿**أَطِيعُوا اللهَّ وَالرَّسُولَ**﴾ آل عمران:٣٢، مساحة بيان أكثر.

المستوى الثالث: وهو الوحي والحكمة والميزان في الأمور، هذه التي من خارج القرآن لا تستطيع وضع اليد تماماً على هذه الآية أو تلك، ولعل هذه في ﴿**أَطِيعُوا اللهَّ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾ كما في النساء:٥٩ جعل لهﷺ طاعة منفصلة.

ثم الفصل الأخير في آيات الرسول صلى الله عليه وآله وهو تحكيم الرسول والصّدّ عنه صلى الله عليه وآله، هذان الجانبان المتكاملان: وجوب تحكيم الرسول صلى الله عليه وآله ووجوب عدم الصّد عنه صلى الله عليه وآله، عدم الإعراض عمّا يآمر به صلى الله عليه وآله.

هذه ستكون النصوص.

كيفية التناول

أما كيف سيتم تناول كل بحث مختصر، فسيكون:

ـ نص الآية أو الآيات

ـ يتلوه نصوص من الآية يتناول اللغة، وهي الأداة الأولى في التدبر القرآني، ومن أجل أن يكون المعوّل على النص لكي لا نغرق في ألاعيب الجرح والتعديل واللف والدوران حولها عندما يأتي الأمر إلى موقعية الرسول صلى الله عليه وآله وموقعية أئمة الهدى عليهم السلام ؛ اللغة هي الأساس وما يكون عند البيان الرسولي من الحديث الشريف من غير ذلك سيكون ليعضده ليس إلّا.

ـ بعد ذلك الربط مع آيات الأمة المسلمة كون هذا هو البحث أصلاً.

وبالتالي فإن آيات الرسول صلى الله عليه وآله هي منطلقة من جانبين:

إن شئت أنه صلى الله عليه وآله «الرسول المبعوث فيهم» هو ﴿**يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ**﴾ البقرة:١٢٩، هو ﴿**يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾ البقرة:١٢٩، هو ﴿**يُزَكِّيهِمْ**﴾ البقرة:١٢٩، إذاً هو صلى الله عليه وآله الأساس في انطلاق الأمة المسلمة لهداية الناس لقرنين أو ثلاثة قرون، مما حصل واقعاً.

وإن شئت أنه صلى الله عليه وآله الرسول المبعوث فيهم هو صلى الله عليه وآله واحد من هذه الأمة المسلمة وهو صلى الله عليه وآله الأعلى فيها، فينبغي أن يتقدم بالذكر عليها قبل البحث في

الأمة المسلمة من آل سيد المرسلينﷺ، والتي هي الاستمرارية له في خط الهدى كما نعتقد.

الفصل الثامن
الرسولﷺ ـ التدقيق في التعبير القرآني

قبل أن نتناول تفاصيل حول الرسول المبعوث في الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام فإن هذا الفصل يلفت إلى وجوب التفريق الدقيق في الخطاب القرآني عموماً، باستخدام المفردات الخاصة بالرسولﷺ كمصداق مهم.

لا شك في أن الرسولﷺ لا تخلو منه صفحة من القرآن العزيز، ولكن هنا نأخذ مثالين.

المثال الأول

سورة الأحزاب ٢٨ ـ ٣٢:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الاخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ للهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلا مَعْرُوفًا﴾.

لو نظرنا في هذه الآية مما تفيدنا اللغة فيه بشكل مباشر:

أولاً / الخطاب ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، الخطاب إلى النبي، ﴿قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾، الله تعالى لا يخاطب نساء النبي مباشرة، "يا أيها النبي أنت قل لهن إن كنتن تردن الحياة الدنيا... وإن كنتن تردن الله.. وكذا". ثم يأتي في الآية ٣٠ ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ﴾، يتحول الخطاب من التوجه إليهن من خلال النبيصلى الله عليه وآله يقول له أنت قل لهن، إلى خطاب مباشر لهن، ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ﴾، ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾.

إذاً، هذه الطلبات بعضها أمره أن تكون من خلالهصلى الله عليه وآله، وبعضها الله وجّهها مباشرة. فنفهم من هذا أن هناك فارقاً بين هذا وذاك، هناك فارق ما بين قوله ﴿إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ و ﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ وقوله ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ﴾ و ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ﴾ و ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾.

فإذاً الآيتان ٢٨ و ٢٩، النبيّصلى الله عليه وآله بعقد الزواج مع كل واحدة منهن هو الذي يبقي أو يسرّح، لكن التخيير كان على أساس ما أمره ربه، ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فلا مانع، نعطيكم منها ثم الطلاق؛ أما إن كنتن تردن الله ورسولهصلى الله عليه وآله ولم يقل تردن الله وتردنني، حوّلهن إلى الربط أن هذا شغف العيش الذي تشكين منه هو ضريبة بسيطة جداً للارتباط برسول اللهصلى الله عليه وآله ثم الدار الآخرة فإن ﴿اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ دقق ﴿لِلْمُحْسِنَاتِ﴾ ولم يقل أعدّ "لكنّ كلكن"، ﴿لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ﴾ فقط، فيجب التدقيق في جميع هذه المفردات. هذا أولاً.

ثانياً: قارن بينها وبين ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾، كأنما يريد الله تعالى أن يرفع أي إشتباه من الناس أن هذا الحكم هو من رسول اللهﷺ (لمصلحة شخصية، كما ربما يظن من في قلبه مرض)، يقول لهن من يأت منكن بفاحشة ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ﴾، هذا الحكم مني أنا وليس منه. ولا تنسوا أنه في ذلك الوقت، القرآن في الصدور، يعني قليل الذي كان يكتب، عليعليه السلام كان يكتب القرآن عند رسول اللهﷺ، لكن عند الناس لا، فيشتبه الأمر؛ ليس هناك قرآن مكتوب ليرجعوا إليه فيقول له لا، هذا الحكم الشرعي الذي هو يضاعف العذاب أو يضاعف الثواب هذا لي، الله تعالى هو الذي يفعل ذلك، ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ﴾.

هناك ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾، هنا لم يقل لهن بعدها من يطع، ﴿مَنْ يَقْنُتْ﴾، خضوع كامل بالطاعة لله ورسولهﷺ، فمن يقنت ﴿وَتَعْمَلْ صَالِحًا﴾ بعد ذلك ﴿نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾، ستنال أعظم من ذلك.

ثالثاً: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ﴾، بقي الخطاب مع النساء مباشرة، ولكن لم يقل: يا نساء الرسول، بل ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ﴾، لأن الخطاب هنا ليس متعلقاً بالرسالة ولكنه متعلق بمقام النبوة في الناس، بمقامه كالحاكم الأعلى والإداري الأول للمجتمع، يدخل عليه الناس، يستأذنون، يأتون، فـ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾؛ هذا ليس متعلقاً بالرسالة.

رابعاً: هنا وضع معياراً،«هناك من النساء غيركنّ أفضل ولكن ان اتقيتن أنتن حالة خاصة»، ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلا مَعْرُوفًا﴾.

فانظر إلى هذه الآيات واحدة بعد أخرى:

الاختلاف في الطرح، بعدها الاختلاف في الخطاب، مما يرجح الاختلاف بين النبوة والرسالة، الاختلاف في المعايير الموجودة للثواب أو العقاب، الدقة في هذا الأجر العظيم المضاعف لمن وكيف يكون. طبعاً لا يجوز أن نأتي ونقرأ ونقول: إنّه خيرّهن وهن اخترن وكفى، لا. هناك تفصيل دقيق جداً بحيث أنكِ بعد أن تختاري الله ورسوله‌صلى الله عليه وآله، ماذا ستفعلين ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ للهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا﴾. وهكذا.

المثال الثاني

مثال ثان في هذا القسم، هو الآية ٤٤ من سورة النحل، والآية ١٧٤ من سورة النساء.

تقول الآية ٤٤ من سورة النحل:

﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أنزل إليك الذكر، لتبين للناس ما نُزّل، إذاً هناك ﴿أَنزَل﴾ وهناك ﴿نُزِّل﴾ — لماذا أنزلَ إليك ولماذا نُزّل إليهم؟

إن القرآن لم ينزل إلى رسول الله‌صلى الله عليه وآله وحده ولم ينزل إلينا وحدنا، بل أنزل إلى الناس كافة، لكن لماذا جاءت ﴿نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في حين معه‌صلى الله عليه وآله وسلم ﴿أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾، لماذا لم يقل: نزّلنا إليك في هذه الآية، أو لم يقل أنزلنا إليهم؟

قالوا: إنّ الفارق هو أن الإنزال يشير إلى أن فيه شيء من السهولة، بينما نُزّل فيه تشديد، يعني فعل، فعَّل أقوى منها وأشد، تفعَّل أيضاً شديدة. فـ ﴿نُزِّلَ﴾ فيها شدة؛ لماذا؟ لأن ﴿نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أنهم قد جاءهم الكتاب على مدى ٢٣ سنة مع ما جرى من أحداث وصراعات ومع رفع ناس وكشف أناس

آخرين، حروبهم معاركهم، حالة الضعف التي كانت ثم حالة الانتصارات التي حصلت، فكانت كلها في المعاناة، لكن ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ هذا يتكلم عن الحالة العامة أن هذا حقيقة أُنزل إليك لتبيّن، ستبيّنه من خلال أحداث مع صعوباتها فيها تشديد، أما نحن لا ما أنزلناه إليك هذا كله، هناك نتكلم عن الفكرة، هنا نتكلم عما حصل على أرض الواقع، فعبّر عنه بالتشديد.

ولكن ربما يعترض البعض فيقول: أنظر إلى الآية في سورة النساء ١٧٤:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾

فلماذا، وهو يتحدث إلى الناس وليس إلى الرسول ﷺ تحديداً، لم يقل: «ونزّلنا» عليكم نوراً مبيناً؟

الجواب، لأن هنا أيضاً يتكلم عن القضية لم يتكلم عن تفاصيلها في الواقع، ﴿جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ﴾ و ﴿أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾، هذا أُنزل (إنزال) وتفاصيله ستكون بـ نُزِّل (تنزيل)، هذا الفارق بين الاثنين، بمتعلّق الاثنين، هل هو ما سيكون في الواقع، أم يتكلم عن القضية بشكلها العام أن هذا القرآن أنزلناه إليه ليبين لكم.

التعبير القرآني وآيات الأمة المسلمة

أخيراً الربط مع آيات الأمة المسلمة:

كما قلنا في المقدمات: إنّنا في كل واحدة من الآيات سننظر فيها مع آيات الأمة المسلمة. مثلاً، نأخذ هذه الآية آية النحل - ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

هذه تقول للناس و ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ وأولهم المسلمون، يعني هم أول الناس الذين سيتلقون قول القرآن بعد أن قالوا: أشهد أن لا إله الإ الله وأشهد

أن محمداً رسول الله، تقول لهم: إنّ خطوتكم الأولى لتتعلموا هذا القرآن الذي نُزّل إليكم ومن أجل أن تتفكّروا في خلق السموات والأرض، في الله الواحد الأحد، في أوضاعكم كيف ترتبونها، الخطوة الأولى هي أن تأخذوا العلم بيان هذا القرآن الذي نُزّل إليكم من الذي أُنزل إليه صلى الله عليه وآله، لأنه هو الذي يبيّن لكم، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ﴾، هذه اللام للتعليل، يعني أنزلناه إليك من أجل أن تبيّن أنت لهم؛ إننا لم ننزله على كل واحد منهم، تكون القضية حسمت مع الفطرة ينزل القرآن إلى كل الناس لا، الله تعالى علم أن هذا لا يمكن، لكن أنزل سيكون من خلال رجل بشر منهم يعرفهم ويعرفونه، يعاني معهم، يتحرك بينهم، هذا سيكون أبلغ وهو الذي سيبيّن إليه.

وهذا يعني أنه عندما يأتيكم هو صلى الله عليه وآله فيقول: إنّ هذه المجموعة من الناس التي أنا قرأت عليها القرآن كما قرأته عليكم، وعلّمتها الكتاب والحكمة، أنا الآن أزكّيها لكم لكي تنطلق لتكون هي أعلام الهداية لكم؛ ولا يحق لأحد من الناس بعد هذا البيان منه أن يقول: لا، أنا لا أقبل هذا، أنا أتخذ لنفسي طريق هدى آخر، نقول له: لا، الله تعالى يقول ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ فتبين للناس آيات الأمة المسلمة، تبين للناس ما يجب عليهم وأولهم المسلمون تجاه هذه الأمة المسلمة تجاه الطاعة، والامتناع عن العصيان.

من هذه الآية المباركة من سورة النحل، آية ٤٤، التي هي من أهم الآيات الإطارية في القرآن، ترسم الإطار من الذي يبيّن؟ من المسؤول عن ذلك؟ وبالتالي من الذي يجب عليه الطاعة؟

الفصل التاسع
الرسولﷺ - أوصافه

هذا الفصل من فصول الرسول المبعوث في الأمة المسلمة بـدعاء إبـراهيم وإسماعيلعليهما السلام يتعلق بأوصافهﷺ، ولنأخذ آية جميلة، آية جامعة.

إلفات

كما قلنا من قبل: الآيات أمثلة قليلة مثال أو اثنان من الآيات الكثيـرة جـداً المنبثة في الكتاب العزيز عن رسول اللهﷺ، ولكن الآيات في هذه الفصـول هي مما يتعلق بقضية الأمة المسلمة والرسول المبعوث فيهم. فمثلاً عندما نأخذ آية ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ القلم:٤ ، فليس لهـا علاقـة مباشـرة، فكأنهـا آيـة لإلفات الناس إلى هذا الخلق العظيم الذي هو عليـه؛ نعـم، بالتأكيـد لهـا علاقـة بالأمة المسلمة، فذو الخلق العظيم هو الذي يزكّي هذه الأمـة المسـلمة ولـيس غيره، لكننا نتكلم هنا عما يتعلق بموقعيته كما قلنا في صراع الهدى والضـلال، بشهادته على الناس، بما يؤسس للدرجات المختلفة من وجوب طاعتـه وعـدم العصيان، ما يمتـد إلـى الأمـة المسـلمة فـي ذلـك لأنـه هـو الـذي أمـر باتباعهـا والتمسك بها.

الآية المباركة

الآية ١٥٧ من سورة الأعراف المباركة آية جميلة جداً:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الامِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالانْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالاغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آَمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

الأوصاف المختلفة

لو نركز على ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الامِّيَّ﴾ وثم ﴿فَالَّذِينَ آَمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ﴾، يعني هذه متعلقة مع المسلمين ومع من؟ لا نتوقع أن نخاطب غير المسلمين بآيات الأمة المسلمة وإن كانت الأمة المسلمة هي دعاء إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام، ولكن غير المسلمين لا يؤمنون بالقرآن، فالمسلمون هنا الذين يتبعون الرسول النبي الأميّصلى الله عليه وآله فالذين آمنوا به هم المسلمون.

هنا، حتى في صفته البشريةصلى الله عليه وآله إن له مقاماً خاصاً يندرج في مرجعية عامة من الاتباع والتأسي والنظرة العامة إليه. فالآية تذكر الرسول ثم النبي، ثم تذكر الأميّ أي الصفة البشرية لرجل من أهل مكة (حيث هي أم القرى ومن الممكن وصف الأمي العرب عموماً أو أهل مكة أو أهل الحجاز كما وصف الأميين في آيات أخرى).

فإذا ما كانت الصفتان الأوليان يأتي منهما صفات ﴿آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ﴾، يعني صفات الرسول النبي، فإذاً صفتا «الرسول» و «النبي» تأتي معهما في الأخير صفات ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ وهو القرآن والحكمة وما أنزل معه، فإن الصفة الثالثة

الصفة البشرية «الأميّ» يأتي معها ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي احترموه.

وهنا "التعزير"، لماذا بمعنى احترموه؟ لأن التعزير له ثلاثة معان:

الأول غير ممكن وهو التأديب، والثاني وهو النصرة، والثالث هو الاحترام؛ بما أنه جاء بالنصرة منفصلة عن التعزير، ﴿آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾، من غير المعقول إذاً عزّروه يعني أيضاً نصروه، يكررها، فالقرآن لا يفعل ذلك دون سبب، وعليه فإن ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ هنا ليست النصرة، فهي إذاً الاحترام.

فهذه الصفة البشرية أنك لو جلست إلى رسول اللهﷺ وأنت ليس في ذهنك أن تتلقى منه شيئاً من أمور النبوة أو الرسالة، أو هو جالس وأنت جالس معه تأكلان، كأي اثنين يفعلان ما يفعله غيرهما، أنت إن كنت من المؤمنين به فيجب عليك أن تحترمه، وهذا الاحترام ممتد في جميع الحياة ـ لأن النصرة ممكن أن تكون في مقاطع منها فقط، نصرة في حرب ونصرة في موقف، والاتباع أيضاً في مقاطع منها فقط لأن رسول اللهﷺ هو لا يقيم لك واجبات وحتى مستحبات في كل شيء، هناك أمور مباحة لا تتبعه فيها مهما امتدت الحياة اليومية، الاتباع سيكون ليس لجميع أمور الحياة، ليس لجميع أحواله، والنصرة كذلك ـ أما الاحترام فعلى الدوام، أنت تحترمه في جميع أحواله.

صفاتهﷺ وآيات الأمة المسلمة

أما الربط مع آيات الأمة المسلمة لهذه الآية المباركة:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالانْجِيلِ﴾،

فإننا نذكر العلاقة لهذا الرسولﷺ بأهل الكتاب ـ النصارى واليهود ـ

الذين هم ضمن ورثة خط إبراهيم عليه السلام.

الآية تقول لهم:

هذا الرسول الذي هو من نسل إبراهيم عليه السلام الذي أنتم تؤمنون به تجدون العلم به في كتبكم المقدسة، فهو الذي يتوجب أن تتبعوه مهما كانت الصفة في رسالته وفي نبوته وفي بشريته، تجدونه عندكم تجدون صفاته عندكم مكتوبة، مع العلماء منكم، فيجب عليكم أن تتبعوه، وهذا الاتباع فيه المصلحة الكبيرة لكم لأنه سيضع عنكم إصركم والأغلال التي كانت عليكم، مما جعلها الله عليكم عقوبة على ما فعلتم من قبل.

هذا الاتباع الصحيح للرسول صلى الله عليه وآله جعل الكثير من أهل الكتاب، ولاسيما اليهود في القرون الأولى بعد البعثة، لما خضعوا للدليل فإنهم لم يكتفوا باتباع رسالة المصطفى صلى الله عليه وآله ولكن أيضاً باتباع أهل بيته عليهم السلام الذين هم الذرية المسلمة في هذا البحث، لاسيما وهم يجدون في الكتاب المقدس عندهم إشارات إلى الأمة المسلمة الأئمة الاثني عشر عليهم السلام. ولكن أيضاً هذه الصفة لهذا الرسول عندما يأتي إليه لم يجبره أحد على أن يتبع هذا الرسول ويؤمن به، فستكون من المفارقة أن يأتي فيؤمن به ويدخل في دينه ويتبعه ويقول: أنا أتبعك في هذا ولا أتبعك في هذا، لا يجوز هذا، فوجد أن القضية كلها مرتبطة ببعض، فمن بعد الرسول لا بد من أمناء على الرسالة فآمن بهم بعض اليهود والنصارى الذين دخلوا إلى الدين، وإلى اليوم أيضاً، كل يوم يحصل هذا مع هؤلاء الذين أنعم الله عليهم بالتوفيق لهذا.

هذه قضية يؤكدها ابن تيمية الحرّاني، في كلام معروف، يقول: إنّ من

تشرف من اليهود، من تشرف بالإسلام قال عنهم أنهم غلطوا إذ اتبعوا الرافضة في إيمانهم بالأمة المسلمة. هذا رأيه، ونحن نقول بل هؤلاء منّ الله عليهم بهذا لأنهم يعرفون أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وبالذات إبراهيم عليه السلام، لأن اليهود من الخط الإسحاقي أنه لا يتكلم إلا بما هو يستشرف المستقبل بما هو خط النبوات الذين هم أعلم الناس به.

الفصل العاشر
الرسول ﷺ - مكانته في خلق الله

في هذا الفصل، نتناول مكانة رسول الله ﷺ في خلق الله من خلال ثلاثة جوانب:

منزلته عند الله، وموقعيته في صراع الهدى والضلال، وشهادته على الناس.

نتناول الجانب الأول، بأمثلة من آيات القرآن، ننظر فيها في لغتها ثم نربطها مع الأمة المسلمة؛ لنفعل نفس الشيء مع الثاني، فالثالث.

*

الجانب الأول / منزلته ﷺ عند الله

لو نظرنا في الآيات المباركة التالية:

﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ**﴾ آل عمران:٨١.

نوع آخر من الآيات ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾ الأحزاب:٤٠.

نوع ثالث يبيّن منزلته ﷺ عند الله ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ**

تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ النساء: ٦٤.

ثم هناك آيات تصفه صلى الله عليه وآله بالعبودية ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الاقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ الإسراء: ١.

و ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ الفرقان: ١.

و ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ الله إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ البقرة:٢٣.

إذا نظرنا إلى هذه الآيات، ثلاثة أنواع من الآيات تبيّن منزلته صلى الله عليه وآله عند الله من خلال قضايا مختلفة.

ميثاق النبيين عليهم السلام

النبيّون كلهم عليهم السلام، أخذ الله تعالى عليهم الميثاق بعد أن أتمّ عليهم نعمته من الكتاب والحكمة، ثم يأتي الرسول المصدق لما معهم، ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾. أخذ الميثاق هذا إما حصل من قبل الخلق أو أن المقصود ما بعد البعثة يبلغون الإيمان والنصرة، يجب أن يبلّغوا به أممهم ويبشّروا به لكي تؤمن به الأمم وتنصره، ثم يؤكد أن محمداً صلى الله عليه وآله رسول الله وخاتم النبيّين.

شفاعته صلى الله عليه وآله للمذنبين

ومن ثم نوع آخر من الآيات تبيّن منزلته صلى الله عليه وآله عند الله بحيث أن الذي أذنب ذنباً يستغفر في بيته، في الشارع، أين ما يحب، ولكن الله تعالى يخبره بطريقة ناجحة في جلب المغفرة من الله تعالى: أن يذهب هذا المذنب إلى عند رسول الله صلى الله عليه وآله، هناك في موقعه في مكانه يستغفر الله فيستغفر له الرسول صلى الله عليه وآله. هذا

الرجل المذنب يمكنه أن يرسل خبر الرجاء «استغفر لي» إليه الرسولﷺ، وهو يستطيع أن يستغفر هناك في مكانه، ولكن أن يأتي إلى رسول الله الرسولﷺ فيستغفر عندهﷺ هناك تدل على أهمية المكان الذي فيه رسول الله الرسولﷺ بحيث يكون أنجح في الطلب إلى الله بالمغفرة.

درجة عبودية الرسولﷺ

أما آيات العبودية، فقد ذكرت ثلاث آيات، وهناك أكثر من ذلك، نجد أنهﷺ الوحيد الذي يسمّى بالعبد دون الحاجة لتسميته من هو العبد المقصود. فقوله ﴿**أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ الإسراء:١ نعلم منه أن العبد المقصود هو محمد الرسولﷺ. نفس الشيء، ﴿**نَزَّلَ الْفُرْقَانَ**﴾ (يسمي القرآن الفرقان يعني الذي نزّل الفرقان يعني نزّل القرآن، يفرق بين الحق والباطل)، ﴿**نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ**﴾ الفرقان:١ وبالتالي فإن العبد المقصود هو محمدﷺ. ﴿**وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ**﴾ يتحدث مع المشركين عن القرآن، وبالتالي فإن الوصف بالعبودية يعني رسول الله محمداًﷺ.

في حين أن استقراء آيات الأنبياء والمرسلينعليهم السلام في القرآن نجدها عندما تذكر أحدهمعليهم السلام بوصف «عبد» فإنها تأتي باسمه في نفس الآية أو سياق الآيات (أنظر أدناه).

ربط الجانب الأول بآيات الأمة المسلمة

التي هي الإطار الذي نتحرك به في تناول هذه الآيات...

أولاً /كونهﷺ النبي الخاتم زائداً الرسول الذي أخذ الميثاق من جميع

النبيين عليهم السلام سواءً قبل الخلق أو عند إرسال كل منهم عليهم السلام، أخذ منهم الميثاق على الإيمان به، فإن هذا يعني بالضرورة أنه صلى الله عليه وآله عندما يزكّي هذه الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فإنه يزكيها لسائر الأمم، وبالتالي فإن قيادتها للأمة الإسلامية تحصيل حاصل؛ فإذا كانت هذه أطلقها رسول الله صلى الله عليه وآله لجميع الأمم فما بالك بالأمة الإسلامية التي يجب أن تؤمن ولا تستطيع أن تبيّن مخالفتها لأمره ونهيه صلى الله عليه وآله.

ثانياً / كونه صلى الله عليه وآله بلغ المقام الأعلى في العبودية لله...

هذا بحث نشير إليه إشارة سريعة:

أنك إذا نظرت إلى القرآن ستجد أنه عندما يأتي إلى نبي من الأنبياء عليهم السلام ويذكره بالعبودية يذكر اسمه معه ـ ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ ص:٤١، ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ص:١٧، ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ ص:٤٥، ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ مريم:٢، وعن المسيح بن مريم عليه السلام يقول ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الزخرف: ٥٩، يعني إذا ذكر بالعبودية يذكر اسمه ليبين هذا العبد الذي يقصده هو فلان. فقط عندما يأتي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ممكن أن يذكره بلفظ العبودية من دون أن يسمّيه، (ما عدا مورد أو موردين يذكر المسيح عليه السلام والتعريف به موجود في آية أخرى في السياق وفي قضية العبد الصالح مع موسى عليه السلام والذي هو حالة أخرى)، فقط رسول الله صلى الله عليه وآله عندما يصفه بالعبودية لا يذكر اسمه معه ـ ماذا يدل هذا؟ إنه تعالى يقول لنا أنه عندما أذكر عبداً من عبادي دون الاسم فقط فإنه هو صلى الله عليه وآله لأنه هو الوحيد

الذي وصل إلى الدرجة الأعلى من العبودية لي بحيث هو وحده يستحق هذه المرتبة العالية، لا يحتاج أن أسميه منهم. وطبعاً درجة العبودية الأعلى لله تعالى تعني أنه الدرجة الأعلى في الناس، كلما وصلت إلى الدرجة الأعلى في العبودية كلما ارتفعت في الناس عند الله تعالى.

فكونه بلغ المقام الأعلى في العبودية لله قرينة على أن الذرية المسلمة عليهم السلام وصلوا إلى ذلك المقام الأعلى، مع وجود الفارق طبعاً بينه وبينهم مما نعلمه بالضرورة من القرآن، والحديث في هذا المقام والحال هذه هو ما يجب على جميع الناس العمل بمقتضياته، هذا المقام مقام العبودية الذي يصل عند الله إلى المقام الذي يكون هو الشاهد والشهيد والنذير والبشير للناس عند الله تعالى بهذه الموقعية بهذه المنزلة، والعمل بمقتضياتها له وللذرية المسلمة التي زكّاها للناس، فكما أن الرسول صلى الله عليه وآله واجب الطاعة والاتباع فإن الذرية المسلمة من أهل بيته عليهم السلام واجبة الطاعة والاتباع.

❊

الجانب الثاني / منزلته صلى الله عليه وآله في صراع الهدى والضلال

الجانب الثاني من هذا من موقعيته صلى الله عليه وآله ما سميته منزلته صلى الله عليه وآله في صراع الهدى الضلال، القضية الأساسية هي خط الأنبياء عليهم السلام.

من ذلك ما جاء في الآية ٦٨ من سورة آل عمران **﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإبراهيم لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾**؛

وقوله **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإبراهيم وَمُوسَى وَعِيسَى**

ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ الأحزاب:٧؛

وفي قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الفتح:١٠.

لو نظرنا في النص باللغة التي نفهمها مباشرة، أولى الناس بإبراهيم عليه السلام، نستطيع أن نقول: إنّه يعتبر المؤسس الثاني لخط الأنبياء عليهم السلام بعد آدم وبعد نوح عليهما السلام، أولى الناس بإبراهيم عليه السلام الذين اتبعوه في زمانه وهذا النبي والذين آمنوا. إذاً هذا الخط الإبراهيمي إضافة إلى الذين اتبعوا إبراهيم عليه السلام، طبعاً مفروغ منه حق الإتباع لهذا النبي والذين آمنوا وهي الكلمة العامة للمسلمين.

وأما عندما يأتي إلى الميثاق من أولي العزم عليهم السلام نجد أنه في الآية ٧ من سورة الأحزاب عندما يأتي إلى الأربعة غير رسول الله صلى الله عليه وآله يذكرهم، يراقب التتابع الزمني فيذكر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام حسب التتابع الزمني، فالمتوقع أن يقول «وأخذنا من النبيين ميثاقهم ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ومنك» يعني تابع لهم، ولكن لا، جاء به صلى الله عليه وآله قبلهم، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ﴾ ثم ﴿وَمِنْ نُوحٍ وَإبراهيم وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾؛ هذا الميثاق في المستوى المعين، هذا الميثاق الغليظ، أولو العزم من الرسل عليهم السلام ، أهمل التتابع الزمني في حالته، فعندما ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله جاء به أولاً، ما يدل على أنه مقدم على أولي العزم عليهم السلام فيكون مقدماً على جميع النبيين عليهم السلام فيكون مقدماً على جميع الخلق كافة.

وأما آية الفتح ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾، إنما يبايعون الله

حصراً، أنتم لا تتصورون أنكم تعطون البيعة لرجل منكم أو حتى أنه مقام النبوة عندكم وأنه ممكن أن تتفلّتوا منه، إنما أنتم هنا كنتم تبايعون الله من خلاله، هو الواسطة بينكم وبين الله، هو الصلة بينكم وبين الله تعالى، ﴿**يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾، عندما يبايعكﷺ أنت ويصافحك إنما الله تعالى بالمعنى المجازي وكأنما هو الذي وضع يده فوق أيديهم، ﴿**فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ**﴾ هو يخسر، ﴿**وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ فإذا أوفى ليس أنه يوفي إلى رسول اللهﷺ بل هو يوفي إلى الله تعالى من خلال رسول اللهﷺ.

ربط الجانب الثاني بآيات الأمة المسلمة

إذا أردنا أن نربط الآيات المباركة أعلاه مع آيات الأمة المسلمة نجد فيما يخص إبراهيمعليه السلام واضحة ، فالربط بإبراهيمعليه السلام هو صاحب الدعاء الأصلي في الموضوع عندما دعا هو وإسماعيلعليهما السلام عندما كانا يبنيان البيت ﴿**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ...**﴾ البقرة:١٢٨ ـ ١٢٩، نفس الذي قلناه قبل قليل أن تقديمهﷺ حتى على أولي العزمعليهم السلام بلحاظ تقديمه دون مراعاة التسلسل الزمني الذي لاحظه في الأربعة الآخرينعليهم السلام يعني تقديم عترته الهادية الذرية المسلمةعليهم السلام للاتباع والطاعة من الناس جميعاً، لأنه عندما هو يزكيها فهو يزكيها إلى الناس جميعاً، ولا يزكيها بجزء من مهمته لأنه ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ الأنبياء:١٠٧ و ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ**﴾ سبأ:٢٨. كما أن إعطاء البيعة لهمعليهم السلام كما هي لهﷺ إنما هي

بيعة مع الله حقيقة لأن منزلتهمعليهم السلام من بعده في صراع الهدى والضلال هو هذا، في زمانه هو الفارق بين الهدى والضلال، من بعده تريد الهدى تتبعهمعليهم السلام، فهو زكّاهم إلى الناس وصلوا إلى الدرجة الأعلى من الإسلام، هذه الدرجة التي دعا أن يصل إليها إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام، فإذاً هم العَلَم في صراع الهدى والضلال، فمن أوفى لهم ببيعته لهم وببيعة رسول اللهصلى الله عليه وآله لهمعليهم السلام فسيؤتيه أجراً عظيماً والذي ينكث إنما يضر نفسه.

❊

الجانب الثالث / شهادتهصلى الله عليه وآله على الناس

الجانب الثالث هو شهادة النبيصلى الله عليه وآله على الناس

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآَمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الامِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِالله وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ الأعراف:١٥٨؛

وآية أخرى في المقام ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى الله بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ الله فَضْلا كَبِيرًا﴾ الأحزاب:٤٥ ـ ٤٧.

نجد أن الآية الأولى ﴿قُلْ﴾، الله تعالى يقول له ﴿قُلْ﴾ كي لا يقولون أنهصلى الله عليه وآله يتحدث من نفسه، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، الناس جميعاً، ﴿إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، رسالتي لا تقتصر على الأميين في مكة، على العرب، بل ﴿رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، هذه

الجملة الاعتراضية ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ يقول لهم فأنتم خاضعون لهذه الهيمنة من الله سبحانه وتعالى فعندما يوصي إليكم جميعاً فلا مجال أبداً للتّفلّت من قبول رسالته، يتحول الخطاب من يا أيها الناس، يتحول الخطاب من الله تعالى مباشرة ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾، أنت قلت لهم، إذاً ماذا تريد؟ الله تعالى الآن يخاطبكم ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الامِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، وصفه بهذه الصفات الثلاث التي ذكرناها من قبل، «الرسول النبي الأمي»، فهو رسول الله إليكم جميعاً، وهو طبعاً النبي لأن الرسالة تتطلب ذلك، وهو الأمّي، لا تقولون: إنّه ليس لنا في الأميين من سبيل وما لنا وهذا العربي أو هذا المكي أو هذا الحجازي، لا.. هذا هو آمنوا به، ﴿يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

وأما آية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ فواضحة، أنهﷺ شاهد على الناس تبشرهم وتنذرهم بالثواب والعقاب بالآخرة، شاهد عليهم كيف صنعوا، ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ يعني هذا الرسول كأنهﷺ السراج الذي ينير الظلمة، ما يدل على أن كل ما يأتي به، لا كما يقول البعض من الجهلة أنه لا نحن نأخذ ذلك، (يتحدثون بالمصطلحات التي يحبونها التي ربما بعضهم يظن أنه سيُنظر بها إليه من مكان عال، أو أن هذه القضايا ليست هكذا، هذه في وقته)، لا لا، هذا سراج منير كل ما يأتي به هو ينير لك الطريق، سواء من العقيدة أو الشريعة، من الواجب ومن المحرم من المستحب وحتى من هديهﷺ يعني ما لو أردت أن تتبعه وتقننه فيما يأكل به من طعام أو شراب فهو سيكون قد اختار الأفضل... هكذا.

ربط الجانب الثالث بآيات الأمة المسلمة

إن رسالته صلى الله عليه وآله للناس جميعاً فبالتالي إن تزكيته لهم عليهم السلام هي للناس جميعاً لأن وظيفتهم هي وظيفته صلى الله عليه وآله، ولما كان مقام البلاغ يأتي بمقام الشهادة ـ فبلغت بعد ذلك يأتوني الذين بلغتهم كيف فعلوا فأشهد عليهم، نجحوا بنسبة ٩٠٪؟ ٥٠٪؟ ٢٠٪؟ ـ فإن شهادته صلى الله عليه وآله على الناس جميعاً تعني بالضرورة شهادتهم عليهم السلام على الناس جميعاً، الأمر الذي سنجده في آيات، من قبيل التي يخاطبهم ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ البقرة:١٤٣ في آيات الأمة المسلمة التي ستأتي.

كما أن وظيفته صلى الله عليه وآله التي تنقسم إلى الشهادة البشارة النذارة الدعوة إلى الله القدوة والهادي السراج المنير، شهادة بشارة نذارة الدعوة إلى الله السراج القدوة، هذه الوظيفة ستضطلع بها الأمة المسلمة الذرية المسلمة عليهم السلام لأنه من غير المعقول أن هذه عنده صلى الله عليه وآله ثم لا تكون من ضمن الكتاب والحكمة التي يعلمها إياهم عليهم السلام ويعلمهم إياها قبل أن يزكيهم عليهم السلام. فقد قلنا أن هذه الآية في دعوة إبراهيم عليه السلام هي ما دار عليها البحث ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ البقرة:١٢٩، إذاً هذه كلها من ضمن الكتاب والحكمة التي يعلمهم إياها.

الفصل الحادي عشر
الرسولﷺ والقرآن ـ الانفصال والامتزاج

لأن القرآن حريص على هاتين القضيتين فإننا يمكن أن نجد أمثلة كثيرة في آياته المباركة على هذه القضية المفصلية في الدين: أن يؤكد انفصالهﷺ عن القرآن بنحو، وأن يؤكد امتزاجه معه تبيان ذلك.

آيات الفصل بين الرسولﷺ والقرآن

إن الآيات التي تفصل بين القرآن بما هو نص من الله والرسولﷺ بما هو مبلغ هذا النص عن الله، والتي هي من أروع الطرق التي استخدمها القرآن للدلالة على أنه من عند الله، وأنه لا دخل للنبيﷺ في إنشائه، أي الطريقة للتأكيد على الفصل الواضح بين القرآن وبينه، جاءت تحمل أساليب مختلفة، منها ما يلي...

منها ما يؤكد أن النبيﷺ تعلم القرآن بالوحي:

لو كان ممتزجاً معه بهذا الشكل الذي يجعله هو منشأً له لما قال مثلاً **﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾** يوسف:٣.

لأنه عندما أنت تنشئ كلاماً من شعر أو نثر، صحيح أنه لم يكن معك من قبل ولكنك أنت أنشأته، فلا يقال: إنّك كنت عنه من الغافلين، **﴿مِنَ الْغَافِلِينَ﴾**

أي كان هناك ولكنك لم تعلم به. فإذاً كيف كان هناك ولم تعلم به لو لم يكن هو بالأصل قد أنشأه غيرك وأنت لم تكن تعلم به؟ ﴿... هَـذَا الْقُرْآَنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل هذا القرآن.

ومنها ما يحيل القضية برمتها إلى الله تعالى:

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ الحجرات:١٧.

الرسول الهادي البشير صلى الله عليه وآله الذي هو جاءهم بذلك يقول: تعالوا آمنوا بي كرسول من عند الله، مع ذلك يقول لهم: لا تمنوّا عليّ، الله يمنّ عليكم، القضية بينكم وبينه، الله يمنّ عليكم أن هداكم وليس أنا، فصلٌ عن الله تعالى، فصلٌ عن القرآن.

بل تصل القضية إلى حد أن الله تعالى يحذّر الناس حتى من الشرك من خلاله تصوّر:

﴿وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آَيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آَخَرَ لا إِلَهَ إِلا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ القصص:٨٧ ـ ٨٨.

يخاطبه صلى الله عليه وآله ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، أتدعون مع الله إلهاً آخر؟

أكثر من ذلك ـ الشرك نفسه:

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الزمر:٦٥.

مع أنه من المستحيل عليهﷺ أن يشرك طرفة عين! وكيف يشرك وهو الذي أخذ الله تعالى لهﷺ ميثاق الأنبياءعليهم السلام جميعاً، والأنبياءعليهم السلام جميعا كلهم لا يمكن أن يشركوا بالله طرفة عين ﴿**وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ**﴾، أي كل من الأنبياءعليهم السلام عندما أوحي إليهم ﴿**لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**﴾.

(وكيف يشركﷺ وقد خالط القرآن وجوده كله، فإنه لم يكن أصلاً تعليماً عقلياً محضاً: البعض عندما يقرأ مثلاً أن جبريلعليه السلام كان يراجعهﷺ مرة بالسنة وفي آخر سنة راجعهﷺ مرتين، يعني كأنما يقول له إقرأ: لنرى إن كنت حافظاً بشكل صحيح؛ لا! إن كان هذا صحيحاً فتكون في القضية الخارجية، أما القضية الداخلية فإن الله تعالى يقول: ﴿**فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ**﴾ البقرة:٩٧، فلم يقل نزله على عقلك، فإنه نزله على قلبك، صحيح جاء العقل باستخدام مفردة القلب ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا**﴾ الحج:٤٦ ومثيلاتها، ولكن التنزيل على القلب بما يثبته ما اتفقوا عليه أنه عندما كان ينزل عليهﷺ الوحي فإنهﷺ كان يتغير كان يتصبب عرقاً كان يصبح في حالة تختلف، وجوده الفيزياوي يتغير ـ بدنياً يثقل، يقولون كانت الناقة لا تستطيع أن تحمله ـ إذاً، هو تنزيل عليه بشكل آخر، ﴿**نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ**﴾ على ذاتك كلها، فكيف يشرك بالله؟!)

فلمن الكلام موجّه، إذاً؟

إلى الناس، يقول لهم: قضية الشرك لا هوادة فيها، لو على فرض المحال أن هذا النبيﷺ الذي بعثتُه فيكم أشرك بي فقد أحبط عمله كله، كل ذلك

العمل من الدعوة والجهاد والمعاناة لي ويكون من الخاسرين، فكيف بكم أنتم؟

هذا هو الواضح من اللغة العربية، لغة القرآن، عن الانفصال بين القرآن وبين الرسولصلى الله عليه وآله.

آيات الامتزاج بين الرسولصلى الله عليه وآله والقرآن

أما آيات الامتزاج بين القرآن والرسولصلى الله عليه وآله فهي أنواع أيضاً:

منها ما يتعلق بالرسالة كلها /

هذه الرسالة ما هي؟ هي نص القرآن مع البيان الرسولي. لا تعتقدوا أنها النص وحده، فإنه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ المائدة:١٠٤.

ومنها ما يتعلق بالرسالة كلها من حيث السلب أو المعادي لها /

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الأنفال:١٣.

ومنها ما يتعلق بعلاقة الأمة الإسلامية بالمشركين والأعداء /

﴿بَرَاءةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۝٢ وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ التوبة: ١ ـ ٣.

أي أن الله ورسوله بريئان من المشركين حتى يتوبوا من الشرك ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ

فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾، وإلا **﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾**.

ومنها ما يتعلق ببيت الزوجية للرسولﷺ /

﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الأحزاب:٢٩، ثم الآية ٣١ بعدها **﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ للهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾**.

فماذا نفهم من اللغة الواضحة لهذه الآيات المباركة؟

إننا نفهم مباشرة قوله تعالى لهم: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ﴾** أن الدعوة الإسلامية **﴿تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ﴾** ما أنزله الله من قرآن. حسناً **﴿وَإِلَى الرَّسُولِ﴾** ما معناها؟ **﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ﴾** هو النص، إذاً **﴿وَإِلَى الرَّسُولِ﴾** هو البيان الرسولي للنص **﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾** النحل:٤٤.

هذا الامتزاج لا يفصل بين النص القرآني والبيان الرسولي. نعم هناك قرآن مبين، آيات بينات، وسنجد أن هناك **﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ﴾** المائدة:٩٩ يبلّغ النص فيه، لكن على العموم في الغالب الأعم هو البيان. وحتى الكلام والنصوص التي هي واضحة ومبينة هناك آفاق مختلفة يدلنا الرسولﷺ عليها.

وأما الآية الثانية **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾**، فإنها تقول: إنّ خلافك، إنّ بُعدك، إنّ صدّك عن رسول اللهﷺ، هو بمثابة صدّك عن الله، هو الذي جاءك بما عند الله تعالى، فالموقف من الرسالة ممتزج فيها الله عزّ وجلّ والرسولﷺ.

والآية التالية **﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾**، صحيح

أن الرسولصلى الله عليه وآله هو الذي وقّع المعاهدة معهم (الهدنة) لكنه وقّعها بأمر الله، ولذلك الله تعالى يقول أنه الآن نزل الأمر بالبراءة وأعطيتكم أربعة أشهر فُسحة، فالبراءة من الله ورسولهصلى الله عليه وآله وبعدها يقول ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ﴾؛ يعني لا تتوهموا أن الرسولصلى الله عليه وآله هو يريد أن يخالف الهدنة، أو أنه الآن يريد أن يتراجع عما عاهدتم، لا، ولكن هو الذي يبلّغ عني، يوقّع معكم، يفسخ الاتفاق ويتعامل حسب ما أنا أقول له لأنه لا ينفك عن أمري ونهيي؛ ﴿أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ الله والرسول بريئان، فلم يقل «الله ورسوله بريئان من المشركين»، بل يجعل البراءة من الله بالأصل، فلا تقولوا إنّ الرسول تراجع من تلقاء نفسه، كلا! الرسولصلى الله عليه وآله يجب أن يتراجع لأن الله تعالى هو الذي أمره بذلك، إيذاناً ببدء مرحلة جديدة. (هذا التقديم والتأخير من دقائق القرآن الجميلة جداً التي تجمع بين أكثر من جانب ـ في المعنى وفي البلاغة وفي بعض أنواع إعجاز الكتاب العزيز ـ ليس هنا محل بيانها).

والآيات مع أزواجه ﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ الأحزاب:٢٨، في شكواكن من المعيشة معه بسبب شظف العيش (وكانت الحياة بالفعل صعبة وقاسية، حتى روي عن أم سلمة رضي الله عنها أنه ربما يمر الشهر ولا تضرم نار، يعني لا يوجد طبخ أي طعام مطبوخ في بيت النبيصلى الله عليه وآله، أحياناً لا يوجد إلا الأسودان الماء والتمر، حياة صعبة)، الشكوى من هذه الحال ليست شكوى من الرسولصلى الله عليه وآله وحسب، لأن أي قضية مرتبطة بهصلى الله عليه وآله إنما هي ضمن حزمة واحدة: تردن الرسول فأنتن تردن الله، تقول إحداكن أنها تريد الله، إذاً يجب أن يكون رسول اللهصلى الله عليه وآله أيضاً خيارها. ونفس القضية: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ

مِنْكُنَّ لله وَرَسُولِهِ﴾، الخضوع لله ورسولهﷺ ﴿**وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ**﴾، أنا أعطيكم أجراً، أنا من عندي؛ الله تعالى هو صاحب الأجر الذي بيده ذلك ولكن ما هو المعيار؟ الخضوع لي ولرسولي.

هذان الإطاران وآيات الأمة المسلمة

كما في الفصول السابقة، نفس الشيء، قضية سواء بسواء، الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام ستكون المقدمة إلى الناس في هذين الإطارين: إطار الانفصال عن القرآن وإطار الامتزاج بالقرآن.

أما إطار الفصل التام عن القرآن فمن أجل (أ) دفع الشبهة عنهمعليهم السلام بعيداً، لا يأتون بشيء هو من عندهمعليهم السلام، و (ب) لدفع الغلوّ فيهم بعيداً، بحيث لا يستطيع المغالون أن يقولوا: إنّ القرآن هم الذين يحركونه كما يشاؤون، بل هو مفصول عنهمعليهم السلام ، القرآن من عند الله وهمعليهم السلام الأمناء على القرآن، همعليهم السلام الذي يبيّنون القرآن، وهمعليهم السلام الذين يحرسون القرآن.

كما في إطار الامتزاج بالقرآن؛ كيف؟ من أجل تثبيت طاعة الناس لهمعليهم السلام ، ووجوب الانتباه التام في الوقوع في معصيتهمعليهم السلام. امتزاج بالقرآن قلنا: إنّ الناس يقول لهم: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾ المائدة:١٠٤، يقول: كلا! فهذه الذرية المسلمةعليهم السلام التي يزكيها النبيﷺ نعم هي تنفصل عن القرآن كما انفصل رسول اللهﷺ ولكن أيضاً تمتزج مع القرآن كما امتزجﷺ.

بالجملة، الانفصال والامتزاج هما لتحقيق الأمرين:

الأول / تحقيق دفع الشبهة عن مصدر القرآن ودفع الشبهة عن مصدر

الأحكام الشرعية بالنسبة للأمة المسلمة؛ نعم، لا يقول أحد: إنّهم عليهم السلام يأتيهم الوحي، ولكن لكي لا يُقال: إنّ هذا النص القرآني أو ذاك من عندهم.

والثاني / بالمعاكس، لأجل دفع محاولة التخفف من طاعتهم عليهم السلام، أو من معصيتهم، لأن هذا كما لا يجوز في حال الرسول صلى الله عليه وآله المبعوث فيهم لا يجوز في حالتهم عليهم السلام.

الفصل الثاني عشر
المرجعيّة المحمّديّة

قلنا: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله فيه هذه الجوانب الثلاثة:

ـ جانب الرسول المبعوث فيهم

ـ جانب النبيّ

ـ جانب الرجل البشر والتي سميتها المرجعية المحمدية، حيث أنها بنطاق محدود بخصوص «التشريع» ولكن بنطاق أوسع جداً في «الهَدْي» ـ طريقته، سمته، نهجه، مما هو ليس في الحلال والحرام مما يتعلق بشخصه الكريم.

*

صعوبة الفصل

قبل أن أعرض أمثلة من الآيات المتعلقة بالمرجعية المحمدية، أود أن ألفت إلى صعوبة الفصل بين الرسول والنبي والرجل محمد صلى الله عليه وآله، وذلك إذا نظرنا في الآية التي ذكرتها من قبل:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الامِّيَّ﴾ الصفات الثلاث ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالانْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالاغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الأعراف:١٥٧.

هنا كما نجد أن الإيمان به، إتباعه كرسول ونبي ورجل، تندمج فيه ﴿آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ﴾ أي احترموه ﴿وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ من القرآن والحكمة، فإنه يصعب الفصل بين الجوانب الثلاثة، لتعطي مرجعيات ثلاثة يتوجب على المؤمنين ملاحظتها ومراقبتها والعمل إزاءها.

ولكن الذي نستطيع قوله أن صفته البشرية، صفة محمدصلى الله عليه وآله البشر الرجل، تتعلق بالجانب الثالث من الدين وهو «الأخلاقيات» وهذا الذي نسمّيه «الهَدْي المُحمّدي»، الذي فيه إطار السنّة النبوية، كما أن فيه إطار المحمدية التي هي مما اختاره هوصلى الله عليه وآله، إختاره مما يعجبه، والذي يتفق المسلمون أو معظم المسلمين أنهصلى الله عليه وآله كان يختار الأفضل من بين الخيارات. أي أنه يختار الأفضل من بين بدائل طريقة الطعام، طريقة المشي، طريقة النوم، طريقة الكلام. وهذه "الأفضل" إن نسبتَها إلى ذكائه فهو أذكى الناس فسيختار الأفضل، وإن نسبتَها إلى دقة نظره في الأمر وهو ينشأ منذ صغره فسيختار الأفضل، وإن نسبتَها إلى العناية الإلهية فإنه يختار الأفضل، فهذا لك.

وكما ورد عن أمير المؤمنينعليه السلام عندما وصفه قائلاً: «وَقَرَنَ اللهُ بِهِ مُذْ كانَ فَطِيماً» منذ فُطم على الرضاعة، أي عندما أتم من عمره الشريف سنتين، «مُذْ كانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلائِكَتِهِ يَأْخُذُ بِهِ سُبُلَ المَكارِمِ وَخَيْرَ أَخْلاقِ العَالَمِ لَيْلَهُ وَنَهارَه» (نهج البلاغة:الخطبة ٢٢٤).

فالنتيجة ستكون أن هَديَهصلى الله عليه وآله سيكون الأفضل، فهذه الصفة البشرية تتعلق بالهدي. الجانبان النبوي والرسالي هما الأكثر تعلقاً بالدين في جانبي العقيدة والشريعة.

*

المرجعية المحمدية في التشريع

أما نصوص الآيات فنأخذ منها نصين: أحدهما معلوم في قضية التشريع بشكل خاص محدد، والثاني بشكل أعمّ.

النص الأول

الآيات المباركة: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً ٣٧ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ٣٨ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا ٣٩ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ الأحزاب:٣٧ ـ ٤٠.

النص الثاني

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لا تُكَلَّفُ إِلا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً﴾ النساء: ٨٤.

ما الفهم المباشر من النص؟

أما النص الأول، فإننا نجد أن في الآيات الأولى من سورة الأحزاب قضية تطليق زيد بن حارثة رضي الله عنه من زينب رضي الله عنها والتي تزوجها النبي صلى الله عليه وآله فيما بعد، فهي من أمهات المؤمنين، وكانت ممتعضة أصلاً من الزواج من زيد، فكانت

تجد نفسها أنها ابنة عمة النبي صلى الله عليه وآله وهي من بني عبدالمطلب، وزيد كان عبداً مملوكاً تبنّاه النبي صلى الله عليه وآله، وكانت العرب تحرّم أن يتزوج الرجل طليقة ابنه بالتبني. أي أن الرجل لا يجوز له أن يتزوج من امرأة كانت زوجة ابنه بالتبني ثم طلقها الأخير، لأنهم كانوا يعتبرون الابن بالتبني كأنه ابنه الحقيقي، فكان عندهم حراماً حرمة شديدة أن يأتي أبوه بالتبني فيتزوج طليقته. هذا نجد اليوم في العالم الغربي حيث فيه تشريع التبني قانوناً، فعندما يتم تبني ابن أو بنت يُسجّل الاسم باسم العائلة الجديدة للرجل أو المرأة الذين يتبنونه، حتى يتغير اسمه فعند الناس هذا يصبح ابنهم. وهي علاقة انتهت في المجتمعات الإسلامية لأن الإسلام أصلاً أبطل التبني، لكن في وقتها كان لا يزال التبني مباحاً.

كان زيد رضي الله عنه هو ابنه بالتبني، قضية حصلت منذ ما قبل الإسلام، حتى أن زيداً كان يسمى ـ على ما روي ـ «زيد بن محمد». هذه القضية في علم الله ما كان يمكن أن تُكسر إلا بأن يحصل مع الشخصية العليا عندهم في مكانته في قومه كهذا الشخص الصادق الأمين المعظم من آل عبدالمطلب الذين هم سادة مكة، وهو الأعلى كونه الآن هو رئيس المجتمع المسلم الجديد. النص يخبرنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول له: ﴿**أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ**﴾ بسبب الحرج الشديد في ذلك لأنه يعلم أنها بالنسبة إليهم كانت حرمة شديدة ستُكسر بهذه الطريقة، فمن الممكن أنهم ـ ولا سيما المنافقون والذين في قلوبهم مرض ـ سينتهزونها فرصة فيطعنون ويهرّجون ويفترون. وبالفعل وجدنا من المؤسف أن النيل من رسول الله صلى الله عليه وآله حصل، ففي بعض الروايات قالوا: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أُعجب بها، والكلام كله كذب في كذب لأنه مخالف تماماً لما كان

عليه من الخلق والحشمة والنبل والحيطة على المسلمين كيف بمن هو من أقرب الناس إليه.

فمن هذا نستطيع أن نفهم أن محمداً بن عبدالله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِه مرجعية بصفته البشرية لأنه صار واجباً على الجميع أن لا يسيروا مع ذلك العُرف أن لا يتزوجوا من طليقات أبنائهم بالتبني، لأن هذا كان عُرفاً ولم يكن قانوناً منزّلاً من السماء. فهذا الأمر يشمل أي أمر آخر يجب على المسلم أن يهتدي به بهدي النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِه، بهدي محمد صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِه فيما صغر أو كبر في الأمور.

وأما النص الثاني، آية التحريض على القتال ﴿**فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾، هنا واضحة: «أنت قاتل»، أمر إلهي بالقتال في سبيل الله، وأن هذا في إعداد القوة اللازمة للقتال، التكليف الواجب عليك فقط، أنت لا تستطيع أن توجبه على الآخرين من أتباعك. فماذا تصنع معهم وأنت بحاجة إلى جيش؟ ﴿**وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾.

و﴿**وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ فيها أيضاً نكتة، لم يقل «وحرض الذين آمنوا» بل قال ﴿**وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾، فإن مصطلح «الذين آمنوا»، كما أشرت وأشير مراراً، أنه المصطلح القرآني لجميع المسلمين، المسلمين الذين آمنوا أي الذين أعلنوا أنهم آمنوا بالدين الجديد ودخلوا به وصاروا مسلمين، لهم ما على المسلمين وعليهم ما عليهم دون استثناء، أي أحد يدخل في الدين يصبح كما الآخرين؛ ولكن بما أن هؤلاء فيهم المنافقون وفيهم الذين في قلوبهم مرض وفيهم المتزلفون وفيهم الذين سيكفرون بعد الإيمان بنص القرآن ﴿**قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾ أو ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا**﴾، فإن

الله تعالى يفرّق بين الذين آمنوا الذين فيهم الأصناف كلها وعلى رأسها المؤمنون، عن المؤمنين الذين هم مؤمنون حقاً، فـ ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي التحريض الذي يأتي بالفائدة والنتيجة هي أن يقوموا ويتجهزوا ومنهم القوة التي تقاتل وتأتي بالنتائج يأتي عليها الفتح هم المؤمنون. طبعاً رسول الله صلى الله عليه وآله يحرّض الجماعة المسلمة كلها، ولكنه يريد أن يقول إنّ هؤلاء هم الهدف، هدف تحريضك.

فهذه أيضاً آية القتال والتحريض عليه تنطلق من الجانب البشري الفردي حيث أن التكليف له وحده زائداً يقوم بتحريض المؤمنين، لأن الآية لو كانت تتعلق بالمرجعية النبوية في إدارة الصراع مع الكافرين كما نشير إلى المرجعية النبوية في آيات النبي صلى الله عليه وآله فربما تكون الآية أكثر صراحة فيه في الأمر بالتحريض.

الآيات المباركة وآيات الأمة المسلمة

إننا نجد في قضية زيد بن حارثة رضي الله عنه صلة بقضايا مختلفة حصلت لأفراد من الذرية المسلمة عليهم السلام في حياة علي والحسن والحسين عليهم السلام بالخصوص، بحيث صارت من المواضيع التي اشتغل بها الباحثون واشتغل العامة بها.

مثال ذلك: قبل علي عليه السلام بالتحكيم مع وجود القوة العسكرية، وقبل الحسن عليه السلام بالصلح مع وجود القوة العسكرية، بينما قاتل الحسين عليه السلام على قلة الناصرين، فكل واحدة انطلقت حولها الأسئلة، وجاءت إجابات بعضها محتملة وبعضها شبه مؤكدة وبعضها مؤكدة قطعاً لوجود النص من العترة الطاهرة عليهم السلام بل ومن النبي صلى الله عليه وآله قبل وقوع الأحداث. هل كان الإمام من

هؤلاء الأئمةعليهم السلام مخيراً في هذا؟ واختار خياراً كان غيره من الأئمةعليهم السلام كان سيختار غيره؟ أم أن لكل مقام مقالاً؟ وهكذا.

هذه الآية كانت حالة معينة، العُرف الاجتماعي يقول: هذا لا يجوز، ثم يأتي عمل المعصوم، هنا النبيصلى الله عليه وآله، لضرب هذا، فتنطلق الأسئلة لماذا؟ لماذا حصل هذا؟ لو لم ينزل النص القرآني فيه لبقي الناس يغمزون ويلمزون في النبيصلى الله عليه وآله، وقد فعلوا مع وجود الآية فما بالك لو لم تكن؟

وأما آية القتال وتحريض المؤمنين فأيضاً نجدها واضحة كيف أن الأئمةعليهم السلام كانوا يحرّضون وحسب، فالإمام عليعليه السلام كان يحرض ويجمّع. وعندما جاءه خبر إحدى غارات معاوية على الأنبار في العراق ومقتل الأشرس بن حسان البكري وأصحابه (رحمهم الله) خطب في الناس قائلاً: «إنّ أخاكُم البَكريّ قد أُصيبَ بالأنبار، وهُو مُغتَرٌّ لا يخافُ ما كان، واختارَ ما عندَ اللهِ على الدنيا، فَانتَدِبُوا إلَيهِم حتّى تُلاقُوهُم» فلما لم يجيبوه لم يأمرهم، بل «خرج يمشي راجلاً حتى أتى النخيلة» إلى آخر الرواية، فمن يريد أن يأتي يأتي (نهج البلاغة الخطبة ٢٧).

وحتى الحسنعليه السلام وقف وقال: «ألا وأنَّ معاوية دعانا إلى أمرٍ ليسَ فيهِ عِزٌّ ولا نَصَفَة، فإنْ أرَدتُمُ الموتَ رَدَدناهُ عليه وحاكَمناهُ إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ بِظِبا السُّيوف، وإنْ أرَدتُمُ الحياةَ قِبِلْناهُ وأخَذْنا لكُمُ الرِّضا» (سير أعلام النبلاء ج٣ ص٢٦٩ وتاريخ دمشق ج١٣ ص٢٦٨ وغيرهما)، يخيّرهم بين القتال والإبقاء على أنفسهم؟ فصاحوا :«البقية البقية» مختارين الحياة؛ عند ذلك، حُسمت القضية باتجاه الصلح والهدنة.

فهذا الربط موجود لهذه المرجعية المحمدية بصفته البشرية صلى الله عليه وآله بشكل واضح في حياة الأئمة وهم الأمة المسلمة في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

الفصل الثالث عشر
المرجعيّة النبويّة

قلنا: إنّ هناك مرجعية محمدية بشرية بصفة الأمين، وهناك مرجعية نبوية بصفة النبي، وهناك مرجعية رسولية بصفة الرسول ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الامِّيَّ﴾...

وقلنا: إنّ المرجعية المحمدية بصفته البشرية ضيقة في نطاق التشريع ولكنها واسعة في نطاق الهَدْي، إتباعه بطريقته ومنهاجه في الحياة.

المرجعية النبوية هذه فيها أيضاً الجانبان: التشريعي والإداري، إدارة المجتمع، فهي ذات نطاق أوسع من المرجعية البشرية مرجعية الأميّ، وهي أضيق من المرجعية الرسولية المتعلقة بالرسالة كلها التي لها امتداد الزمان والمكان والآفاق التي يتحرك فيها الدين.

نأخذ هنا نصاً واحداً لكل من الجانبين: الإدارة والتشريع.

أما في الإدارة فنأخذ النص التالي:

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الارْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ الأحزاب:٦.

وأما في التشريع حركة المرجعية النبوية في التشريع فالآية المباركة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ الطلاق:١.

الجانب الإداري في المرجعية النبوية

هنا نجد أن الصفة النبوية مقارنة بالصفة الرسولية، الصفة النبوية تتعلق بالأمور الإدارية والإجرائية منه صلى الله عليه وآله كرئيس للدولة ومنظم لشؤون المجتمع الوليد، كما نجده في إصدار الأمر الإلهي في هذه الشؤون، من خلال النبي صلى الله عليه وآله.

يعني من الخطاب في الآية الأولى ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وفي الثانية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ الله تعالى يتحدث معه، ومعنى هذا أن الحكم الشرعي الذي سينزل وهذه التعليمات الإدارية ستتحرك من خلال مرجعيته النبوية. ونحن نعلم أن مقام النبوة مساحة حركته أضيق من مقام الرسالة، لأن النبي يمكن أن يكون في قومه في عشيرته فقط، يعني إبراهيم عليه السلام رسول، رسالته عالمية، آمن له لوط عليه السلام الذي هو نبي يتحرك في نطاق ضيق، أضيق بكثير من نطاق حركة إبراهيم عليه السلام. فإصدار الأمر الإلهي في هذه الشؤون من خلال النبي سواءً بإعلام المسلمين عن مختصات النبوة ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أو من خلال توجيه الخطاب إليه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، وهو موجود في القرآن في العديد من الآيات، يعلمنا أنه يتحرك من هذه المرجعية.

فلو نظرنا إلى الآية الأولى ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ هذه مهمة جداً:

الإنسان له ولاية على نفسه لا يتقدم عليه فيها أحد، أي لا يستطيع أحد أن يأتي ويقول لي: أنت اذهب وارمِ بنفسك في النهر، أنت الآن اذهب وافعل كذا وكذا، أجبرك عليه، لا أحد يستطيع؛ ولكن النبيصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يستطيع، لأن الله تعالى جعل له الولاية على المؤمنين أعلى من ولايتهم، متقدمة على ولايتهم على أنفسهم. هنا، لو قال "أنا أولى بكم من أنفسكم" لما قبلوا منه، لقالوا: إنه يتكلم من عنده، لكن نزلت آية قرآنية ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يتحدث عنه معهم، تصور كيف أنهصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يصبح له ولاية عليك بهذا الشكل.

و﴿أَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾، هذه الصفة لا توجد صفة لأحد من الناس، تصبح هي أمّاً للآخرين، لا يوجد هكذا شيء؛ لكن هنا النبيصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أزواجه تصبح لهن مكانة الأم، لم يقل مكانة الخالة أو العمة أو الأخت ولكن الأم، لأننا نعلم أن الأم هي الوحيدة التي يبقى لها الاحترام ويبقى لها وجوب الرعاية مهما فعلت وصنعت، فأعطى هذه الصفة، هذا من جانب. من جانب آخر، لأن هذا بيت النبيصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ولا يريد الله تعالى أن يُتَوَصَّل إلى رسولهصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بطعن من خلال الأزواج، فمنع ذلك منعاً باتاً بأن أعطى لهن مرتبة الأم.

فموضع الشاهد ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ فأصبح بولايته عليهم له الحق في إدارة المجتمع بأية طريقة يراها مناسبة، إلى الدرجة التي يستطيع أن يقول لك: أنت الآن هذا تنّور مُسَجَّر ارمِ نفسك في التنور لأن هذا فيه مصلحة الدين، أنت الآن إفعل كذا، تفعل كذا، يجب عليك، ﴿النَّبِيُّ

أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، لن تستطيع أن ترفض على أساس أنك لا تستطيع أن تجبرني على شيء، أنا لا يعجبني هذا، لا أظن، أو ما يشبه.

الجانب التشريعي في المرجعية النبوية

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ.. ﴾ هنا يتحدث مع النبي صلى الله عليه وآله، يُنزل إليه التعليمات الإدارية كيف يدير هذه القضية، قضية موجودة في المجتمع وفي كل مجتمع ولن تنتهي، وهي قضية الطلاق.

ف **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾** ماذا تفعلون؟

﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ.. ﴾ هذا جزء من التشريع.

﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ كم طولها.

﴿وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ﴾ يرجعنا إلى مقام التقوى لأن كثيراً من التجاوزات تحصل عند الطلاق، تحصل ضد النساء.

﴿لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ كلها إجراءات إدارية.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾ يا أيها النبي تلك حدود الله، قل للناس هذا ليس من عندي، وأن هذا من عندي، أنا الذي أنزلت عليك التعليمات.

﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ التي قيل في تفسيرها أنها نزلت في القضية الأخرى، قضية ماذا في الطلاق والتسريح سراحاً جميلاً الخ... هذا ليس هو موضوعنا هنا.

الشاهد هنا في الآية وهو المرجعية النبوية في إطار التشريع **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾**، **﴿لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾**،

هذا اعتبره بيتها، يعني هو بيت الزوجية، ولكنه اعتبره بيتها حتى تنتهي العدة.

هذا ما تقوله اللغة من هاتين الآيتين، آية التشريع وآية الإدارة.

الآيات الكريمة وآيات الأمة المسلمة

فإذا أردنا أن نربط ذلك مع آيات الأمة المسلمة، فسنجد أن آية ولاية النبيﷺ **﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾** من أوضح ما يكون في العلاقة بالأمة المسلمة، فإنهﷺ عندما أتمّ نصب عليعليه السلام إماماً للناس، أقول «أتمّ» لأنّ نصب علي بدأ منذ الأيام الأولى للدعوة منذ **﴿وأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقرَبِين﴾** فقالﷺ: «هذا أخِي ووَصِيِّي وخَليفَتِي فِيكُم» (تاريخ الطبري ج٢ ص٣٢٠، والكامل لابن الأثير ج٢ ص٤١)، لكن هذا استغرق ٢٣ سنة، في آخرها في الثامن عشر من ذي الحجة الحرام بعد أن عاد من حجة الوداع قبل وفاتهﷺ بنحو شهرين ونصف، عندما أقامه إماماً للناس لم يرفع يديه ويقول «عليّ هو وليكم، علي هو إمامكم»، لا.. قدّمﷺ ذلك بماذا؟

وقفﷺ واستشهدهم على أصول الدين، «ألستُم تَشهَدُونَ أن لا إلهَ إلاّ اللهُ وأنّي رَسولُ الله؟» قالوا: «بلى»؛ «ألستُمْ تشهَدونَ أنَّ الْجنّةَ حَقٌّ والنارَ حَقٌّ وأنَّ اللهَ يبعَثُ مَنْ في القُبور؟» قالوا: «بلى» .... إلى أن قالﷺ: «ألستُمْ تَشهدُونَ أنّي أوْلى بكُم مِنْ أنفُسِكُم؟» هي هذه الآية، أولستم تشهدون بهذا؟ قالوا: «بلى». لماذا قالوا: «بلى»؟ لأن هذا الذي نزل عليهم في القرآن وبلّغهﷺ إليهم منذ سنوات قبل ذلك، فالقضية أصبحت معلومة أن رسول اللهﷺ أولى بهم من أنفسهم، يأمر فيُطاع.

شهدوا هنالك، فرفعﷺ يد عليّعليه السلام وقال: «اللّهُمَّ مَنْ كُنْتُ مَولاهُ فَهذا

عَليٌّ مَولاهُ».

(وهذا هو «حديث الغدير»، والذي لا يوجد حديث شريف أكثر منه صحّة وتواتراً، فقد أخرجه أصحاب كتب الحديث وتفسير القرآن والتاريخ. فمن المحدثين أحمد ابن حنبل في مسنده ج٤ ص٢٨١، والبيهقي في سننه ج١٠ ص١٤، والهيثمي في مجمع الزوائد ج١ ص٩ وغيرها، والبخاري في تاريخه ج١ ص٣٧٤ رواية ١١٩١ و ج٤ ص١٩٣ رواية ٢٤٥٨ و ج٦ ص٢٤٠ رواية ٢٢٧٧، والذهبي في تذكرة الحفاظ من طرق عديدة منها ج١ ص١٠ و ج٣ ص١٠٤٣. ومن المفسرين الطبري في تفسيره ج٣ ص٤٢٨، والثعلبي في تفسيره، والفخر الرازي في تفسيره ج٣ ص٦٣٦، ومن المتأخرين الآلوسي في تفسيره ج٦ ص٦١. ومن المؤرخين الشهرستاني في الملل والنحل، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق في الأجزاء ١٣ و ١٨ و ٢٥ و ٤٢، وفي سير أعلام النبلاء من طرق عديدة منها ج٨ ص٣٣٤ و ج١٣ ص٣٤٠ و ج١٩ ص٣٢٨.)

الآن امتدت هذه الولاية التي لي والتي هي أعلى من ولايتكم لأنفسكم، ولاية كل منكم لأنفسكم امتدت الآن لعليّ عليه السلام ، فصار عليٌّ عليه السلام أولى بكل واحد منكم من نفسه.

فإذاً هذه الآية التي هي تقول ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ هي من أصرح ما يكون في العلاقة بالأمة المسلمة ومن أتمّها. الله تعالى يعلم أن هذا الذي يريده ويعلم أن هذا الذي سيكون من نبيّه صلى الله عليه وآله لأنه هو الذي أمره به، لأن هذا الذي يجب أن يكون من هذه الأمة الذرية المسلمة التي يدعو بها

إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام، وأنها تُطلَق إلى الناس لتكون هي القائدة لهم؛ كيف تكون كذلك وهي ليست لديها ولاية مقدمة على ولاية الناس لأنفسهم؟ فهذا من هذا.

وأما الآية الثانية آية الطلاق ومثيلاتها فإنها من التشريعات التي ستتعامل معها الأمة المسلمةعليهم السلام بالاتباع التام المطلق للرسولصلى الله عليه وآله المبعوث فيها. أي ليس كما تعاملت مع الآية الأولى، لكن تعاملت مع آية الطلاق، أصبحت الآن تشريعات الطلاق من هذه الآية ومن آيات أخرى، تعاملت معها على أنها تشريع واجب الاتباع لأن التشريع من الله تعالى واجب الاتباع.

مع تنبيه إلى أنه في مذهب أهل البيتعليهم السلام فإن المشرّع هو الله تعالى حصراً، حتى رسول اللهصلى الله عليه وآله لا يستطيع أن يشرّع، هو يبيّن التشريع، يكشف التشريع؛ في المذاهب الأخرى لا، يمكن للرسولصلى الله عليه وآله أن يشرّع هو، بل حتى يمكن لغيره أن يشرّع. هذه نلفت إليها أن الشارع هو الله تعالى حصراً لأنه هو الأعلم بمصلحة الناس من العباد.

الفصل الرابع عشر
المرجعيّة الرسوليّة ـ ١

(النصّ القرآني تلاوة وبياناً)

بعد عرض مرجعيتي رسول الله محمدﷺ: المرجعية المحمدية بصفته البشرية، والمرجعية النبوية، أعرض المرجعية الأكثر شمولاً ـ المرجعية الرسولية ـ في ثلاثة فصول.

ذلك أن المرجعية الرسولية لها في القرآن ثلاثة تعبيرات عن طاعة الرسولﷺ، مثلاً:

﴿أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ كما في الأنفال:٢٠.

و﴿أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾ كما في آل عمران:٣٢.

و﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ كما في النساء:٥٩.

❊

الطاعة من النوع الأول

﴿أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾، نجد أن رسول اللهﷺ ملحقاً بالله، ﴿وَرَسُولَهُ﴾ يعني نجد الصفة الرسولية فيه ملحقة بالله تعالى، فربما الطاعة هنا بالتصديق بتبليغ النص القرآني بنفسه، أي أطيعوا الرسول فيما يبلغكم به من كلامي.

الطاعة من النوع الثاني

﴿أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾، نجده‌صلى الله عليه وآله مستقلاً أكثر، بدل أن يُلحق بالله تعالى ﴿وَرَسُولَهُ﴾ صار ﴿وَالرَّسُولَ﴾ وحده. فربما تكون الطاعة هي لبيان النص القرآني يعني ليس النص لكن كيف يبيّنه كيف يفسره رسول الله‌صلى الله عليه وآله.

الطاعة من النوع الثالث

هنا صار عنده مساحة من الحرية أكبر ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فجعل له كلمة ﴿أَطِيعُوا﴾ منفصلة له، جاء بطاعة إضافية. فربما تكون الطاعة هنا مما هو مساحته أكبر من مساحة طاعة ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾، أي بيان للنص لتفسيره وبيانه ولكن بما يتحرك فيه النص من آفاق، من أعماق، من أسرار، مما علّمه رسول الله‌صلى الله عليه وآله من خلال الوحي من خارج القرآن؛ فقد كان يوحى إليه من خارج القرآن ومن خلال الحكمة التي نزلت معه لأنه قال ﴿وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ النساء:١١٣.

*

أمثلة على نصوص الأنواع الثلاثة

نأخذ أربعة نصوص ونجد كيف أنها تختلف في هذه الحركة، حركة في البلاغ أو حركة في البيان أو حركة في بيان النص أو حركة مما هو ليس في النص، ليس بوضوح في النص، من الخارج.

١/ ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ المائدة:٩٩.

هنا نجد كلمة الرسول التي هي من نوع الطاعة الأول، ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا

﴿الْبَلاغُ﴾، إذاً هنا هذا البلاغ بلاغ فقط، لم يقل كما في آيات أخرى تأتي ﴿الْبَلاغُ الْمُبِيْنُ﴾. إذاً البلاغ فقط، إذاً هو الذي عليه، واجبه الأول الأصلي هو أن يبلّغكم هذا النص، هكذا تبدو اللغة من هذه الآية.

فإن قلنا لو أنه قال «ما على رسول الله..» يلحق بالله، قال ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ﴾ إذاً هي من الطاعة النوع الثاني أيضاً ممكن، عندها يكون البلاغ، ولكن هذا البلاغ ماذا سيكون؟ سيكون البلاغ الذي هو مستوعب للتفسير ولو المبسّط، مفردات الآيات لأنه من الممكن أن تأتي مفردة غريبة الاستعمال عندهم أو كلها يعلمونها نزلت بلغتهم ولكن الآية بتمامها، مجموع الآيات التي نزلت يعطي فيها المعنى العام بدون التفاصيل.

٢ / ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الانْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ النساء:١٣.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾. قلنا ﴿مَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ هي الطاعة من النوع الأول التي فيها حرية التحرك للمرجعية الرسولية بالنطاق الأضيق من الدائرتين الأكبر، فيكون هنا في دائرة تبليغ النص، وطبعاً ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾، هذا الذي تنزل في النصوص هذه هي حدود الله، أبلّغها لكم.. انتهى. كما يقول في التشريعات المختلفة في العبادات في المعاملات في الحدود، فهذا واضح في حدود المرجعية الرسولية هنا.

٣/ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِينًا﴾ الأحزاب:٣٦.

هنا أيضاً التعبير ﴿اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ ﴿إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾، هنا شيء من

التشارك بين المرجعية الرسولية بنطاقها الضيق وبنطاق التبليغ للنص القرآني، ومع ما يقوم به الرسول صلى الله عليه وآله كنتيجة لهذا النص لأنه عندما يقول ﴿إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾، لو كان في النص فقط ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ﴾ الرسول ليس له علاقة بهذا، لكن هنا ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ هناك تحرك في واقع المجتمع في واقع الرسالة في حياة الناس، فلربما فيها شيء من البلاغ الرسولي بهذا القضاء مع تحديد آلياته ممكن. فإن حصرناها بذات الدائرة الضيقة ﴿قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ﴾، ﴿أَطِيْعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ ممكن، وإن توسعنا فيها لأنه يختص بقضاء في أمور الناس أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، هذا ليس ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيَّاهُ﴾ هذا ليس فيه خيار أصلاً، هذا فيه إعلام لحقيقة واقعة في أخص الأمور العبادية، أما هنا ﴿إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ شيئاً من الأمور، ثم التحذير بأنك ستقع في الضلال إذا عصيت الله ورسوله، إذاً هناك هذا مشترك فيه.

٤ / ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ العنكبوت:٥١.

هنا لا يوجد التعبير ﴿وَرَسُوْلُه﴾، التعبير بالرسالة غير موجود أصلاً بأي نوع من أنواعه، ولكن هذه الآية موضعها في هذا الجزء من المرجعية الرسولية وهو الطاعة من النوع الأضيق هو قوله تعالى ﴿أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ هو فقط هذا، ﴿أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾، إذاً أنت تتلوه عليهم، تتلو عليهم ماذا؟ تتلو النص. إذاً هنا لم تأت بصيغة ورسوله ﴿أَطِيْعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ ولكن أكدت على قضية مرجعيته صلى الله عليه وآله في النطاق الأضيق وهو أنه

ينزل عليه النص ويتلوه عليهم، وهذا عظيم كبير لأنه يقول له ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾؟

هذا وحده عظيم لأن ﴿فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، هذا رحمة، إن شئت هذه آيات القرآن بتلاوتها بالاستماع إليها هي رحمة تتنزل وبركات تتحرك في أطر خارج فكرة الميتافيزيقيا التي لا تعلمها كيف تكون، وذكرى لأنك تتذكر النصوص القرآنية وحدها هي تذكرك بالله سبحانه وتعالى وبدورك في الحياة، بلا تفاصيل أنت تتعلم هذه الأمور، تذكّرك بالأمور الكلية في علاقتك بالله سبحانه وتعالى.

الآيات المباركة وآيات الأمة المسلمة

أخيراً، ما هو الربط بين هذا وآيات الأمة المسلمة؟ يعني ربط المرجعية الرسولية بنطاقها الملحق بالله تعالى والذي هو تلاوة النص، ومن الممكن تلاوة النص مع بعض البيان البسيط، هذه الآيات الأربع ماذا عندنا؟

عندنا البلاغ الرسولي للنص ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ﴾، عندنا الحدود ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾، عندنا الآية الثالثة القضاء من الرسول وهو في الحقيقة من الله تعالى لأنه لا يتحرك إلا بالوحي والتعليم الإلهي، زائداً مثيلاتها مما سيأتي في التفاصيل.

هذه كلها تتحرك فيها وهي تتحرك مع الأمة المسلمةعليهم السلام سواء بسواء وذلك من خلال موقعيتهم التي أعلنها الرسولصلى الله عليه وآله المبعوث فيهم، وإلا ما الذي فعل؟ ما الذي استفدناه إذاً من ﴿يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (البقرة:١٢٨) قبل أن يزكيهم إلى الناس؟ إذاً يعلمهم الكتاب والحكمة، ثم عندما زكّاهم إلى الناس أطلقهم، كما أن الواجب بالطاعة ﴿أَطِيْعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ واجب

طاعتهم هم بعد أن زكّاهم وقال: هؤلاء هم الذي علّمتُهم وهم يعلّمونكم من بعدي.

فهذا القسم الأول من الأقسام الثلاثة، أقسام المرجعية الرسولية وهي التي تحيط بالرسالة كلها، هو القسم الأضيق في الحركة، البلاغ ونفسه عنده ستجده عند الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام التي هو صلى الله عليه وآله علّمها وهو صلى الله عليه وآله فهّمها وهو صلى الله عليه وآله زكّاها إلى الناس من خلال ما سيأتي منهم من تلاوة النصوص حتى بعد زمانهم عليهم السلام...

وجدنا أن أناساً يُسلِمون على أيدي الأئمة عليهم السلام، يعني من الخطوة الأولى، كما أن الناس بعضهم لا يتلو القرآن بالشكل الصحيح حتى عندما بدأ أمير المؤمنين عليه السلام في العراق عندما أمر أبا الأسود الدؤلي أن يبدأ بعلم النحو، قال إني أجد فيه لحناً، هناك عندما يقرأون القرآن.

ونجده في هذا الجزء من الحدود في القضاء الذي هو بهذا ولو بالنطاق الضيق، يقول لك هذه الحدود، أنت يجب أن تفعل كذا، فنجده متحركاً في الأمة المسلمة كما في الرسول المبعوث فيهم صلوات الله عليهم أجمعين.

الفصل الخامس عشر
المرجعيّة الرسوليّة ـ ٢

(النص بياناً من خارج النص القرآني)

قلنا: إنّ هناك ثلاثة جوانب من المرجعيات المتعلقة بالنبيﷺ التي نتعبد بها إلى الله تعالى، المرجعية المحمدية بصفته البشرية، والمرجعية النبوية والمرجعية الرسولية ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الامِّيَّ**﴾ الصفات الثلاث.

في الفصل السابق تعرضنا إلى الدائرة الأضيق من المرجعية الرسولية، وهي دائرة تبليغ النص القرآني، ومن الممكن أن يكون معه شيء من البيان البسيط، المرجعية التي في إطار الآيات التي تقول: ﴿**أَطِيْعُوا اللهَ وَرَسُولَه**﴾ بإلحاق صفة الرسول بالله تعالى، فكأنها ملحقة لأنها مرتبطة بشكل مباشر بالنص يعني «أطيعوا الله في نص القرآن، ورسوله ملحقة مباشرة».

في هذا الفصل، نتعرض إلى الجانب الثاني، وهو البيان للنص القرآني من خارج النص القرآني، وهو في قوله ﴿**أَطِيْعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ**﴾. قلنا: إنّه أعطاهﷺ مساحة من الحرية عن النص المجرد، قال ﴿**أَطِيْعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ**﴾، بكلمة رسول منفصلة. هذا يمكن الاستفادة منه هكذا:

أطيعوا الله في النص القرآني، إضافة إلى ما يبينه الرسولﷺ من النص بما لا تجدونه في النص مباشرة وما لا تستطيعون استخراجه من النص مباشرة.

أمثلة من نصوص الآيات للنوع الثاني من الطاعة

اخترت ثلاث آيات:

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ آل عمران:٣٢

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ النور:٥٦

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ النحل:٨٢.

كما تجدون، هذه ثلاث آيات، كل واحدة فيها تميّز عن الأخرى. أي:

الأولى ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾ تجدونها في آيات أخرى؛

الثانية ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ كلمة الرسول بدون الله ولكنها من نفس المجموعة.

الثالثة التي لا تأتي بذكر الرسول ولكن تأتي بذكر ما نذهب إليه من أن هذه الطاعة الدائرة الثانية المستوى المتوسط بين دائرة تبليغ النص وبين الدائرة الأكبر (التي سنتحدث عنها في الفصل القادم).

النظر في الآيات المباركة

١ / ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ آل عمران:٣٢

هذه الدائرة منها أيضاً البلاغ، فلو نتأمل فيها نجد أنه جاء بكلمة ﴿قُلْ﴾، هذه الكلمة مهمة جداً، فعل الأمر هذا في القرآن أكثر ما يأتي لينبّه بين الحين والآخر ، بشكل عام كما بشكل خاص لتلك الآية أو الآيات، إلى أن هذا الكلام ليس من عنده صلى الله عليه وآله بل هو من عند الله تعالى فيجب أن تطيعوه. ذلك لأن البعض ربما يتضايقون منه أو ربما تثير شبهة أنه صلى الله عليه وآله يتكلم لمصلحته،

فمما يؤسف أنه كان هناك من يثير هذه الشبهات حوله ﷺ، فلذلك تأتي مثلاً:

﴿قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ الأحزاب:٥٩، ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ ص:٨٦، ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ سبأ:٤٧... هنا كلمة ﴿قُلْ﴾ أي أن الله تعالى يأمره أن يقول ما بعدها. فـ ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾: قل لهم أطيعوا الله والرسول؛ ﴿أَطِيعُوا اللهَ﴾: النص القرآني، ﴿وَالرَّسُولَ﴾: ما سيبينه ﷺ لكم من النص.

أما تتمتها ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾، فإن الكلام هنا هو قطعاً مع المسلمين، لأنه لا يقول ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾ للكافرين المشركين الذين لم يدخلوا الإسلام بعد، فأولئك يقول لهم «آمنوا بالله وآمنوا بالرسول»، وبعد أن يؤمنوا يطيعوا ما يتنزل في القرآن من العقائد والأحكام. ﴿فإن تولّوا﴾، من تولى ولّى أي أدار ظهره، تعبير مجازي أنه رفض أن يطيع الله والرسول ﷺ جميعاً أو رفض أن يطيع الرسول ﷺ فقط.

(لأنه هنا، الله والرسول ﷺ لا تستطيع أن تفرق بينهما، فنجد من الكثيرين لاسيما في زماننا الآن بالكاد تعلّم شيئاً، مع جهله بأبسط قواعد اللغة العربية، وإذا به صار يقول القرآن يكفي، القرآن مبيّن، القرآن كذا، لا نحتاج ولا نحتاج، إلى أن يصل الحديث إلى لا نحتاج إلى الرسول!)

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾، قد صرت كافراً لأنك صرت كافراً بوجوب الطاعة، أصبحت تكفر، لا تؤمن بوجوب الطاعة للرسول ﷺ فيما يبينه من القرآن. وعليه هذا المستوى من المرجعية الرسولية ليس مما يمكن التهاون معه كما يظن البعض، بل أنت تقف أمامه ما بين الإيمان والكفر.

٢ / ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ النور:٥٦

هنا ﴿أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أمر عام بما نزل من القرآن كثيراً من ذلك وبما تفاصيله من الرسول مجمل. ولكن عندما يقول ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ هنا لا يجوز أن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ولكن تتعامل مع ما يأتيك من الرسولصلى الله عليه وآله تعامل المختار الذي يأخذ ما يعجبه ويترك ما لا يعجبه.

وهنا لم يقل: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ كما في الآية الأولى، ولكن يقول: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، طاعة رسول اللهصلى الله عليه وآله هذه رحمة لكم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء:١٠٧. فأنتم أيها المسلمون أولى بهذا، لاسيما ليس فقط ادّعيتم الإيمان ولكن إن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة فعليكم بطاعة الرسولصلى الله عليه وآله ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، كيف يكون أرسلناه رحمة للعالمين وأنت تريد الرحمة في الوقت الذي لا تطيعه؟ إذاً طاعة الرسولصلى الله عليه وآله ــ هناك في الآية السابقة جانب التفريق بين الكفر والإيمان، وهنا فيها جانب الرحمة لمن يطيع.

٣ / ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ النحل:٨٢

هذه الآية مهمة في بحثنا، فأولاً هي تعطي جانباً مثل ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾، لم يقل فإن تولوا اقتلهم! كلا، إذ لا إكراه في الدين. ثانياً، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ تؤكد بشكل أشد، فإن تولّوا ﴿فَإِنَّمَا﴾ فقط، حصراً، ﴿عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾، تقوم بواجبك في الإبلاغ الواضح.

هنا لم يذكر اسم الرسولصلى الله عليه وآله، ولكن البلاغ المبين كاشفة أنها هذه الدائرة الوسطية وهي أن الرسولصلى الله عليه وآله هو المبيّن للنص القرآني، يبيّنه، يفسّر

النص. هنا الفارق عن ﴿إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ في آيات أخرى والتي تعني النص القرآني فقط، حيث أن ﴿الْبَلاغُ الْـمُبِينُ﴾ هنا هو البلاغ الواضح الذي يبيّن، يأتي بالبيان، بيان رسولي للآيات، هذا من ضمن واجبه، وظيفته صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ أن يبلّغ النص ويبيّنه، لأنه لو بلّغ النص فقط ولم يبيّنه عندها كل إنسان يتكلم بما يشتهي؛ وقد حصل هذا ولا زال يحصل مع الأسف، مع بيانه مع تفسيره لازال يحصل، فكيف لو قرأ النص وبعد أن تأكد أنهم قد حفظوه عن ظهر قلب أدار وجهه وذهب إلى شأنه، عندها كل إنسان يتكلم بما يريد! ودونك آيات القرآن تكاد لا توجد آية متفق عليها لأن هناك آفاقاً مختلفة، جوانب مختلفة. البيان الرسولي للنص هذا هو البلاغ المبين.

وهنا أيضاً ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْـمُبِينُ﴾ هذه وظيفتك، ما نفعل نحن معهم هذه قضية أخرى، هذه مختصّات الله سبحانه وتعالى.

الآيات المباركة وآيات الأمة المسلمة

الآن ما هو الربط بين هذه الآيات، وما تعطيه من «بيان رسولي للنص»، مع آيات الأمة المسلمة؟ البلاغ الرسولي المبين للنص يحتّم الطاعة للرسول صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ بما بيّنه من النص، وإلا ما فائدة البيان إذاً؟ وهو قد أبرأ صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ ذمته بالبلاغ المبين، أدّى ما عليه من الواجب، فمن تولّى صدّ عن ذلك ولم يطع فإنما يضرّ نفسه.

هنا هذه الآيات ومثيلاتها تتحرك مع الأمة المسلمة سواء بسواء، وذلك من خلال موقعيتهم التي أعلنها الرسول المبعوث فيهم صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ، ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾، فبعد أن يطبّقها صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ يطبّق هذه المقتضيات، النصوص في بيانه مما

يستدعي البيان وإدارة تطبيق هذه الأحكام، بعد أن يطبقها هو صلى الله عليه وآله سيكون واجبهم عليهم السلام، واجب الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، تطبيقها تماماً؛ وذلك بعد أن يزكّيهم إلى الناس. فقد علّمهم صلى الله عليه وآله الكتاب والحكمة، يعلمهم النص والبيان للنص والآفاق المختلفة والأسرار وما هو موجود في هذا النص المعجز، فعلّمهم عليهم السلام ثم زكّاهم عليهم السلام إلى الناس ـ هؤلاء عندهم هذا.

فكما أنه يجب عليكم **﴿أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾** سنجد (في فصل قادم) الطاعة الأخرى معها في آية **﴿أُوْلِي الأَمْرِ﴾** النساء:٥٩ و ٨٣، **﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾**، أو الطاعة تأتيكم بالرحمة فإن لم تفعلوا تُرفع عنكم الرحمة.

كل هذه التي في الرسول المبعوث فيهم صلى الله عليه وآله هي في الأمة المسلمة عليهم السلام، لأن القضية المهمة جداً في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هي الآتي:

إن الدعاء هو أن يبعث الله تعالى أمة مسلمة من ذريتهما، يبعثها لهداية الخلق، فالأمة المسلمة التي ستستمر قروناً هي لهداية الخلق، لكن من أجل أن يكون أفرادها مهيئين لذلك فإن هناك شخصاً من هذه الأمة المسلمة هو الذي يهيئهم، وهو رسول الله صلى الله عليه وآله، يتلقى الوحي ويعلمهم ذلك الوحي، يعلمهم أسراره، ويعلمهم تفسيره، ويعلمهم تأويله، ويعلمهم آفاقه الواسعة التي تستمر بالعطاء حيناً بعد حين، ثم ينطلق بهم إلى الناس ليزكّيهم إليهم.

الفصل السادس عشر
المرجعيّة الرسوليّة ـ ٣

(الوحي والحكمة والميزان من خارج القرآن)

نتناول في هذا الفصل الدائرة الثالثة الأوسع من المرجعية الرسولية.

قلنا: إنّ الدائرة الأولى هي دائرة بلاغ النص ﴿**أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ**﴾، هنا ﴿**أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾، أعطاه مساحة أكبر للتحرك من خارج النص القرآني، بدلالة وأطيعوا الثانية صارت ﴿**أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾. عندما قال: ﴿**أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ**﴾ فإنها طاعة ملحقة بالطاعة للنص القرآني، وعندما قال: ﴿**أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾ فإن للرسولﷺ حركة أوسع ولكن أيضاً ملحقة، ولكن في الدائرة الثالثة هناك طاعتان منفصلتان: ﴿**أَطِيعُوا اللهَ**﴾ وهو النص القرآني، فما هو ﴿**وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾؟ إنه الذي أسميه «البيان الرسولي» من خارج النص القرآني؛ فمن أين؟ من الوحي، يوحى إليه ما هو خارج النص من الحكمة والميزان مما يفيضه الله تعالى عليه من العلم بما لا نجده في نص القرآن.

أمثلة من الآيات الكريمة

كما فعلنا من قبل، فقد اخترنا من الآيات ما فيه تنوّع:

١ / ﴿**وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا**

الْبَلاغُ الْـمُبِينُ﴾ المائدة: ٩٢.

هنا ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ من أن تصدّوا عنهصلى الله عليه وآله، فإن صددتم عنه فإنكم تقعون تحت طائلة ما ينتج من هذا التحذير، ﴿وَاحْذَرُوا﴾. لا يذكر ما الذي يحصل، لكن يقول هوصلى الله عليه وآله لن يكون مسؤولاً عن تقصيركم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْـمُبِينُ﴾. هناك في الفصل السابق، في الآية ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْـمُبِينُ﴾ النحل:٨٢، أيضاً قالت ﴿الْبَلاغُ الْـمُبِينُ﴾، حيث البيان الرسولي «من النص القرآني»، في حين أنه هنا «البيان من خارج النص» بضميمة الطاعة المنفصلة للرسولصلى الله عليه وآله. أي أن «البلاغ» في الدائرتين الثانية والثالثة لابد وأن يكون مبيناً، ولكن منطلق البيان يختلف.

٢/ الآية الثانية، وهذه الآية هائلة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ محمد:٣٣.

لا تبطلوا أعمالكم! هذه واضحة في أن عدم الطاعة للرسولصلى الله عليه وآله تحبط العمل، تبطل أعمالكم (يقصد أعمالك الخيرة لأن أعمالك السيئة أنت أصلاً تريد أن تتخفف منها). تبطلوا أعمالكم الحسنة إن لم يتحقق هذا: طاعة الله وطاعة الرسولصلى الله عليه وآله. إذاً شَرَطَ طاعة الرسولصلى الله عليه وآله مع طاعة الله، لا تفريق بينهما والخطاب إلى جميع المسلمين ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾.

٣ / آية أخرى مهمة أيضاً ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الاغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الحشر:٧.

حكم شرعي ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ يعني عندما تُفتح قرى أخرى سلماً أو حرباً، هذا الفيء كيف يتم توزيعه؟ لله والرسول وذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.. فيها تفاصيل فقهية تطلب من مكانها في كتب الفقه.. ﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الاغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾، نوزعها كي لا تقع في أيدي الأغنياء فقط.

محل الشاهد هنا ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، حيث تتحدث الآية في سياقها عما آتاكم وما نهاكم من الفيء، هنا الكثير من المفسرين يقولونه؛ ولكن المشكلة هي:

نعم ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾، ما نفهمه بشكل مباشر هذا من الفيء، خذ كذا، خذ كذا، لكن ﴿وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ كيف؟ فإنه إذا كان ﴿مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ﴾ أيضاً يتعلق بالفيء، فهذا يعني وكأنما أحدهم يأتي ويمدّ يده فيقول صلى الله عليه وآله: أنتم لا تمدّوها، وهذا لم يكن يحصل، لأن الحال أنه يُجمع تحت إمرة الرسول صلى الله عليه وآله في بيت المال، وهو صلى الله عليه وآله الذي يوزع، فما معنى ﴿وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾؟

إذاً، القضيةليست بالضبط في مسألة الفيء أو فقط في مسألة الفيء، لكن من الممكن أن تكون ما ينهاكم عن الفعل أيضاً تنتهون عنه، ما ينهاكم عن القول أيضاً تنتهون عنه، ولذلك لم يزل هذا الشطر من الآية يقول المفسرون وعلماء الدين كلهم أنه آية عامة لا تختص فقط بالفيء والمسائل المالية. فما آتاكم من حكم شرعي تأخذون به، وما نهاكم عن شيء أن لا تفعلوه، لا تفعلوه. وعليه، فمن الممكن أن يكون هذا خارج النص القرآني.

٤ / والآية الرابعة ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ آل عمران:١٥٣.

من آيات «أُحُد» حيث هربوا بعد النصر الأول وصارت الهزيمة وهرب من هرب منهم إلى جهات بعيدة وبعضهم هربوا إلى الجبال، ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾، هذا التعبير ﴿وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾ يعني لا تنظر خلفك ولا يهمك شيء تريد فقط أن تنجو بنفسك. ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾، الرسول في السفح ويدعوكم كما تذكر الروايات «إليّ يا فلان، إليّ يا فلان» ولم يرجع إليه أحد منهما أو منهم أحد (مغازي الواقدي ج١ معركة أحد).

فهنا مع العلم أنها معركة، وقلنا أن القضايا الإدارية غالباً ما تأتي في القرآن بصيغة المرجعية النبوية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الاسْرَى..﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ..﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ..﴾ التي ذكرتها في فصل سابق سابقة، ولكن هذه الآية جاءت بلفظ الرسول لأن النصر والهزيمة يتعلق بالرسالة كلها، كانت قريش في أُحد، بعد ذلك أتت لتثأر من بدر وتقضي على الإسلام، والهزيمة كانت هزيمة كبيرة، وبالتالي الرسول يدعوكم، أنت عندما يدعوك هذا ليس النبي، هذا الرسول الذي يدعوك بما تتعلق الرسالة كلها به فتتعلق بموقفك أنت، فإذاً نجد أن هذه المرجعية الرسولية شيء من السعة بمكان بحيث أنها من الممكن أن تستوعب جميع حركة الفرد، فإن لم يكن كلها فمعظمها لأنها من النص القرآني المجرد ومن خارج النص، ولا أحد يستطيع أن يقول لا، هذا لم يكن من الحكمة من

رسول الله صلى الله عليه وآله، أو من الوحي من رسول الله صلى الله عليه وآله.

وما يدعم هذا آيات من قبيل والتي ستأتي في الفصل القادم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ النساء: ٦١ أنه أيضاً لم يحكم ماذا يفعل معهم، لا، لأنه لا إكراه، ولكن سيكون، كما قلنا، في الموقف الرافض أنه من الكافرين، وأنه من المنافقين، فالتفريق بين طاعة الله وطاعة الرسول صلى الله عليه وآله يوقعك في النفاق لأنك لست مؤمناً واقعاً، لست في حقيقة أمرك. هذه المرجعية لرسول الله صلى الله عليه وآله نجد ما يثبتها ويثبت كيف أن الأوامر تأتي أحياناً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من خارج النص القرآني ثم يأتي النص بعد ذلك بمدة ليكشف عنها.

من أوضح ذلك تغيير اتجاه القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، والقرآن يقول إنما كان ذلك اختبار، يقول في سورة البقرة الآية ١٤٣ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾، واضح أن هذه الآيات تذكر تغيير القبلة نزلت بعد أن أمره بالصلاة إلى الكعبة. ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ فيقول ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ البقرة:١٤٤، هذه عندما وجهه إلى الكعبة، كانوا – في الجاهلية – قبلتهم الكعبة، ثم كان النبي صلى الله عليه وآله في مكة يصلي إلى بيت المقدس ولكن

يجعل الكعبة أمامه، أي كان يجعل القبلتين أمامه، ثم صاروا في المدينة يصلون إلى بيت المقدس ثم عادوا إلى الكعبة، هذه المدة التي من يوم تغيير اتجاه القبلة من بيت المقدس وحتى إرجاعه إلى الكعبة، هذه المدة ستة عشر أو سبعة عشر شهراً لم ينزل فيها وحي. ولكن أُطيع الرسول صلى الله عليه وآله في تغيير اتجاه القبلة إلى بيت المقدس وهو اتجاه مغاير لأن المدينة شمال مكة وبيت المقدس شمال المدينة فكان يصلي إلى جهة الجنوب إلى الكعبة وصار يصلي جهة الشمال إلى بيت المقدس في فلسطين.

هنا القرآن لم يتحدث عن هذا، الرسول صلى الله عليه وآله قال: أُمرت بذلك، كيف أُمرت؟ هذا من الوحي الذي لا نجده في النص القرآني بعد ذلك أخبر، لم يخبر فقط أننا نحن غيّرنا ولكن أخبر عن السبب في هذا، لا بد من أن يكون هناك سبب. السبب **﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾** يعني بيت المقدس **﴿إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾**، هذه أصلاً **﴿وَمَا جَعَلْنَا.. إِلاّ﴾** أي "فقط"، أي إنما جعلناها لهذا الغرض فكان اختباراً شديداً لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه.

هذا الانقلاب على الأعقاب تعبير مجازي عن التولّي التام عن رسول الله صلى الله عليه وآله، يذهب عنه بعيداً، وهذه كانت ضابطة له قضية تغيير القبلة من الكعبة وكانوا متألمين لأن اليهود كانوا يقولون لهم أنظروا ها أنتم تتبعون ديننا، أو أن ديننا هو المهيمن أو أنه هو الأصل، أي أنكم تتبعون القبلة التي عندنا، فكانوا يستهزئون بهم وكانوا يتألمون وكان رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً يريد مكة، لذلك **﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ**

الْحَرَامِ﴾، ينتظرﷺ متى يأتيه الأمر بإعادة قبلة الصلاة إلى الكعبة المعظمة؟

هنا الآية إذاً تقول **﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾**، وذلك لأن الهدى من عند الله يعلم ما في الداخل، أي **﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾** محمد:١٧، فـ **﴿إِلا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾** يستحقون أن يدعمهم الله تعالى في خط الهدى، **﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾**، لكن لم يتبينوا ذلك لأن النفاق في قلوبهم.

هذا، وكما أن هناك من الأمور التي توحى إلى النبيﷺ من خارج القرآن، مثل قضية تحويل القبلة. مثلاً، يخبر عن رؤيا، حلم رآه النبيﷺ، وبعد ذلك نزلت الآية **﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾** الإسراء:٦٠، فهي تقول **﴿أَرَيْنَاكَ﴾**، فعل ماض أيضاً قبل نزول الآية.

الآيات الكريمة وآيات الأمة المسلمة

كما قلنا في غيرها، أن هذه الآيات ومثيلاتها تتحرك مع الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام كما تتحرك مع الرسولﷺ، لأن واجبهم سيكون تطبيق جميع هذه التي يأمر بها من الطاعة الرسولية من خارج النص القرآني، والتي علّمها **﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾** البقرة:١٢٩؛ فإن قيل: إنّ الكتاب هو النص فقط وهو أكبر من النص ولكن حتى إن قيل: إنّه النص، ما هي إذاً الحكمة؟ يعلمهاﷺ إياهم وهمعليهم السلام الذين يعلّمون الناس بعد أن زكّاها لهم.

هنا سيكون لأحاديث العترة الطاهرةعليهم السلام، وهي الأمة المسلمة كما ذكرنا

من الذرية الإبراهيمية الإسماعيلية من خط إسماعيلعليهما السلام، إضافة إلى العلوم التي يتلقاها الإمامعليه السلام والتعليم الأصلي من القرآن والرسولصلى الله عليه وآله، سيكون لهذه كلها مدخلية في فهم طبيعة وظيفتهم المتابعة لوظيفة الرسولصلى الله عليه وآله صاحب الطاعة المنفصلة عن النص القرآني، كما ورد عن الإلهام والإيحاء وما شابه، والذي نجد تراثه عندنا في السنة النبوية الشريفة.

أي أن الإمامعليه السلام يأتيه إلهام، يأتيه تعليم من الله تعالى والفيض الإلهي عنه لا ينقطع؛ الوحي انقطع بموت رسول اللهصلى الله عليه وآله ولكن الفيض شيء آخر. الفرد العادي المسلم ينفتح على الله تعالى يدله على أمور يكشف له عن أمور منها ما فيها فائدته أو وقايته إلخ، وبطرق كثيرة جداً، وهؤلاء العباد من الناس العاديين، فما بالك بمن هم الأمة المسلمة التي عُلّمت من سيد المرسلينصلى الله عليه وآله ثم زُكّيت إلى الناس ليكونوا هم أعلام الهدى إلى الله تعالى.

الفصل السابع عشر
الرسولﷺ ـ تحكيمه وحرمة الصد عنه

بعد أن جُلنا في أمثلة قليلة جداً من آيات الرسولﷺ في القرآن في صفاته، في علاقته بالقرآن انفصالاً وامتزاجاً، وفي مكانته في خلق الله من خلال مكانته عند الله، ومن خلال شهادته على الناس، ومن خلال مكانته في صراع الهدى والضلال، وفصّلتُ في أنواع المرجعيات، المرجعية البشرية لكونهﷺ محمد البشر الأميّ من أم القرى من مكة، وفي مرجعيته النبوية في خطاب الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيّ﴾ ثم في مرجعيته الرسولية بحلقاتها أو مساحاتها الثلاث من الأضيق إلى الأوسع...

بقي عندنا أمر هو عند المؤمنين من البديهيات أو هكذا يجب أن يكون، بل عند كل المسلمين هكذا يجب أن يكون، وهو من البديهيات ولكن الواقع شيء آخر. الله تعالى يعلم بما يكون من الناس ولهذا كان القرآن يحثّ حثّاً شديداً لترسيخ الأمر بطاعة الرسولﷺ والتحذير الشديد من معصيته، من التولّي عن طاعته، من الصدّ عنه فيما يأتي منه، فهذه الجوانب الثلاثة من مرجعيته ولاسيما المرجعية النبوية التي هي في الإدارة وفي التشريع والمرجعية الرسولية التي هي الأوسع والتي تشمل الرسالة كلها، نتكلم في هذا الفصل عن «وجوب تحكيم الرسولﷺ ووجوب عدم الصدّ عنهﷺ».

أولاً / وجوب تحكيم الرسول صلى الله عليه وآله من خلال آيات كريمة

إخترت أربعة نصوص نذكرها وما نفهمه منها من اللغة مباشرة، وبعد ذلك علاقتها بالأمة المسلمة.

الآية ١٤٣ من سورة البقرة (وقد ذكرتها في الفصل السابق في قضية تحويل القبلة بإطار ﴿وَأَطِيْعُوا الرَّسُولَ﴾ التي هي المساحة الأكبر في المرجعية الرسولية):

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

الآية الثانية:

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ آل عمران:٨٦.

وأما الآية التي تذكر التحكيم بالذات وما يجب أن يُفعل، كيفية التعامل معه من المؤمنين:

﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ النساء:٦٥.

والآية الرابعة آية مشابهة، الأحزاب:٣٦:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِينًا﴾.

١ / الآية الأولى

سنعلم (في الفصول القادمة، فصول الأمة المسلمة) قضية شهادة الأمة المسلمة على الناس، لأنها هي الأمة الوسط ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، أن مقام الشهادة للرسولﷺ سيكون لهمعليهم السلام من بعده أيضاً، لأنه علّمهم الكتاب والحكمة، فسيكونﷺ شاهداً عليهم على هذه الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام، شاهداً كيف صنعت كيف قامت بواجباتها ووظيفتها وهذا سيكون مشابهاً لهم ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، هم يشهدون على الناس بعد أن قاموا بواجبهم مع الناس، بيّنوا طريق الهدى والضلال، رسّخوا وأعلنوا ما جاءهم من الرسولﷺ فيكون لهمعليهم السلام مقام الشهداء الشاهدين على الناس يوم القيامة كيف صنعوا. فهذه الآية نفسها تصدح عالياً بالمسلمين أن يراقبوا طاعتهم للعترة الطاهرةعليهم السلام عندما تذكر موضع تحويل القبلة، فتقول ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾.

ذكرنا في فصل سابق أن القضية كانت شديدة عليهم في تحويل القبلة، اليهود كانوا يقولون: أنتم تتبعون ديننا، أو على الأقل إنكم إنما تتبعون الخط الذي نحن عليه، أنتم عيال علينا، نحن المؤسسون لهذا الخط والدليل أنكم تصلّون إلى بيت المقدس، فكان شديداً على المسلمين... والرسولﷺ يتوقع أن المسلمين كانوا يتكلمون في هذا، هو نفسه كان يشعر بهذا الضغط

فكان يقلّب وجهه في السماء، وهذه الآية تثبت أن الأمر إنما كان من أجل أن يُخرج الله تعالى ما في دواخلهم، لأنه عندما يقول ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ﴾ ليس لأن الله تعالى لم يكن يعلم ما فيهم وما سيكون من كل واحد منهم، يرضى بتحويل القبلة؟ يسلّم؟ لا يقبل؟ يعترض؟ أو يرضى ولكنه يحزن لهذا.. درجات مختلفة، ردود فعل مختلفة، فاللّه تعالى يعلم ذلك، ولكن ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ﴾ إلا لنظهره معلوماً للنبي صلى الله عليه وآله، لكم، كما يفعل من أجل أن يظهره معلوماً يوم القيامة من أجل أن يحاسب على أساس ذلك، لأنه لو حاسب إنساناً على أساس داخله سيقول: لا أنا لم أفعل، والله تعالى أعدل من هذا. فكان يخرج ما في دواخلهم من حقيقة البخوع للأمر الإلهي باتباع الرسول صلى الله عليه وآله كائناً ما يكون الأمر حتى لو كان جعل قبلة الصلاة بعيداً عن مكة المعظمة التي يعظمونها من قبل الإسلام إلى اتجاه معاكس جغرافياً بـ ١٨٠ درجة وبظاهرية اتباع أهل الكتاب، وهو بيت المقدس.

فكان يحذّر في هذه الآية مَن يتّبع الرسول صلى الله عليه وآله، لم يقل من لم يتبعه، بل ﴿مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾، والتي نجدها في آية أخرى شهيرة عندما يذكر موت النبي صلى الله عليه وآله أو قتله، يقول ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ آل عمران:١٤٤؛ فهذا الوصف نفسه الذي حصل يوم معركة أُحُد في انقلاب الأعقاب، هو نفسه الوصف الذي حذّرهم منه بعد موته صلى الله عليه وآله ما أشارت إليه الزهراء عليها السلام في خطبتها لتصف ما فعلوه من ضرب أمر رسول الله صلى الله عليه وآله عرض الحائط.

وتفرّق هذه الآية بردود الفعل، فهناك درجات، لكن القسمين الأساسيين

في ردود الفعل كان أن البعض كانت كبيرة عليهم فلم يكونوا راضين، والبعض الآخر كانوا راضين وهم الذين وصفهم الله ﴿الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾ ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾، أما الآخرون فكانت كبيرة عليهم لم يتحملوها.

٢ / الآية الثانية

الآية ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ تتحدث عن مسلمين دخلوا في الإسلام ﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾ وأنه جاءهم بالبيّنات الواضحات ـ البينات في ذاتها كما البينات على صدقه هوﷺ فيما يقول، في عقيدة التوحيد وفي العقائد الأخرى والأحكام الفقهية وفي غير ذلك مما يأتيه من عند الله. هؤلاء بعد أن آمنوا إذا بهم ينقلبون كافرين، وبعد أن شهدوا أن الرسولﷺ حق وأنه جاءهم بالبيّنات؛ فماذا يعني هذا؟

إنه يعني أن هؤلاء إما لم يكونوا باطناً من المؤمنين حقاً فكانوا أصلاً من المنافقين، وإما أنهم آمنوا حقاً ولكن كانوا ضعاف الإيمان فتزلزلوا وتراجعوا فارتدوا، وهؤلاء يقعون في المصيبة العظمى أن الله تعالى يكفّ عنهم فيضه في الهدى ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، أي كيف يهديهم وهم على هذه الحال؟ مَن الذي يضمن أنه إذا هداهم قسراً لا يرجعون بعد ذلك إلى الارتداد؟ حصل هذا معهم. ﴿اللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، هؤلاء ظلموا الحقيقة، ظلموا رسول اللهﷺ وظلموا أنفسهم.

الذي نتلمّسه من هذه الآية، أن الذي يؤمن برسول الله صلى الله عليه وآله لا يجوز له أن يكفر ولو بشيء مما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله، لأنه من الممكن أنه عندما يقول: ﴿واللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، ولم يقل الكافرين، أن هؤلاء كفروا ببعض ما جاءهم، كفروا ببعض وبقوا على إيمانهم ببعض، شهدوا أن الرسول صلى الله عليه وآله حق وجاءهم بالبيّنات ثم كفروا بعد إيمانهم. أنت عندما تأخذ البعض وتترك البعض هذا يعني أنك باقٍ في الجماعة المسلمة، أنت تصلي أنت تفعل كذا ولكن أنت لا يعجبك شيئاً آخر، فهنا وصفهم بالظلم، هذا لأنهم صدّوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله في بعض ما جاء به، وربما صدّوا في الجميع مما في دواخلهم مما لا يعلمه إلا الله.

٣/ الآية الثالثة

إن الآية المباركة ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ آية مفصلية ومهمة جداً، وربما لا يتم النظر فيها بدقة بمقتضياتها: فما الذي تطلبه منّا؟

(فَلا وَرَبِّكَ) هذا قَسَم، والقسم بربّك وليس «لا والله»، أي أنه يريد أن يؤطر القضية بالعلاقة برسول الله صلى الله عليه وآله هنا الكلام معنا، العلاقة برسول الله ﴿رَبِّكَ﴾ الرب هو المنعم هو الذي أفاض عليك من هذا الفضل وهذه المنزلة، ﴿فَلا وَرَبِّكَ﴾؛ ماذا؟

﴿لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى.. ﴾ شرط الإيمان، أي إذا قال: أنا مؤمن، تقول له شرط الإيمان ـ لننظر حتى ماذا؟

الشرط الأول ﴿يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ عندما يوجد شجار، والشجار هو

خلاف ـ سواء كان خلاف على نزاع، على شيء مادي، أو خلاف فكري أو خلاف ديني، أي خلاف يكون بين اثنين أو بين جماعتين أو بين عشيرتين، المهم أنه خلاف وسط المؤمنين بين شخصين أو أكثر، ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ في حالة الاختلاف، أول شرط ماذا؟ نذهب نحكّم الرسول صَلَّالِلَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، ما الذي يحكم به؟

الشرط الثاني ﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ يقضي رسول الله صَلَّالِلَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، القضاء في هذا الشجار، لا يجدون في داخل أنفسهم مشكلة مع قضائه.

والشرط الثالث ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، تسليماً مفعول مطلق يؤكد الفعل، يعني يؤكد تسليمهم في الخارج. فمثلاً، لو أن اثنين كانا على خلاف على دَين، أحدهما يقول: إنّ الآخر استدان منه، والآخر ينكر ذلك، فيذهبان إلى الحاكم الشرعي، الأول يطلب حقه وجاء الآخر وأنكر؛ طبّق الحاكم القاعدة القانونية: «البيّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر»، فقال للمدّعي: هل عندك بيّنة؟ ورقة أخذت عليه؟ لا؛ شهود؟ لا؛ تسجيل صوتي بها؟ لا؛ لا يوجد عنده بيّنة؛ فالتفت إلى الثاني فقال له: تحلف اليمين؟ قام حلف اليمين أنه لم يأخذ منه دَيناً. ماذا يفعل القاضي؟ يرد الدعوى، لأنه لا الأول جاء ببيّنة، ولا الثاني أحجم عن حلف اليمين بالإنكار، أصرّ على الإنكار. هنا، هذان الاثنان، أو على الأقل المدّعي، قام بالشرط الأول ﴿يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ والشرط الثالث ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، أي عندما يخرج المدّعي الذي رُدّت دعواه من عند الحاكم الشرعي يجب أيضاً أن يسلّم، يخرج ويسكت لا يعترض ويشتم

ويقول هذا باطل ولا يجوز وكيف ذلك، إلخ.. نعم، ربما يذهب إلى الآخر فيعظه وينصحه ويقول له كيف تفعل ذلك، ولكن كردّ فعل الحكم في الخارج في المجتمع، يسلّم بالحكم تماماً.

الشرط الثاني هو المهم، من الممكن والكثير من الناس يذهبون إلى القضاء ويسلمون تسليماً في الخارج (ربما لا يملكون غير التسليم كرد فعل) ولكن الشرط الثاني في داخلهم ﴿**لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا**﴾، لماذا؟ لأن ذلك القاضي حكم حسب التوجيهات الشرعية، حسب التعليمات في الشريعة كيف يفعل، أي أنه فعل ما أمره رسول الله صلى الله عليه وآله.

هنا، أنشرها (مُدّ هذا الإطار) على باقي ما يأتي من رسول الله صلى الله عليه وآله. نحن عندما نتشاجر في القضية المذهبية، نحن نقول: إنّ أهل البيت عليهم السلام موقعيتهم ليس فقط عندهم فضل، عندهم موقعية قيادية في الأمة، هم الأئمة في الدين والأئمة في الحكم، والإمامة في الحكم ليست لأجل الحكم وإنما لأجل أن تبسط يدهم في تنفيذ مقتضيات إمامة الدين، فعندما نأتي ونتحاور ونختلف ويدب الشجار مع أخوتنا في الدين، نحتكم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فنذهب إلى ما قاله الرسول صلى الله عليه وآله من تفسير آيات القرآن النازلة في هذه المواضيع وفي حديثه من خارج النص أي المرجعية الرسولية للقرآن من النص وخارج النص ومما أوتي من إلهام ووحي وحكمة بخصوص أهل البيت عليهم السلام، المتوقع أن الإنسان الذي يقتنع حقاً بما نقول يجب ألا يجد حرجاً في نفسه، لأن الله تعالى مقدم على كل شيء، هو عندما يطيع رسول الله صلى الله عليه وآله إنما يطيع الله، ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ**﴾ النساء: ٨٠، والمؤمن عنده الله مقدم على كل شيء،

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله﴾ البقرة:١٦٥. الغاية الأصلية في هذا الذي نقوم به هو من أجل الله تعالى ورضوانه، فيجب أن لا يجد في نفسه حرجاً، ثم في الخارج يسلّم تسليماً، يقول: نعم هذا حق، ما تقولونه حق، أو يقول: والله لم أقتنع لأنـي أجـد كـذا وكـذا، فهـذا ممكـن، أمـا مـع العنـاد واللجاجـة واللـف والـدوران والكذب والتدليس والافتراء؟ كلا، فهذا لم يعمل بمقتضيات هذه الآية.

فما هي النتيجـة؟ **﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ﴾**، لا يوجـد تمييـع فـي القضـية، عندما يكون بين الهدى والضلال، بين أن تكون أنـت مطيعـاً لله ورسـولهﷺ أم لا، وإلاّ ما هو الدين؟ إن لم نطع الله ورسولهﷺ؟

٤ / الآية الرابعة

هذه الآية المباركة **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِينًا﴾** تصف من لا يعمل بها **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ﴾**..

ولا يفوتنك التحديد **﴿لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ﴾**، مزيداً من التأكيد أن هذا يشـمل الجميع الإناث مع الذكور..

﴿إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ لا يوجد مجال، إذا قضى الله ورسولهﷺ أمراً ليس عندك الخيـار تقبـل أو لا تقبـل ــ يجـب أن تقبل، يجب أن تخضع، فأنت عندما تحكّم الرسولﷺ فيمـا شـجر ويقضـي به، لا خيار أمامك إلا بـالقول والتصـديق والقبـول والخضـوع. تعانـد، تـرفض، ناهيك عن الذين يستخدمون الطـرق الدنيئـة فـي ردود الفعـل، هـذا لا يجـوز، مطلقاً. هذا إن كنتَ مؤمناً أو كنتِ مؤمنة حقاً.

فإن لم تفعل ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِينًا﴾ وقعت في خط الضلال، وقعت في الضلال، الضلال الواضح الذي لا تستطيع معه أن تتخفف من التبعات بالقول أن القضية لم تكن واضحة؛ كلا، هذه قضية واضحة، إذا اقتنعت بأي شيء، كما نتحاور مثلاً مع ممن يسمّون أنفسهم القرآنيين، لا نريد الحديث نقول الله تعالى يقول ﴿إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ﴾، ﴿لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾، فإنه ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ النساء: ١٨٠، ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، فلا مجال لهم أن يقولوا: إنّ الرسول صلى الله عليه وآله مات، انتهى، فقط نطيع نص القرآن، وسنقول لهم: الله لا يقبل هذا منكم ولو قلتم ما قلتم ولو أحدكم عبد الله ما شاء الله، لأنه ليس بمزاجه ولا بما يخطط له هو، إنما الله تعالى هو الذي يحدد.

❊

ثانياً / وجوب عدم الصدّ عن الرسول صلى الله عليه وآله

بما يتوجب على المسلمين والمؤمنين في علاقة الطاعة بالرسول صلى الله عليه وآله، في أكثر من إطار:

إطار اختبار الطاعة في قضية تضغط على نفوس المؤمنين والمسلمين، وإطار التحذير من الكفر بعد الإيمان، وإطار تحكيم الرسول صلى الله عليه وآله عند النزاع بين موقفين، وإطار المنع من عصيان الأوامر الصادرة من الله ورسوله صلى الله عليه وآله.

لو نظرنا في هذه الآيات، لوجدنا جامعاً يجمعها، وهو «درجة الإيمان»:

هل يرقى إلى مستوى النجاح من الضغوط النفسية تجاه الأوامر الشرعية

أم لا؟

ثم هي ـ من أجل مساعدة المسلمين على التمسك بإيمانهم وطاعتهم ـ تحذر أشد التحذيرات من المخالفة.

إلا أن هذه الآيات لا تضع عنواناً لمن يعصي الأوامر الرسولية التي ليست في النص القرآني مباشرة، ولكن في البيان الرسولي، أي في السنّة النبويّة الشريفة.

إننا نجد هذا العنوان في الآية المباركة:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ النساء: ٦١.

الآية تأتي بعد الآيتين المباركتين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ۝ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ النساء:٥٩ ـ ٦٠.

إذاً، الآية قيد البحث عبارة عن فضح لموقف الذين يقفون موقفاً رافضاً — وإن لم يفصحوا عنه — للأمر بطاعة (١) الله تعالى (٢) رسولهﷺ (٣) أولي الأمر، كما يفضح موقفهم في أنهم يذهبون في التحاكم إلى الطاغوت وليس إلى ما يحكم الله به ورسولهﷺ. فهو موقف يكشف عن قلوب غير مؤمنة تماماً أو أنها تؤمن ببعض الكتاب وتكفر ببعض، فيمكن أن تقيم الصلاة ولكن

ترفض طاعة الرسول صلى الله عليه وآله في قضية أخرى، أو تصوم الشهر الكريم ولكن ترفض طاعة أولي الأمر الشرعيين عليهم السلام.

هذه الطاعة الواجبة تتضمن الأمرين:

﴿مَا أَنزَلَ اللهُ﴾ وهو «نص» القرآن؛

﴿وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ وهو «البيان الرسولي» للقرآن، في السنّة النبويّة الشريفة.

وعليه، فإن التفريق بين طاعة الله وطاعة الرسول صلى الله عليه وآله، بحيث تطيع الأول وتعصي الثاني، يوقعك في النفاق، لأنك لست مؤمناً واقعاً، لست في حقيقة أمرك. هذه المرجعية لرسول الله صلى الله عليه وآله نجد ما يثبتها ويثبت كيف أن الأوامر كانت تأتي أحياناً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من خارج النص القرآني ثم يأتي النص بعد ذلك بمدة ليكشف عنها، كما في قضية تحويل القبلة، أو يأتي النص القرآني ليؤكد شرعية فعل النبي صلى الله عليه وآله كما في قضية زيد بن حارثة رضي الله عنه.

أخيراً، لم نجده تعالى في الآية يحكم ماذا يفعل معهم، لأنه لا إكراه، ولكن توصيف «الصدّ عن الرسول صلى الله عليه وآله» يوقع في النفاق يعني ترتيب ما نعرفه من جزاء المنافقين في الآخرة.

الآيات الكريمة وآيات الأمة المسلمة

إضافة إلى الذي ذكرته بخصوص آية تحويل القبلة وكيف أنها مربوطة مع الآيات، نأتي إلى الآيات الثلاث الأُخَر، فهي ما بين:

واحدة تحذّر من الكفر بعد الإيمان، وهذه نجدها أصدق ما تكون في البقاء على الإسلام ولكن مع رفض ما لا يحب من يقول أنا مسلم، مما نجده ـ مع

الأسف ـ في الكثيرين، تجده يقول أنا مسلم ولكن أرفض الحكم الشرعي الفلاني، أنا مسلم ولكنني أجد في نفسي شيء من هذا الكلام الشرعي ، إذ ماذا يعني في نفسه شيء منه وهو يعلم أن النفس أمّارة بالسوء، أو يقول: إنني لا أجده منطقياً وهو يعلم أن عقله محدود؛ أكثر من هذا، البعض لم يقم حتى بدراسة بحث في الموضوع لكنه انتهى إلى رفضه! قضية مزاجية لما في داخله... وهذه خطيرة.

وآية أخرى تدعونا إلى الاحتكام إلى الرسولصَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، أي إلى سنّته في القول، أي قال كذا، وفي الفعل، أي فعل كذا، وفي التقرير، أي أن ناساً فعلوا أو قالوا فأقرّهم عليه، قولٌ وفعلٌ وتقرير؛ أن نحتكم إلى الرسولصَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ في كل نزاع، على أي شيء، ومنه وفي مقدمته مشكلة الإمامة التي لم تزل تفعل فعلها في الأمة. نسأل: ماذا يحكم الرسول في هذا؟ يجب أن ننظر!

والآية الرابعة تقول لنا أنه في مقام البحث أو النزاع لا يوجد هامش حرية في التعامل مع قضاء الله ورسولهصَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، فمن ينازع فقط سقط في الضلال المبين.

فهذه الآيات كلها، ومثيلاتها، تصرخ بالمسلم معلنةً صادحةً صادعةً مدوّية أنه ما يجب عليه هنا مع الرسولصَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ يجب عليه مع العترة الطاهرةعَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ؛ لماذا؟

لأن الرسولصَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ هو المبعوث في تلك العترة الطاهرةعَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ لأنهم هؤلاء الصفوة الأطهار الأبرار، الرسول المبعوث فيهم والأمة المسلمة في دعاء إبراهيم وإسماعيلعَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ هم الذين وصلوا إلى المستوى الأعلى في الإسلام

الذي يطلبه إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام على عظمتهما وعلى ما هما عليه ولاسيما إبراهيم ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ بعد كل هذا ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ البقرة:١٢٨، ثم ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ البقرة:١٢٩، هؤلاء على هذا المستوى من غير المعقول أن يكونوا رعيةً لغيرهم، من غير المعقول أن يجلسوا تلاميذ عند غيرهم، هذا لا يحصل، هذا لا يكون.

وأما آية «الصدّ عن الرسولصلى الله عليه وآله» فإنها واضحة في الربط بالأمة المسلمةعليهم السلام من ناحيتين:

الأولى / لعموم وجوب طاعة الرسولصلى الله عليه وآله ومنع الصدّ عن أمره، ومن ضمن أمره ما أمر به من طاعة الأمة المسلمة من أهل بيتهعليهم السلام، وذلك في أحاديث صحيحة، وبعضها متواترة، عديدة؛

الثانية / لارتباط الآية المباركة بما قبلها بآيتين والتي تذكر «طاعة أولي الأمر» والتي أثبتنا أنهم أفراد الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام (راجع الفصل ٢٤ آيتا أولي الأمر).

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

القسم الرابع
الآيات الرئيسيّة
في الأمة المسلمة

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

الفصل الثامن عشر
آية التطهير

هذا الفصل هو أول فصل من ثمانية عشر (١٨) فصلاً تتناول فهم آيات مباركة عديدة في إطار «الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام». في كل فصل نتناول الآية وأكثر التي تتمحور حول العترة الهادية من آل محمد صلى الله عليه وآله، ولكن بما نفهمه من النص القرآني لغةً، أيضاً كيف كانت تزكية الرسول صلى الله عليه وآله لهم بالبيان الرسولي كما أوضحنا في القسم الأول من البحث، ما محصله:

أن دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ البقرة:١٢٩، أي من الأمة المسلمة من ذريتهما عليهما السلام، ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ ثم ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ البقرة:١٢٨ أي يزكيهم إلى الناس، لأن التزكية هنا جاءت «بعد» تعليم الكتاب، فلم يحتاجوا إلى التزكية من الشرك كما في الآيات الثلاث الأخرى المشابهة التي في الأمّيّين أو في المؤمنين أو في المسلمين، والتي فيها يتلو الرسول صلى الله عليه وآله عليهم -الأمّيّين والمؤمنين والمسلمين- آياته تعالى ويزكيهم من الشرك بدخولهم الإسلام «ثم» يعلمهم الكتاب والحكمة؛ في حين أن الأمة المسلمة هنا لا تحتاج إلى هذا، فالتزكية في آخر الدعاء هي ليزكيهم إلى الناس أي يطلقهم إلى الناس أن هؤلاء أنا أزكيهم فقد زكوا من الشرك زكوا من النقص زكوا من العيب لكي يكونوا

هم الأمة الهادية.

(راجع القسم الثاني، الفصل الثالث.)

في هذه الآية، كما في الآيات الأخريات في الفصول القادمة، نذكر أي اعتراض اعتُرض على هذا الفهم الذي نفهمه، ونناقشه، كما نلفت إلى أي ربط مع آيات الأمة المسلمة الذي نعتمد فهمنا لها في هذه الآيات جميعها.

نص الآية

هي جزء من الآية ٣٣ من سورة الأحزاب ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

لغةً، ﴿إِنَّمَا﴾ يستخدمها القرآن أحياناً للحصر الحقيقي وأحياناً للمبالغة. أما الحصر فمثلاً ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ واحِدٌ﴾ النحل:٥١، فهذه ليست مبالغة فليس هناك بالفعل غير إله واحد فقط؛ وأما الاستخدام للمبالغة فمثلاً ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ سبأ:٤٦، يقول له: قل لهم أعظكم بواحدة، والحقيقة يريد أن يعظهم بأكثر،و لكن لشدة أهمية الموعظة هنا فكأنما لا يريد إلا هذه الموعظة.

هنا كذلك، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ﴾، يريد شيئاً واحداً فقط؟ الله تعالى يريد الكثير، لكنه يريد أن ينبه إلى أهمية هذه الإرادة. فماذا يريد؟ يريد ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾، يذهب «عَنْكُم» وليس يذهب مِنكم، فلو قال يذهب منكم سنقول: إنّ الرجس موجود فيهم ثم يذهبه منهم، ولكن ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُم﴾ أي أن الرجس إذا أراد أن يتعرض عليكم فهو يذهبه عنكم أصلاً.

﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ الذين هم في البيت (سنتعرض إليه بعد قليل).

﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، هنا لو أنه قال التطهير فقط وسكت لكان يمكن أن

يكون التطهير بمعان أخرى، مثلاً بمعنى مجازي يطهركم مثلاً من سوء القول أو من ذنب الناس أو مثلاً من أن تقعوا في اشتباه، ولكن عندما قال ﴿**يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾، استعمل تطهيراً فإن هذا مفعول مطلق، يؤتى به لتأكيد الفعل، كما في قوله ﴿**وَيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيْراً**﴾ يؤكد ذلك. نعم، يطهركم أنتم، يطهر ذواتكم، فإذا طهر هذه الذوات فأصبحت بريئة من العيب، والعيب بأنواعه بنوعيه الأساسيين الشرك والجهل... هذا من اللغة.

تزكيتهم عليهم السلام إلى الناس

الآن كيف قام النبي صلى الله عليه وآله بتزكيتهم إلى الناس ﴿**وَيُزَكِّيهِمْ**﴾؟ الأمة الذرية المسلمة التي هي علي وفاطمة وأولادهما الأئمة عليهم السلام حسب الفهم الذي قدمناه، تزكية الرسول صلى الله عليه وآله من أين نعرفها ونفهمها؟ من البيان الرسولي (الذي تعلنه آيات الطاعة الرسولية ﴿**أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾ محمد:٣٣ التي قدمناها من قبل).

عُرفاً واصطلاحاً، «أهل البيت» هم جميع من في البيت، جميع من في بيت الإنسان أهل البيت، حتى قيل أنه الخادم والضيف عندما يكون موجوداً؛ فهل جاء البيان الرسولي مطابقاً للمعنى العرفي والاصطلاحي أم لا؟ البيان الرسولي هنا غاية في الأهمية لأن شطر الآية موضوع البحث جاء في آية وسياق آيات مباركات تتحدث مع وعن نساء النبي صلى الله عليه وآله، أي ضمن آيات الحديث مع نساء النبي اللواتي يقعن ضمن أهل البيت عرفاً ـ فهل أن كلمة ﴿**أَهْلَ الْبَيْتِ**﴾ هنا تشمل «جميع» من في البيت؟

جاء البيان الرسولي بالقول وبالفعل. أما بالقول فإنه صلى الله عليه وآله قال بوضوح

هؤلاء أهْلُ بيتي. وبالفعل، فإنه صلى الله عليه وآله جمع علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام تحت عباءة أو كساء خيبري في بيت أم سلمة رضي الله عنها وقال: «اللّهُمَّ إنَّ هؤلاءِ أهْلُ بَيتِي» وقرأ شطر الآية المباركة؛ وعندما أرادت أم سلمة أن تدخل معهم جذب النبي صلى الله عليه وآله الرداء فقالت: «ألستُ من أهل البيت؟» قال صلى الله عليه وآله: «إنك من أزواج النبي» (مسند الإمام أحمد ج٦، ص٣٢٣، وتفسير الثعلبي) ـ إذاً إنك من أهل البيت بالمصطلح اللغوي والعرفي، ولكن بالمصطلح الشرعي في هذه الآية أنتِ من أزواج النبي ولستِ من أهل البيت، من أهل البيت هذا، في هذه الآية (راجع بيان زيد بن أرقم رضي الله عنه في صحيح مسلم رواية ٤٤٢٥). إذاً هؤلاء الذين أذهب الله عنهم الرجس ويطهرهم تطهيراً هم هؤلاء فقط، فهذا البيان الرسولي بالقول وبالفعل.

واستمر قوله وفعله صلى الله عليه وآله ستة أو سبعة أو تسعة أشهر (على اختلاف الروايات)، يقف صلى الله عليه وآله يومياً وقت صلاة الفجر بعد أن يخرج من بيته قبل أن يذهب إلى المسجد يقف على باب علي وفاطمة عليهما السلام وهو ملاصق لبيته فيقول صلى الله عليه وآله بصوت مسموع: «الصلاة يا أهل البيت» ثم يقرأ الآية **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾** (مسند الإمام أحمد ج٣، ص٢٥٣)، في بيان مستفيض من أجل أن يسمعه الجميع كل يوم فلا يبقى في ذلك ريب لمرتاب أو شبهة لمشتبه أو تكلف لمتكلف، أو كذب لمن يريد أن يكذب.

إعتراض مناوئ

مع ذلك تعرض هذا البيت الطاهر إلى ما تعرض إليه مما نعلم، فهناك من

يعترض بالقول ـ وهذا من أهم الاعتراضات، بل لعله الاعتراض الحقيقي الوحيد ـ أن هذه الآيات في سياق آيات النساء، فإذاً هي موجهة بالأصل إلى زوجات النبيﷺ، وهذا الفعل من رسول اللهﷺ إنما كان ليضم علياً وفاطمة والحسنينعليهم السلام، أي أن الزوجات قضية مفروغ منها وبالتالي فلا يجوز القول: إنّ هذه الآية فقط في هؤلاءعليهم السلام.

نجيب على هذا:

أولاً: في الإطار العام، الذي سيكون هو الإطار الذي سنذكّر به في جميع هذه الآيات، كما ذكرنا في منهج البحوث هذه وهو البيان الرسولي...

رسول الله، الله تعالى قال **﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾** النحل:٤٤، هو الذي يعلم وليس غيره، فلان قال والمفسر الفلاني قال والمحدث الفلاني قال، حتى صحابي فلاني قال، ما قاله الرسولﷺ هو الذي يعتمد، ثم لا يبقى لمسلم حق أو مجال للاعتراض، **﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ﴾** لا يؤمنون **﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾** النساء:٦٥، يحكموك أنت فيما شجر بينهم. إذاً، نحن نقول كذا وهم يقولون قولاً آخر، كيف نصنع؟ نذهب إلى رسول اللهﷺ، ذهبنا إلى رسول اللهﷺ، وعندما يحكم الرسولﷺ يجب أن نسلّم تسليماً في الخارج **﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾**، نقول سمعنا وأطعنا، لا نبقى على العناد والمجادلة، المهم في داخل نفوسنا، **﴿لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾** ، في داخلنا نحن نقبل ذلك، ولا نعاند، وإلاّ فإن هناك خللاً في الإيمان **﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ﴾**. البيان الرسولي واضح، إذ لو أن نساء النبيﷺ كُنّ داخلات لما

جذب صلى الله عليه وآله الرداء عندما أرادت أم سلمة رضي الله عنها أن تدخل داخل الكساء. ولعله مـن توفيـق الله، مـن عمـل الله تعـالى، أو مـن ذكـاء رسـول الله صلى الله عليه وآله، أن جمعهم عليهم السلام تحت الكساء وقرأ الآية في بيت أم سلمة رضي الله عنها، مختاراً الزوجة التي ستبقى على العهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله حتى وفاتها، أن خضعت وبخعت وأطاعت ولم تبدل تبديلاً رضي الله عنها.

الأمر الثاني الذي يجاب به عليه: أن ما نفهمه هنا من ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ لا يمكن أن يصدر من عندهم الخطأ أو الشرك، بينما يقول بشأن عموم الزوجات ﴿عَسَى إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ﴾ التحريم:٥ ، في الأمة الإسلامية في المجتمع يوجد خير منهن مؤمنات عابدات قانتات. والأهم من هذا في سورة التحريم، هناك تهديد عظيم لاثنتين من زوجات النبي صلى الله عليه وآله وهما عائشة وحفصة، تهددهما الآيات تهديداً عظيماً، بعد التوكيد على أنهما قد زاغتا عن الحق، ﴿إِنْ تَتُوبا إِلى الله فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما﴾ أي مالت وانحرفت؛ فإذا مالت القلوب وانحرفت، فأي تطهير هذا إذاً؟! الذي يُطَهَّرُ تطهيراً لا يمكن أن يميل قلبه يميناً أو شمالاً، بل يبقى على الصراط المستقيم. ثم يقول ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ إذا بقيتما تتآمران على رسول الله، ما يعني أن الاحتمال قائم فيحضر لهما جيش لم يهدد به أحداً من الخلق، ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ﴾ التحريم:٤، ملايين الملائكة، كلهم، هذا لا يحتاج من أجل امرأتين لولا أن القضية قضية مهمة جداً، والمجال لا يسع لتفصيل ذلك وليس هذا هو الموضوع، ولكن نقول: إنّ هذه الإرادة الإلهية في إذهاب الرجس وفي

التطهير لا يمكن أن تكون شاملة لزوجات النبيﷺ، دع عنك عن الذي يقول: إنّها في الأزواج خاصة. (راجع بيان زيد بن أرقم رضي الله عنه في صحيح مسلم رواية ٤٤٢٥.)

الآية المباركة وآيات الأمة المسلمة

كما قلنا فإن الأمة المسلمة هي المسلّمة تسليماً كاملاً، التي دعا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام على عظمتهما وبعد جميع المراحل لاسيما التي مر بها إبراهيم شيخ الأنبياء عليه السلام دعا ﴿إِجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ البقرة:١٢٨، إلى هذه الدرجة من الإسلام، هذه الدرجة من الإسلام التي هي القمة في التسليم لله هذه يناسبها أن لا تكون هناك أي شائبة من الرجس، بل طهارة كاملة من الشرك وطهارة كاملة من الجهل، وبالتالي يمثّل هؤلاء عليهم السلام الأمة المسلمة بهذه المواصفات والأمة المسلمة في موقعيتها التي زكاها رسول اللهﷺ بعد أن علّمها زكّاها إلى الناس كأعلام هداية.

*

بعض مصادر البحث

فيما يلي ذكر بعض مصادر الروايات التفسيرية أو آراء المفسرين، سواء المؤيدة لما ذهبت إليه أو المخالفة له أو المعارضة له، التي تضمنها البحث أعلاه:

- تفسير الثعلبي وغيره من المفسرين
- مسند أحمد بن حنبل ج٣ ص٢٥٩، ج٤ ص١٠٧، ج٦ ص٢٩٦، ج٦

ص٣٢٣

- صحيح مسلم رواية ٤٤٢٥.

الفصل التاسع عشر
آية الولاية

الآية الشهيرة الأخرى التي تخص الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام اسمها آية الولاية.

نص الآية

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ المائدة:٥٥.

ماذا تقول اللغة؟

أولاً، كما في آية التطهير، هناك أداة الحصر «إنّما». هنا تقول ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ﴾ أي «فقط وليكم»، هنا أيضاً فيها شيء من المبالغة إذا قلنا أنه فعلاً بهذا الحصر، فقط الولي هو الله ورسوله والذين آمنوا، على اعتبار أن هناك ولاية عامة بين المؤمنين ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ التوبة:٧١؛ كما أننا نعتقد بولاية ليس فقط المشخَّص في الذين آمنوا هنا، الذي قام بهذا الفعل (فعل إيتاء الزكاة بهذه الكيفية)، وإنما في الذرية الأمة المسلمة من الأئمة الأطهار. فمعنى الولاية هنا، الولاية التي تكون لها أسبقية على ولاية الإنسان لنفسه، أي ليست مثل ولاية ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، هذه الولاية هي من نوع ولاية رسول الله صلى الله عليه وآله، لأنه ولي الله ورسوله الذين آمنوا

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ الأحزاب:٦، عند النبي صلى الله عليه وآله ولاية أعلى من ولاية الإنسان المؤمن على نفسه، أي أنه صلى الله عليه وآله يستطيع أن يأمرك بأمر فيه هلاكك ويجب عليك التنفيذ، لأن التهلكة التي لا يجوز لك أن توقع نفسك فيها للنبي صلى الله عليه وآله الحق بأمر الله تعالى أن يأمرك بها، فلا تكن قد أوقعت نفسك في الهلاك لأنه لا رأي لك هنا، إذ أن ولايته أعلى من ولايتك على نفسك.

فاللغة تقول إذاً ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ﴾، فمن هو وليّكم؟ طبعاً هو الله تعالى، هو الولي، هو المولى، هو المالك، هو المسيطر، هو الذي له الخلق والأمر وكل شيء؛ ورسوله صلى الله عليه وآله، كما قلنا ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، فهو الولي، هو الذي يتولى ويتصرف في أموركم...

ثم في ﴿الَّذِينَ آَمَنُوا﴾. هنا، لو سكت يصبح الكلام غير مفهوم، لأن مصطلح «الذين آمنوا» غالباً ما يعني في القرآن المسلمين الذين دخلوا الإسلام (أعلنوا أنهم آمنوا)، (غالباً يفرّق بينهم وبين الذين تمثّلوا حقيقة الإيمان من ضمنهم بكلمة «المؤمنين»)؛ فلو قال ﴿والَّذِينَ آَمَنُوا﴾ وسكت فإن الكلام موجه أصلاً إلى الذين آمنوا، فما معنى القول «إنما وليكم أنتم أنفسكم»؟! لهذا لم يسكت، الآية نزلت تقول ﴿وَالَّذِينَ آَمَنُوا الَّذِينَ﴾؛ فمن هم ﴿الَّذِينَ﴾؟ هنا يأتي البَدَل في اللغة:

بدلاً من أن يقول مباشرة ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَ....... الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ جاء بوصف عام للأولياء ﴿وَالَّذِينَ آَمَنُوا﴾ ثم جاء بالتفصيل التشخيصي ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (ليكون البدل).

نفهم منها أن «هؤلاء الأولياء هم الذين يقيمون الصلاة المعروفة ويؤتون الزكاة زكاة المال المعروفة وهم راكعون».

هنا إما: يؤتون الزكاة وهم مصلّون راكعون «عموماً»، فهذه لا معنى لها لأن الركوع هو جزء لا يتجزأ من الصلاة. فلا يتبقى إلا الاحتمال الثاني، وهو أن ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ مرتبطة بـ ﴿يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾.

وفي هذه احتمالان: إما أن «ويؤتون الزكاة وهم راكعون» أو أن ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ تعني «يؤتون الزكاة في حالة الركوع».

أما الأول ـ إذا قلنا «وهم راكعون» صفة أخرى منفصلة عن إيتاء الزكاة، صار عندنا أن هؤلاء الذين آمنوا الذين لهم ولاية بعد ولاية الله ورسوله صلى الله عليه وآله هم الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم دائماً راكعون كأنما عمرهم كله هو وهم راكعون، وهذا مستحيل عقلاً. فإن قيل أن المقصود من الركوع هو الخضوع لله تعالى، قلنا أن الأشد خضوعاً والأعلى عبودية لله هو السجود، فكان قال وهم ساجدون، لأنك تبين الخضوع الأكبر عندما تنزل وتضع جبهتك على الأرض، كأنك تخاطب الله تعالى أنني أضع جبهتي على أوطأ نقطة اعترافاً بعلوّك، لذلك قيل: إن أقرب ما يكون العبد إلى الله في السجود. إذاً، من غير المعقول أن تكون هذه الصفة للولاية ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ يعني في حالة الركوع الدائم، فأن هذا الولي الذي يجب أن يكون راكعاً على طول الخط، متى يصلي؟ متى يؤتي الزكاة؟ وعليه، لا يمكن أن تكون ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ مفصولة عن ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قبلها، بل لا بد وأن تكون مربوطة بها.

هذا هو المعنى المفهوم.

التزكية إلى الأمة

الآن، كيف قام النبي صلى الله عليه وآله بتزكية الأمة المسلمة عليهم السلام من خلال بيانه الرسولي؟

وردت روايات أنه صلى الله عليه وآله عندما كان المسلمون في المسجد النبوي وهم في حالة الصلاة، صلاة النافلة فيصلون فرادى، دخل سائل فسأل فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله بدعاء فتحقق الدعاء على يد علي عليه السلام؛ حيث أنه في اللحظة التي كان هذا السائل يمر بين الصفوف ويسأل الناس المساعدة كان علي عليه السلام في حالة الركوع، فما الذي يفعل؟ مد عليه السلام يده الكريمة، وبيده خاتم، فأشار إلى هذا السائل ففهم ذاك أن انزعه مني، فانتزعه منه، فأعطى عليه السلام الزكاة وهو راكع.

اعتراضات

الآن هناك من يعترض، كالعادة عندما تأتي القضية إلى علي عليه السلام!

أول اعتراض أن الكلام بصفة الجمع وأنتم تقولون أنه فقط علي عليه السلام الذي تصدق بالخاتم ـ كيف؟ هذا الاعتراض مردود لأنه يمكن أن يُعبّر عن الفرد بالجمع ـ قالوا: إنّه يمكن أن يعبر بالجمع للتفخيم، كما ورد في القرآن في كلام المولى عز وجل عندما جاء فيه مثلاً **﴿وَلَقَد نادانا نُوحٌ فَلَنِعْم الْمُجِيبُون﴾**، لم يقل فلنعم المجيب، بل **﴿الْمُجِيبُون﴾** للتفخيم. حتى في حالة الناس، فإن القرآن الكريم عبّر أيضاً عن الفرد بصيغة الجمع، ومن أشهر الآيات آية **﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾** آل عمران:١٧٣، والتي رووا نزولها في نعيم بن مسعود

الأشجعي الذي جاء وحذر رسول الله صلى الله عليه وآله أن اليهود سيغدرون به بالاتفاق مع قريش التي كانت قد جاءت مع الأحزاب لحصار المدينة في واقعة الأحزاب، جاء وقال له يا رسول الله إني قد أسلمت، لكني لم أعلن إسلامي لحد الآن، فلا يزالون يعتقدون أنني مشرك، فهل أقوم يمكن أن أقوم بخداعهم، أي أن أوقع بينهم فلا يحصل إتفاق عليك؟ وافق النبي صلى الله عليه وآله وقال أن الحرب خدعة. فالذين قال لهم الناس، الذين يعني رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو مفرد، الناس هو نعيم بن مسعود وحده. فإذاً يعبر عن المفرد بالجمع.

الاعتراض الثاني أنه كيف تقولون أن علياً عليه السلام يكون خاشعاً في الصلاة لا يستطيع أن يشعر بشيء فكيف سمع السائل؟ هذا الاعتراض نستطيع أن نصفه أنه اعتراض سخيف:

فأولاً: لم نقل أن علياً عليه السلام في جميع أحواله كان يذهل ولا يدري بما حوله، فلم يقل أحد ذلك؛

ثانياً: أن القضية من الأهمية، الله تعالى يريد أن يوصل إلى الناس موقعية علي عليه السلام بطرق مختلفة علماً منه تعالى بالمؤامرات ضد ذلك، فكان من ضمن خطته تعالى هذه الأمور، إذ ليس هناك صدفة عند الله تعالى، فكيف بأهم قضية وهي ولاية الدين؟ فجعل ذلك السائل يدخل ويطلب ويسأل فيعطيه علي عليه السلام فتنزل الآية لتكون بطريق لا يمكن أن تُنسب إلى غيره من الوضوح، هذا الأمر من الأهمية أكبر بكثير من أن الإشكال كيف سمع علي عليه السلام هذا وكيف انتبه إليه، انتبه إليه بكل سهولة.

أخيراً نقول: إنّ هناك اعتراضاً، بل هو تفسير مغاير منحرف في الواقع،

وهو ما رددناه عندما نظرنا في لغة الآية. يقولون: إن المعنى ليس كما ذهبتم، المعنى أن الولاية لله ولرسوله والذين آمنوا الذي يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، يعني ليس بالضرورة فقط علي عليه السلام، هذا معناه أنهم يعطون الزكاة وهم راكعون أي خاضعون، ويعطون الزكاة وهم راكعون فعلاً.

وهذا رددناه فيما سبق، كما نقول: إنّ هذا ينبغي أن يقول «وهو طائع وهو خاضع وهو صادق» ولا يقول وهو راكع؛ ثانياً إذا صارت هناك ولاية بكل إنسان يركع ويعطي الخاتم، فإن أي شخص يستطيع أن يتفق مع شخص آخر أنه عندما يصلي في المسجد يأتي الآخر ويصل إلى جانب الأول عندما يكون راكعاً، يطيل الركوع لا بأس، فيطلب المساعدة فيشير الآخر باليد ليأخذ منه الخاتم، ليكون ولي الناس بعد الله ورسوله!

هذه الاعتراضات وهذه التفسيرات المنحرفة لا يمكن أن تسقط الحق، الله تعالى له الحجة البالغة، ولذلك هذه كلها لا يمكن أن تكون.

الآية المباركة وآيات الأمة المسلمة

هنا أيضاً نجد أن هذه الأمة المسلمة عندما يزكيها رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الناس، بعد أن يعلمها الكتاب والحكمة، هي التي ستكون الجماعة الوحيدة التي على هذه المواصفات أنها لم تشرك بالله طرفة عين ثم جاء التعليم الكتاب والحكمة، عندما يطلقها رسول الله صلى الله عليه وآله هذه هي التي دون غيرها تستحق الولاية العامة بعد ولاية الله ورسوله صلى الله عليه وآله، وليست الولاية الخاصة بين المؤمنين، أو ولاية الجد على الأولاد إذا مات الأب، أو ولاية فلان على ذلك؛ هذه الأمة الذرية المسلمة هي هكذا.

فإن شئت أن تنسب القول أن هذه الولاية بسبب أنها الذرية الأمة المسلمة في أعلى درجات الإسلام، لك ذلك، وإن شئت قلت أن هذه الجماعة هي في أعلى درجات الإسلام وإلا لما كان الله أعطاها الولاية، لك ذلك أيضاً.

❊

بعض مصادر البحث

فيما يلي ذكر بعض مصادر الروايات التفسيرية أو آراء المفسرين، سواء المؤيدة لما ذهبت إليه أو المخالفة له أو المعارضة له، التي تضمنها البحث أعلاه:

- تفسير الكشاف للزمخشري ص٤٢٢
- التفسير الكبير للرازي ج١٢ ص٢٣.
- تفسير روح المعاني للآلوسي ج٦ ص١٨٦
- الدرّ المنثور للسيوطي مجلد٢ ص٢٩٣
- وأخرج مثله الطبراني في الأوسط وابن أبي حاتم وابن عساكر في تاريخ دمشق.

الفصل العشرون
آية المودة

آية شهيرة جداً من آيات الكتاب العزيز التي تتعلق بكيفية التعامل المطلوب مع الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

نص الآية

النص المشهور يمثل الجزء الأكبر من الآية ٢٣ من سورة الشورى:

﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

والجزء قبلها **﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** (البشارة وردت في الآية ٢٢ قبلها والتي قبلها **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾** بشرى لمن يفعّل آية المودة).

لكن الكلام هنا في اختصار الآية:

﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾.

ما تقوله اللغة

يبدأ الكلام باستعمال هذه الكلمة المهمة جداً في القرآن وهي **﴿قُلْ﴾**، كثرما استخدم القرآن كلمة **﴿قُلْ﴾**، وذلك:

أحياناً لكي ينبه إلى أن القرآن هو ليس من عند رسول الله صلى الله عليه وآله، لأنه الرسول سيأتي إليه ويقول إقرأ ﴿قُلْ﴾، تأكيد بين حين وآخر، ولو كان من عنده لما كان يقول قل لنفسه.

كما تأتي أحياناً لتأكيد وتشديد وحث على القضية، مثلاً (قُلْ إنما أعظكم بواحدة) سبأ:٤٦، قُل لهم؛

وأحياناً أخرى تأتي من أجل تبرئة ساحة النبي صلى الله عليه وآله أن يكون قوله لفائدة نفسه ـ ولا يتعجب أحد من ذلك، فقد كان بعض المسلمين هكذا، كان البعض يقول أنه صلى الله عليه وآله ـ من خلال ما يقرأه عليهم ـ إنما يجامل قراباته، فلذلك تأتي ﴿قُلْ﴾ لكي تبرأ ساحته من هذا، أن الله تعالى يقول له ﴿قُلْ﴾، أنه لولا الله تعالى لما طلب إليه هذا الطلب.

﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، ﴿عَلَيْهِ﴾ بإجماع المفسرين أنه «على تبليغ الرسالة»، أي ضمير الغائب «الهاء» هنا لم يقل أحد أنه صلى الله عليه وآله مثلاً وزع عليهم طعاماً أو ما يشبهه فيسأل عليه أجراً، وإنما هي على أهم قضية وهي تبليغ الرسالة، أهم قضية وأكبر نعمة عند أي مسلم وهي نعمة الإسلام؛ فبالتالي الذي جاءه بهذه النعمة من عند ربه هو لا يطلب أجراً.

(عندنا آيات أخرى أنه ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الشعراء:١٠٩، أي لا أطلب منكم أجراً، كل الأنبياء عليهم السلام يقولون ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾ سبأ:٤٧ أو ﴿عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الشعراء:١٠٩، هنا يقول: أنا لا أسألكم عليه أجراً ، لا أسألكم أجراً على التبليغ مثلاً أن تدفعوا لي مالاً أو أن تنصّبوني منصباً أو غير ذلك).

فما هو الذي أطلبه منكم، ﴿لا أَسْأَلُكُمْ ... إِلاَّ﴾، «لا.. إلا» يعني فقط، فقط ﴿الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ ـ المودة من التودد والحب، مع اختلاف في الألفاظ أيهما أقوى، ولكن عموماً المودة هي مشاعر الحب تجاه موضع المودة، تجاه المودود.

و﴿الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ هذه أيضاً مهمة لأن فيها عدة اعتراضات.

فإذاً نفهم من اللغة أنه أنا لا أسألكم شيئاً من الأجر على التبليغ، ولكن فقط المودة في القربى.

لهذا التعبير ﴿فِي الْقُرْبَى﴾ جاؤوا بوجوه ستة للتفسير، للمعنى، سأذكرها بسرعة ـ بعد فقرة «التزكية إلى الأمة» ـ من أجل الجواب على الاعتراض على فهمنا (والذي يتوافق فيه معنا بعض مفسري وعلماء أهل الخلاف).

التزكية إلى الأمة

فتزكية الرسول للذرية الأمة المسلمة، من خلال البيان الرسولي، ستكون من ضمن عموم الأفعال والأقوال النبوية في هذا الشأن، إضافة إلى الأحاديث. هنا نتكلم فقط في هذه الوجوه الستة ونناقشها. ولا ننسى السيرة، سيرة المسلمين في الفهم السائد وإلى اليوم، أن الذين طُلب لهم الأجر في القربى هم أهل البيت في المصطلح في آية التطهير، علي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ولدهم عليهم السلام.

قبل ذكر البدائل التي جاؤوا بها، هناك محاولة للالتفاف حول المعنى بأن قالوا:

لو أن القضية هي لقربى النبي صلى الله عليه وآله لكان الكلام هو المودة للقربى

(وليس في القربى)، أي أن توجّهوا المودة لهم، وليس فيهم.

هذا الاعتراض مردود لأن الكلام هو المودة في القربى أي أنه أحد أمرين:

إما أن تقول أن «المودة في القربى يعني في موضوع القربى».

أو أن تقول أن «المودة تجعلها فيهم، أي أنهم يكونون موضعاً للمودة، أو ضع مودتك فيهم».

وعليه، فإن هذه المحاولة للهروب من المعنى لا تجدي نفعاً.

الوجوه الستة لتفسير «القربى».

نورد هذه الوجوه على عجالة، وكل واحد نظهر كيف أنهم ردوه:

• الوجه الأول هو تفسير إبن عباس أصلاً وليس من النبي صلى الله عليه وآله قال أن النبي كان له قرابة في قريش في جميع بطون قريش فهو يقول لهم: صِلوا ما بيني وبين القرابة يعني هو خطاب لقريش قل لا أسألكم، من هؤلاء؟ هم قريش فقط، أنه أنتم قرابتي لا تؤذوني!

لا شك في أن هذا الكلام باطل لأنهم لم يؤمنوا به، لأن الكلام إذا كان مع غير المؤمنين، مع الكافرين منهم، هم لم يؤمنوا به أصلاً فكيف يطلب منهم أجراً على شيء هم ردوه، سيقولون له: أي أجر تطلبه منا أن نعطيك؟! أنت لم تعطنا شيء، نحن لم نأخذ منك شيء كي تطلب منا الأجر! إذاً هذا الوجه باطل. وهذا وجه مهم عندهم، هذا الوجه الذي يقولون به مع الوجه السادس الصحيح.

• الوجه الثاني يقولون هو مشابه ولكن الخطاب للأنصار، أي أيضاً أنتم المودة لي لأن قربتي منكم، أي على أساس القربى من إحدى الجهات النَّسَبيّة.

وهذا باطل لأن الأنصار رضي الله عنهم معروف أنهم كانوا يحبون النبي صلى الله عليه وآله حباً جمّاً فما معنى أن يطلب منهم؟ فكأنما هم يحبونه دون أن يكون هناك حاجة لطلب الله تعالى أو لطلبه بأمر الله تعالى.

• الوجه الثالث أن الخطاب لقريش ولكن المودة للنبي صلى الله عليه وآله، أي أنا ما أسألكم شيئاً لكن محبتي لكم هي التي تدفعني لأن أدعوكم وأهديكم.

وهذا ضعيف، بل واضح الضعف وهو باطل، لأن النبي صلى الله عليه وآله لا يركز في دعوته إلى الهدى على أساس القرابة **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾** قريش وغيرها، يعني لا يقول لأنكم قرابتي فأنا أقوم بالواجب؛ فهذا باطل.

• الوجه الرابع أن المودة لقرابة المخاطبين يعني يقول لهم أنا لا أسألكم، أنتم إذا أردتم أن تدفعوا لي أجراً على تبليغي فأنا أطلب منكم أن تقوموا بمودة قرباكم، يعني علاقتكم بقرباكم تكون علاقة المحبة والمودة.

وهذا باطل أيضاً، لأنه إذا كان هؤلاء القربى من الأرحام من المؤمنين فهذا يحث عليه بكل الأحوال ومع ذلك هذا لا يجب عليك أصلاً؛ وثانياً أنه يمكن أن يكون من الكافرين والمنافقين، فكيف يقول لهم تدفعوا علي الأجر على التبليغ بأن تودوا الكافرين والمنافقين لمجرد أنهم قرباكم؟!

• الوجه الخامس أن القربى لا تعني القربى من الرحم وإنما يعني التّقرُّب، أي أنا أطلب منكم المودة في التقرب إلى الله في العبادات.

وهو باطل، لأنه إذا كان هؤلاء منافقين مشركين فهو يعلم أنهم لن يتقربوا بالعبادات لأنهم أصلاً غير مسلمين فلا يطلب منهم عبادات، وإذا كانوا من المؤمنين فإن هذا من صميم دعوته أصلاً ومن صميم عملهم أصلاً، أن يتعبّدوا

لله من صميم علاقتهم به عز وجل؛ هذا إضافة إلى أن معنى التودد في العبادات والتقرب بالعبادات ليس صحيحاً.

هذه هي الوجوه الخمسة الأولى، المخالفة للوجه السادس الباقي...

● بقي الوجه السادس وهو عليه إجماع جميع علماء الشيعة وربما الأكثر من علماء أهل السنّة وهو أن المودة هي قرابة أهل النبي صلى الله عليه وآله وهم عترته من أهل بيته عليهم السلام (الذين نعرفهم من التحديد النبوي القاطع أنهم علي وفاطمة وأولادهما الأئمة عليهم السلام، فإن العترة حددها النبي صلى الله عليه وآله في حديث الثقلين عندما قال «وعترتي أهل بيتي»).

فيكون المعنى:

إنني لا أسألكم أجراً على تبليغي إياكم الإسلام إلا أن تودوا قرابتي.

وهذا هو الصحيح الوحيد...

وللدليل القاطع عليه هناك طريقتان:

ـ الأولى تنفي البدائل ولا يبقى إلا هذا.

ـ والثانية هي إثبات هذا بنفسه بغض النظر عن البدائل.

البدائل هي الوجوه الخمسة التي ذكرناها، كلها أبطلناها بكلمات بسيطة فلا تحتاج إلى بحث طويل أصلاً، فلا يبقى إلا هذا الوجه.

وإن شئت الإثبات بهذا الوجه نفسه فهو المنطقي، لأنه صلى الله عليه وآله يطلب منهم أن لا يؤذوه، معرفةً منه بإخبار من الله تعالى بأن أهل بيته عليهم السلام سيتعرضون للتنكيل وإلى الظلم، والأمة ستتعرض نتيجة لذلك إلى الإبعاد عن معرفة موقعيتهم، فهو يدعوك إلى الحد الأدنى وهو وجوب محبتهم عليهم السلام، وعسى إن

أحببتهم عند ذلك ستجد من الصعوبة أن تخالفهم عليهم السلام، من الصعوبة أن تتظاهر عليهم وتبعدهم عليهم السلام، وهكذا هو شأن المؤمن الصادق.

فإذاً، هذه الوجوه الخمسة الأولى باطلة ويبقى هذا الوجه فقط، والذين يطلب الله سبحانه وتعالى مودة الناس لهم، ويعتبرها هي الأجر والشكر، هي رد الفعل المطلوب من المسلم للنبي صلى الله عليه وآله على جهده وجهاده ثلاثاً وعشرين سنة من التبليغ.

هؤلاء عليهم السلام ـ موضع المودّة ـ لا بد وأن يكونوا ذوي مكانة خاصة مواصفات خاصة بحيث لم يطلبها لغيرهم، وأنت إن وجدت العذر وجدت فسحة أن لا تحب شخصاً أو جماعة لأن فيهم شائبة ما، هؤلاء عليهم السلام لا تجد معهم هذه الفسحة، إذ ليس فيهم شائبة – ونحن نتكلم في الإطار الديني في إطار العلاقة بالله ـ فلا توجد فيهم شائبة من شرك بالله؛ فإن قلت إن هذا الشخص فيه جهالة قلنا أن هؤلاء عليهم السلام ليس فيهم جهالة لأنه صلى الله عليه وآله علمهم الكتاب والحكمة قبل أن يزكيهم إلى الناس.

إذاً هؤلاء، الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، هي الوحيدة التي تستحق أن تكون علاقتنا بها علاقة المحبة التي لا مجال للحيادة عنها لأنها لا شائبة فيها، وجعل الله تعالى مودّتها هي الأجر على جهد النبي صلى الله عليه وآله وجهوده، لأن أجر النبي صلى الله عليه وآله أصلاً هو على الله، أما «مودة القربى» فهذه فائدتها لنا.

❊

بعض مصادر البحث

فيما يلي ذكر بعض مصادر الروايات التفسيرية أو آراء المفسرين، سواء المؤيدة لما ذهبت إليه أو المخالفة له أو المعارضة له، التي تضمنها البحث أعلاه:

- تفسير البغوي.
- تفسير الكشاف ج٣ هامش تفسير آية مودة القربى.
- القرطبي في تفسيره ج١٣ ص٢٣، ج١٦ ص٢٦.
- الثعلبي في تفسيره ج٥ ص١٥٧.
- تفسير الجلالين.
- تفسير الدر المنثور لجلال السيوطي.
- تفسير الآلوسي ج٢٥ ص٣٨.
- شواهد التنزيل للحسكاني ج٢ ص٢٠٠.
- الطبراني في المعجم الأوسط ج٢ ص٣٣٦.
- ما أخرجه أحمد في المسند.
- ما أخرجه ابن أبي حاتم.
- الحاكم في المستدرك ج٣ ص١٧٢.

الفصل الواحد والعشرون
آية المباهلة

من أهم آيات الأمة الذرية المسلمة كما نعتقد هي آية المباهلة، فهذه الآية فيها خصوصية أن هناك إجماعاً على التشخيص في أبطال المباهلة.

نص الآية

الآية تأتي في سياق ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ آل عمران:٥٩-٦٠...

ثم تأتي الآية المباركة ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ آل عمران: ٦١.

سبب النزول

وقصة الآية أنه جاء وفد من رجال دين مسيحيي نجران (شمال غرب اليمن) يباحث النبيصَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ في طبيعة المسيحعَلَيْهِالسَّلَامُ هل هو إله؟ ابن إله؟ فيه صفة الألوهية؟ أم هو كما جاء به النبيصَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ أنه عبد الله تعالى؟ بعد نقاشات مدة ثلاثة أيام بقي كلٌّ على موقفه، فنزلت الآيات تعطي النبيصَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ حُجّة أخيرة ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾، قال له إن شأن عيسى آدم، إذا كانت حقيقة أن عيسىعَلَيْهِالسَّلَامُ ليس له أب تعني أن عنده جنبة ألوهية

فإن آدم عليه السلام من باب أولى أن يكون فيه جنبة ألوهية؛ لأنه من غير أب ولا أم، فقد خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون...

فإن استمروا في المحاججة بعد ذلك ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، توقّف، إنتهت المباحثات، مع الأمر التالي:

﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ نجعل القضية إلى الله تعالى، نجعل الحكم فيها لله تعالى. فهل الحكم مؤجل إلى يوم القيامة؟ كلا؛ بل هناك طريقة وضعها الله تعالى أن يجعل لعنته على الكاذبين، اللعنة بمعنى العذاب.

فماذا صنع رسول الله صلى الله عليه وآله؟

قال صلى الله عليه وآله للوفد ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾، هناك دعوة للأبناء من هنا والأبناء من هناك، و ﴿وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ﴾، من عندنا ومن عندكم، و ﴿وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾...

وهو شيء غير مفهوم، كيف يدعو الإنسان نفسه؟ سنرى...

ثم نأتي إلى الفعل ـ ﴿ثُمَّ﴾ نتبهل بعد الدعوة، ثم بعد أن يصير الجمع هناك مدة ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.

التزكية إلى الأمة

هنا، تزكية هؤلاء الطاهرين عليهم السلام هو من ضمن الحادثة كلها، البيان الرسولي كان في قوله وفي فعله صلى الله عليه وآله.

فالإجماع قائم على أن رسول الله صلى الله عليه وآله ضرب للوفد النصراني موعداً فخرجوا، ودعا المسلمين فخرجوا ووقفوا، وكان الوفد واقفاً هناك ينتظر، ثم

جاءت هذه الوجوه الكريمة، رسول الله صلى الله عليه وآله يمشي وبيده يحتضن الحسين عليه السلام (عمر الحسين عليه السلام كان خمس سنوات، ولكن كان صلى الله عليه وآله محتضنه)، وبيده الأخرى الحسن عليه السلام يمشي، وخلفهما فاطمة عليها السلام، وخلف فاطمة علي عليه السلام. وبينما هم يمشون، خاطب رئيس الوفد المسيحي جماعته قائلاً:

«يا معشر النصارى إني لأرى وُجُوهاً لو شاء الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة!»

فقرروا التراجع، وتوجهوا إلى النبي صلى الله عليه وآله بذلك، أن نحن تراجعنا عن المباهلة، وكلّ منّا يبقى على دينه.

النتيجة أنهم وصلوا إلى اتفاق: يدفعون الضريبة باعتبار أنهم جزء من الدولة الإسلامية الوليدة.

فكيف إذاً، كانت ترجمة رسول الله صلى الله عليه وآله للأبناء والنساء والأنفس في الآية المباركة؟

أما الأبناء، فرسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن عنده ولد، القاسم وعبدالله وحتى الطاهر من ولد خديجة عليها السلام توفوا وهم صغار، يعني رُضّع، هذا في مكة؛ وابنه إبراهيم عليه السلام ابن السيدة مارية قد توفي، فقد كانت الحادثة (المباهلة) في السنة التاسعة للهجرة، جاء بالحسن والحسين عليهما السلام وكان كثرما يقول هذان إبناي، فإذا جاء بهذين فإنهما يمثلان الأبناء.

وأما النساء، فقد جاء بفاطمة عليها السلام، ولم يأت بواحدة من زوجاته، ولا

بواحدة من عماته أو بنات عماته، صفية رضي الله عنها لم يأت بها، هناك نساء من الصحابيات جليلات طيبات ممن صدقن ما عاهدن الله عليه، لم يأت بواحدة منهن، فكانت فاطمة عليها السلام هي التي تمثل النساء.

فماذا عن الأنفس؟ هو صلى الله عليه وآله جاء بنفسه، لماذا جاء بعلي عليه السلام؟ لأن علياً عليه السلام هو الترجمة الحرفية لكلمة ﴿أَنْفُسَنَا﴾، فلماذا يقول ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ ما معنى ندعو أنفسنا؟ أنا أدعوك إلى أن تأتي إلى بيتي لمأدبة، أقول لك تعال وهات عائلتك وأنا سآتي بعائلتي ونفسي؟! ما معناه؟ أنا الذي دعيتك أصلاً وأنا موجود، فإذاً المعنى غريب جداً لا يستخدم...

ولكن الله تعالى استخدمه ليقول لكم ولنا وإلى يوم الدين أن علياً عليه السلام هو نفسه صلى الله عليه وآله، أي عندما نزلت الآية لم نعلم التفسير إنما جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وجاءوا عليهم السلام معه وكان معه علي عليه السلام، قال لنا أن علياً عليه السلام وصل إلى منزلة هي الأقرب مما يمكن أن يصلها بشر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله...

نحن عقيدتنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله لا مثيل له ولا يقترب أحد منه، في فضائله الجمّة في كل شيء، ولكن وصل علي عليه السلام إلى المنزلة التي كأنما عبر العتبة التي نستطيع أن نقول: إذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله غير موجود نأتي إلى علي عليه السلام، لأنه هو يمثله خير تمثيل.

وقد قالها النبي صلى الله عليه وآله هنا من ضمن تزكيته لهذه الجماعة الطيبة عليهم السلام، أنه استخدم هذا ليس فقط في هذا الفعل في المباهلة ولكن استخدمها أيضاً في أنه بعث رسالة إلى جماعة يهددهم، كانوا يتحرشون بقوافل المسلمين فبعث

إليهم: «لَتَنْتَهُنَّ يا بَني وُلَيعَة أو لأبعثَنَّ إليكم رجُلاً كَنَفْسِي» أو ربما في رواية «عِنْدِي كَنفسِي» (تفسير فرات بن إبراهيم، عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه)، يقتل المقاتلة ويسبي الذرية، فلما استمروا على تحرشهم بالمسلمين بعث إليهم علياً عليه السلام فقام بالواجب خير قيام. فاستخدم هنا «كَنَفْسِي».

إذاً تزكية الرسول صلى الله عليه وآله لهؤلاء عليهم السلام لأنهم يمثلون الجماعة الطاهرة، الجماعة التي وصلت إلى أعلى درجات الإسلام الذي طلبه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام عندما دعوا ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ البقرة:١٢٨، هذه الجماعة رسول الله صلى الله عليه وآله يجابه بها الأمم ويناظر بها الأمم لأنها لا تُغلب عندما تقف في الابتهال إلى الله تعالى، لا تُغلب لأنك عندما تأتي بجماعة هي الأقرب إلى الله تباهل جماعة أخرى فإنه من الطبيعي أن هذه هي التي تغلب، كيف إذا كانت هذه الجماعة القريبة من الله تعالى معها الحق المطلق.

إعتراض!

كما قلنا سابقاً: أنه عندما تأتي القضية إلى أهل البيت عليهم السلام لا بد وأن يعترض المنحرفون أو السائرون في ركابهم أو الغافلون الذين خدعوهم أبد الدهر؛ فماذا قالوا هذه المرة؟

قالوا: لا.. إن هؤلاء قدمهم النبي صلى الله عليه وآله لأنهم هم أقرب إليه فهو يريد أن يقول: أنني إذا أردت أن أضحّي فأنا أضحّي بأقرب الناس لا أضحّي بالأبعد.

هذا القول ينطوي على ماذا؟ يعني هو قول من لا يخجل؛ لأن هذا يقول

أن رسول الله صلى الله عليه وآله غير متأكد غير مطمئن من النتيجة، أنه من الممكن أن ينزل العذاب علينا، فعند ذلك أُصاب بها أنا وأهل بيتي، بينما أنتم المسلمون لا تتأذون، هل هذا اعتراض بالله عليكم؟! وهل هذا جائز في الاعتقاد الديني في رسول الله صلى الله عليه وآله عند أي مسلم؟

الآية الكريمة وآيات الأمة المسلمة

فبالتالي لا يوجد اعتراض حقيقي على هذا، فتكون هذه الآية هي الحادثة الهائلة، هي ليست تتطابق وحسب، بل هي متداخلة متشابكة كما تتعشق أجزاء الماكنة بكلمة الذرية المسلمة بدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، هذه الأمة التي أطلقها رسول الله صلى الله عليه وآله وزكاها بعد أن تلا عليها آياته وعلمها الكتاب والحكمة، لتكون هي القائدة والواجهة للأمة الإسلامية المحمدية قبالة الأمم الأخرى إذا ما برزت حالة تحدّ أو تعارض في المبادئ أو المصالح.

❊

بعض مصادر البحث

فيما يلي ذكر بعض مصادر الروايات التفسيرية أو آراء المفسرين، سواء المؤيدة لما ذهبت إليه أو المخالفة له أو المعارضة له، التي تضمنها البحث أعلاه:

- الزمخشري، تفسير الكشاف ج١ ص٤٨٢
- الحاكم، المستدرك ج٢ ص١٢٠
- الهيثمي في المجمع / ج٧ ص١١٠، و ج٩ ص١٣٤

- النسائي في الخصائص ص١٩
- صحيح مسلم، ج٤ رواية ١٨٧١
- سنن الترمذي، ج٥ رواية ٢٢٥
- مسند أحمد، ج١ ص١٨٥.

الفصل الثاني والعشرون
في آيات الأسباط

في القرآن عدة نصوص تذكر الأسباط من آل إسحاق ويعقوب عليهما السلام، في هذا الفصل نجمع بينها وبين الأحاديث التي تطبق النصوص على الحسن والحسين عليهما السلام.

الآيات المباركة

١/ ﴿قُولُوا آَمَنَّا بالله وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إبراهيم وَإسماعيل وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالاسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ البقرة:١٣٦.

٢/ وبعدها بعدة آيات الآية ١٤٠ تتمة في السؤال الاستنكاري لما يقوله بعض أهل الكتاب ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إبراهيم وَإسماعيل وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالاسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ الله وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هذه شبيهة، وما أُنزل إلى.

٣/ هنا في آية:٨٤ من سورة آل عمران ﴿قُلْ آَمَنَّا بالله وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إبراهيم وَإسماعيل وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالاسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ الإنزال «إليه» أنزل لأجله هو أو لأجل دوره، وأنزل «عليه» يعني فقط هو أنزل عليه، الذي وصل إليه بغض

النظر عن دوره.

٤/ ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبراهيم وَإِسماعيل وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالاسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾ النساء:١٦٣.

٥/ والآية الأخيرة في المجموعة من سورة الأعراف المباركة. قبلها الآية:١٥٩ مهمة ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ والآية ما بعدها تقول ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا.. ﴾ الأعراف:١٦٠.

الأسباط من الأنبياء عليهم السلام

فنجد هنا أن الموضع المطلوب هو كلمة «الأسباط» وأن هؤلاء الأسباط كانوا من الأنبياء لأنه أنزل إلى إبراهيم والأسباط، وما أنزل على إبراهيم والأسباط، هنا إنا أوحينا إليك وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، هذا الخط الإسحاقي من إبراهيم عليه السلام. وبعد خط الأسباط من يعقوب هناك الخطوط صارت قبائل عندما جاء زمن موسى عليه السلام بعد ذلك بقرون وقرون.

فالشاهد هو أن مصطلح الأسباط في القرآن هم الأنبياء عليهم السلام من آل إبراهيم وإسحاق عليهما السلام من نسل إسحاق ويعقوب عليهما السلام ثم صاروا قبائل على عهد موسى عليه السلام.

وعندنا أيضاً في سورة الأعراف الآية:١٥٩ ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ فهنا فرّق ما بين القوم، أمة موسى الكبيرة وبين جماعة في هذه الأمة؛ وهذا ما أشرنا إليه في أول البحث أن الأمة المسلمة في دعاء

إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هي جماعة من الأمة الإسلامية وليس الأمة الإسلامية كلها، فهنا قوم موسى فكأنما الأمة هنا تقابل الأمة الإسلامية، ومن قوم موسى أمة، إذاً صار جزء منها ههنا الأمة التي تهدي بالحق وبه تعدل، جزء منها فقط.

التشخيص الرسولي

نحن نعلم مما أجمع عليه المسلمون ما روي من الحديث الصحيح في شأن الحسن والحسين عليهما السلام من قول النبي صلى الله عليه وآله: «الحُسينُ سِبطٌ من الأسباط» (صحيح الترمذي ج٢، ص٣٠٧)، «الحَسنُ والحُسينُ سبطانِ من الأسباط» (إبن منظور، مختصر تاريخ دمشق ج٧، ص١٢٠)، و «سبطُ هذهِ الأُمّةِ الحَسنُ والحُسينُ» (الطبراني، المعجم الصغير ج٢، ص٣١٤).

«السبط» يُطلق على الحفيد ابن البنت أو ابن الابن، لكن بشكل أخص إبن البنت. الصحابة، عندما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحدثهم بهذه الأحاديث يعلمون كلهم أن الحسن والحسين هما إبنا فاطمة عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، إذاً هما سبطا رسول الله صلى الله عليه وآله، فمن غير المنطقي أن رسول الله صلى الله عليه وآله يجلس إليهم ويقول لهم أن الحسن والحسين حفيداي من ابنتي فاطمة، سيقولون نعم نعلم ذلك، ثم بعد ذلك ماذا؟

كلا! رسول الله صلى الله عليه وآله يقول «الحسنُ والحسينُ سبطانِ من الأسباط»، لم يقل الحسن سبط وسكت أو الحسين سبط وسكت، يعني حتى هذه كانت ستكون ضعيفة، بل الرسول صلى الله عليه وآله يقول: «الحسن والحسين سبطان من الأسباط» يعني لا يريد الكلمة القضية البديهية التي يعرفونها، فرسول الله صلى الله عليه وآله لا يتكلم لغواً، كلامه كله ذو فائدة، وإذا كان شيئاً يعلمونه إذاً هناك فائدة

إضافية.

فهو إذاً يقول: إنّ هذين الكريمين الحسن والحسين يتصفان بصفة، هذه الصفة أنتم تعرفونها أصلاً؛ من أين يعرفونها؟ من آيات القرآن التي أنزلت عليه والتي كان يقرأها عليهم. فهو صلى الله عليه وآله يقول لهم، وللناس جميعاً: إنّ هذين السبطين هما من سنخ الأسباط من آل إبراهيم عليه السلام في الخط الإسحاقي، وبما أن:

أولاً / أولئك الأسباط كانوا من الأنبياء بنص من القرآن

ثانياً / أن النبوة والرسالة قد ختمت برسول الله صلى الله عليه وآله فلا نبي بعده، إذاً الحسن والحسين عليهما السلام ليسا نبيّين ولكنهما من درجة ومنزلة النبوة.

وهذا نظير قوله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «أنتَ منّي بمنزلةِ هارونَ مِنْ مُوسى، إلاّ أنهُ لا نبيَّ بعدي» (صحيح البخاري ج٥ ص٢٤، مسند أحمد رواية ٥٩٧٢، تاريخ دمشق ج١٣ ص١٥٠ و ج١٨ ص١٣٨، وصحيح مسلم ج٧ ص١٢٠، وسنن ابن ماجة ج١ ص٤٥ رواية ١٢١، وسنن الترمذي ج٥ ص٣٠٣ رواية ٣٨١٣ و٣٨١٤، وفضائل الصحابة للنسائي ص١٣ وغيرهم). هذه «إلاّ أنهُ لا نبيَّ بعدي» مهمة جداً، فهي تعني «لو كان نبي بعدي لكنتَ أنت نبي من الأنبياء»، وإلا لكان اكتفى بـ«أنتَ منّي بمنزلةِ هارونَ مِنْ مُوسى»، وبالتالي «لك جميع منازل هارون عليه السلام ـ الأُخُوّة والوزارة والمساندة، ولكن ليس النبوة لأنه لا نبي بعدي». هذا الاستثناء إذاً يقول: «أنت حتى بمنزلة نبوة هارون ولكنه لا نبي بعدي». (حتى ﴿وأَشْرِكْهُ في أَمْرِي﴾ طه:٣٢ التي دعا بها موسى عليه السلام لهارون عليه السلام، ستكون بحق علي عليه السلام في رسالة المصطفى صلى الله عليه وآله أنها التبليغ عنه

صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ ـ ولك أن تنظر في الفصل القادم «آية المنذر والهادي»).

الآيات المباركة وآيات الأمة المسلمة

هنا أيضاً، الحسنان عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ، عندما يقول صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أنهما من سنخ أولئك الأسباط الأنبياء عَلَيْهِمُالسَّلَامُ (ولكن النبوة ختمت)، أي أن الدرجة عند الله من الاصطفاء والمنزلة العلمية والموقعية عموماً أنهما عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ من ذلك النوع، فنحن لا نتكلم الآن عن الدرجات ـ المقارنة بين الحسنين عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ وأسباط بني إسرائيل عَلَيْهِمُالسَّلَامُ ـ لأن هذا بحث آخر.

قلنا أصلاً أن إسلام هذه المجموعة وهم آل محمد صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ هو الدرجة الأعلى في الإسلام، بحيث أن إبراهيم عَلَيْهِالسَّلَامُ بعد جميع المراحل التي مرّ بها وذلك التاريخ الهائل يقف هو وولده إسماعيل عَلَيْهِالسَّلَامُ ليدعوا الله تعالى أن يكونا مسلمَين، يريدان أن يكونا مسلمين من هذا النوع الأعلى من الذي كانا عليه، ثم يطلبان أن يجعل الله منهما ذرية مسلمة، إذاً من هذا النوع من الإسلام، فـ «الحسنُ والحسينُ سبطانِ من الأسباط» من نوع الأسباط، أي من نوع الأسباط الذين وصلوا إلى درجة النبوة.

(أما أين هم؟ أفضل من أولئك أم يساوونهم؟ هذا بحث آخر، ولكن خلاصته هنا أنهم أفضل بكل تأكيد للأمور الأخرى التي تذكر في هذه السلسلة وغيرها).

فهذا الرابط لهما من خلال حديث النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ ومع ما كنا ذكرناه في أصل صلب البحث، محرك البحث وهو دعاء إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ، أن انتبهوا إلى أن الحسن والحسين عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ، من الأسباط بالبيان الرسولي الذي قال لنا

أنهم من سنخ أولئك الأسباط.

*

بعض مصادر البحث

فيما يلي ذكر بعض مصادر الروايات التفسيرية أو آراء المفسرين، سواء المؤيدة لما ذهبت إليه أو المخالفة له أو المعارضة له، التي تضمنها البحث أعلاه:

- صحيح الترمذي ج٢، ص٣٠٧
- الطبراني المعجم الصغير ج٢، ص٣١٤
- إبن منظور، مختصر تاريخ دمشق ج٧، ص١٢٠.

الفصل الثالث والعشرون
آية المنذر والهادي

من أبرز الآيات المتعلقة بكامل البعثة النبوية في هدفها الأساس وهو الهداية إلى الله تعالى هي آية المنذر والهادي.

يقول تبارك وتعالى:

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ الرعد:٧.

المعنى من اللغة

اللغة تقول، الجزء الأول من الآية ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، طبعاً هنا الآيات التي يريدونها غير آيات القرآن التي هو يتلوها عليهم، يريدون آية بمعنى المعجزة، المعجزة التي تخضعهم. رسول الله ﷺ جاء بالكثير الكثير من المعجزات في حياته الشريفة ولكن هؤلاء كما قصّ القرآن يريدون: أن تنزل علينا كتاباً نقرأه، والملائكة تنزل معك وذهب وفضة ومن هذه الأمور.

الله تعالى يقول لهم أنه بغض النظر عن نزول مثل هذه الآيات أو لا ﴿لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَاد﴾ يطيح بكلامهم، أن القضية ليست هكذا، القضية ليست أني بالإعجاز أخضعك، لأن الذي في قلبه مرض لو جئته بخمسين معجزة يبقى في قلبه مرض! ألم نجد ممن عاصروا

النبي صلى الله عليه وآله، سواء من قريش الذين بقوا على كفرهم أو الذين آمنوا ودخلوا الإسلام، وجدنا من كان ضعيف الإيمان بقي متردداً في الدخول، ثم دخل وبقي على نفاقه، بل حتى القرآن قال ذلك، بعضهم خاطبهم: ﴿أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ آل عمران:١٠٦ وقال إن هذا ممكن، ﴿الَّذِينَ آَمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آَمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا.. ﴾ النساء:١٣٧. إذاً المسألة ليست معاجز، بل يقول لهم القضية هي قضية نذارة وهداية.

الآية، هذا الشطر المهم ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ يجعل من مهمة النبي صلى الله عليه وآله مهمة النذارة فقط، لأنه يقول ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾. ﴿إنّما﴾، وكما قلنا في أخرى: إنّ القرآن يستخدمها أحياناً للاستثناء للحصر الحقيقي دون مبالغة ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ الكهف:١١٠ فهذا ليس مبالغة، هذا حقيقة، ويستخدمها أحياناً للمبالغة من أجل إلفات النظر إلى أن ما يريد أن يقوله بعدها من الأهمية الفائقة بحيث أنه لا يريد غيرها ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ الأحزاب:٣٣، ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ سبأ:٤٦، ومثيلاتها؛ إن راجعت القرآن تجدها مبثوثة بشكل كبير. الكثير منها فيه مبالغة وهذه الآية منها.

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ كيف هو فقط منذر؟ رسول الله صلى الله عليه وآله هو الهادي أيضاً، القرآن نفسه يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الشورى:٥٢ إنك تهدي إذاً أنت هاد. وفي آيات يقول له ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيراً﴾ الأحزاب:٤٥، إذاً هناك البشارة وليس فقط النذارة، كيف يقول له: إنما أنت منذر؟ فهنا إشكال، إشكال وتناقض ظاهرين في القرآن، أنه في آيات يقول له: أنك تهدي، وهنا يقول له أنت فقط منذر، فكيف

نصنع؟

نذهب إلى الذي أُنزلت عليه الآية والذي أُنيط به التوضيح في البيان، لأن القرآن يقول لنا من خلال مخاطبته لهﷺ ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ النحل:٤٤. هذه طريقة، هذه أداة، لا يمكن التنازل عنها كما يحصل مع من يسمون أنفسهم القرآنيين أو ما شاؤوا من تسميات. القرآن يقول: ﴿أَنْزَلْنَا ... لِتُبَيِّنَ﴾، ولذلك في بعضها يقول ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغ﴾ المائدة:٩٩ أي تبليغ النَّص، وفي غيرها يقول ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ النور:٥٤ هذا «نص مبين» من بيانهﷺ يقرأ النص ثم يبيّن ما هو، وهذا في الآيات الواضحة أو شبه الواضحة أو على الأقل التي ليس فيها ما يبدو منه تناقض.

التزكية إلى الأمة

هناك تناقض ظاهر، أو لنقل شبهة تناقض، بين هذه الآية وبين الآيات التي لا تحصر مهمتهﷺ بالنذارة فقط. إذاً نذهب إليه فماذا قال؟

هنا نأتي إلى تزكية الرسولﷺ للأمة المسلمة، في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ البقرة:١٢٨ والآية بعدها ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ البقرة:١٢٩ بعد أن يهيئهم يزكيهم إلى الناس، يطلقهم إلى الناس. هنا إحدى أقوال رسول اللهﷺ في تزكيتهم إلى الناس، ويجب أن يخضع لها كل مسلم لأن هذا بيان رسولي، الآية فيها من المتشابهات ليست واضحة، رويت الروايات، كل واحدة منها تكفي.

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: "لما نزلت ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، قال ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وضع يده على صدره وقال: «أنا الُمنذِرُ، ولِكُلِّ قَومٍ هاد» وأومأ بيده إلى منكب علي عليه السلام فقال: «أنتَ الهادِي يا عَليُّ، بِكَ يَهتدِي المُهتَدُونَ من بَعدِي». كلمة «مِن بَعدِي» هذه حلّت الإشكال. يقول له: في حياتي أنا أيضاً الهادي، أنا المنذر وأنا الهادي، ولكن لكل قوم هاد، أنت الهادي من بعدي.

فماذا يعني هذا؟

يعني أن الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى عظم وخطر منزلة علي عليه السلام أنه هو علم الهدى بحيث يأتي بآية تستثني وظيفة الهدى من النبي صلى الله عليه وآله حتى ننظر ونقول ونتساءل كيف؟ كيف يكون منذراً فقط؟ فنسأله فيجيبنا يقول نعم، أنا في حياتي أنا المنذر وأنا الهادي، من بعدي بمن يهتدي به القوم؟ علي «يَهتدِي المُهتَدُونَ من بَعدِي».

فهذا يحلّ الإشكال بين هذه الآية والآيات الأخرى التي لا تحصر وظيفة النبي صلى الله عليه وآله بالنذارة فقط. هذا أولاً.

ثانياً: تكمل الحل بأنها لا تبقي هذه الروايات وهذا الكلام من رسول الله صلى الله عليه وآله يحتاج إلى توضيح أكثر وهو التشخيص؛ بل تكمل الحل بالتشخيص أن علياً عليه السلام هو الهادي من بعده.

إعتراض الذين في قلوبهم مرض

إن آية مثل هذه يرى المفسرون كلهم أن فيها ما يستدعي النظر، وطبعاً بما أنه توجد هذه الرواية في علي عليه السلام فعلى ديدنهم الذي مشوا عليه عبر

العصور، عندما يجد أحدهم في التفسيرات ذكر علي عليه السلام فإنه يضيق صدره ولا يتحمل هذه الخصوصية الكبري لعلي عليه السلام أنه هو الهادي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله فيأتي بوجوه أخرى.

دعونا نقرأ هذه الوجوه الأخرى لننظر هل هي مما تُقبل أو لا تُقبل.

نأخذ من تفسير ابن كثير الدمشقي، (ابن كثير هذا هو تلميذ ابن تيمية، تلميذ مباشر ولذلك فإن الوهابية نشروه، تجد تفسير ابن كثير في كل مكان ولعله تجده حتى في بيوت شيعة أهل البيت عليهم السلام تجد لديهم تفسير ابن كثير دون غيره). ما قاله ابن كثير هو جامع للافتراضات وجامع للكلام الصحيح وجامع أيضاً لغير الصحيح، نشير إلى هذه الحالة التي لا يمكن تسميتها إلا بالمشكلة النفسية مع الحق.

(الوجه ١) قالوا: إنّ المعنى لكل قوم هاد، أن لكل قوم داعٍ أي داعية. هذا باطل لأن الداعية ليس بالضرورة يكون هادياً، إذ من الممكن أن الإنسان يدعوك إلى الحق ولكنه لا يستطيع أن يهديك. ولكن لم استثناء رسول الله صلى الله عليه وآله؟ أليس هو الداعي؟ أكبر داعية إلى الله هو رسول الله صلى الله عليه وآله فكيف يستثنيه؟

(الوجه ٢) قالوا: إنّ الله تعالى يقول أنت يا محمد منذر وأنا ـ الله ـ هادي كل قوم. هنا أيضاً يبقى الاستثناء مبهماً، لماذا يستثني النبي صلى الله عليه وآله من مهمة الهداية؟ مفروغ منه أن الله هو الهادي قبل رسول الله وأثناء حياته وبعده صلى الله عليه وآله، الله هو الهادي دائماً، لكن كيف يوصل الهدى؟ يوصله عن طريق البشر، فلم يجعله فطرياً؛ نعم، جعل فطرة متصلة بالله تعالى لكن التذكير كان عن طريق

النبوات، فإذاً بقيت المشكلة كما هي. هذا الوجه باطل.

(الوجه ٣) ولكل قوم هاد، أي نبي، قالوا كل قوم لهم نبي. وهذا باطل كذلك. فأولاً استثنى النبي محمدصلى الله عليه وآله إذا كان لكل قوم نبي لماذا تقول له أنت فقط منذر؟ وثانياً عندما تنتهي النبوة ماذا نفعل؟ يعني توقفت الهداية؟ أم أن الهداية تكون بالرسالة الخاتمة لآخر نبي؟ وعندها نسأل من سيكون الهادي أو الهدى من بعده؟

(الوجه ٤) قالوا الهادي هو القائد، والقائد هو الإمام. إلى هنا هذا ممكن، لكن ماذا يقول؟ والإمام هو العمل. القائد هو الإمام ليس بالضرورة يكون هادياً، كم من قادة هم ليسوا هادين بل ربما يأخذونك إلى جهنم؟ وكم إمام هو من الذين يأخذونك إلى النار؟ هناك أئمة النار كما ورد في القرآن. وأما العمل فكيف يكون العمل هو الهادي؟ العمل إذا كان صالحاً فيمكن أن يبدأ بإدخالك في إطار التوفيق للهداية للعمل الصالح وربما للهداية فيما بعد، لكن العمل هدف الهداية، فإن الهداية هدفها التوجيه إلى العمل الصالح وليس العكس. فهذا قول باطل.

(الوجه ٥) هو أن الهادي هو محمدصلى الله عليه وآله. طبعاً هذا واضح البطلان، لأن الآية هي التي تستثني، نحن الإشكال في استثنائه من وظيفة الهداية.

(الوجه ٦) أن الهادي هو من يدعوهم إلى الله عز وجل. وهذا باطل كذلك، لأن من يدعو إلى الله ليس بالضرورة بإمكانه أن يهديهم الهدى المطلوب، الهدى الذي من القوة بحيث أن الهداة غيرك، هناك هادي غيرك، إذاً يجب أن يكون هدى على مستوى الهدى الذي يقوم به رسول اللهصلى الله عليه وآله

وليس أقل. فهذا الوجه باطل.

(الوجه ٧) القول السابع مما أورده ابن كثير الدمشقي في تفسيره هو الرواية التي ذكرناها في البيان الرسولي أولاً أنه قول رسول اللهﷺ «أنت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي». ولكن ماذا علّق ابن كثير عليها؟ قال: «وهذا الحديث فيه نكارة شديدة»، لماذا فيه نكارة شديدة؟! تلك الوجوه أوضحنا بطلانها بأقل نظر، وهذا الوجه يأتيك شخص محدد ويحدد رسول اللهﷺ أن بك يهتدي المهتدون بعدي فيرفع التناقض الذي بين الآية والآيات الأخرى من القرآن، ولا يدع دقيقة واحدة من غير علم هدى يهتدي بك المهتدون بعدي، مباشرة بعد موتي تبدأ وظيفتك، ويشخصه، والذي شخصه عليه الإجماع أنه في القمة حتى الذين جعلوه رابعاً فهو في القمة، ورووا أنفسهم أنه من النبيﷺ «بِمَنزِلَةِ هارُونَ مِن مُوسى»، وأنه «من العترة التي من تمسك بها والقرآن الكريم فيأمن من الضلال» ـ فكيف في الحديث نكارة شديدة؟! أين النكارة؟ هل في فعل النبيﷺ أنه قال أنا المنذر؟ ثم على منكب علي يقول «أنتَ الهادِي يا عَليٌّ، بِكَ يَهتدِي المُهتَدُونَ من بَعدِي» فلو لم يقل النبيﷺ كلمة «بعدي» لكان فيه نكارة، ويكون الإشكال باقياً، لكنه أوضح لنا، فلماذا فيها نكارة شديدة؟

طبعاً أنت إذا سألت الأتباع فسيأخذونك في متاهات الإسناد في سند فلان قال عن فلان ثم سند ضعيف، ويرجع يقول له فلان يقول عن فلان أنه ثقة نعم لكن فلان قال أن فيه شيء، أو أن الرواية ليست عن صادق وصل إلى أعلى درجات الثقة ولم يكن معها ـ أي الرواية ـ ما يعضدها، وغير ذلك مما هم

يتقنونه من هذه المتاهات.

وربما لن يذكروا لك أن نكارة الحديث يمكن أن تقع عندهم في «متن» الحديث، لأنهم عندها سيفتضحون أن مشكلتهم هي مع علي عليه السلام!

هذه المعضلة التي ليست في نكارة الإسناد، ولكن في الصدور ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾ النمل:١٤ لكن لماذا جحدوا بها؟ ظلماً وعلوّاً، هذا الاستكبار هذا الكبر، مَن علي بن أبي طالب حتى نطيعه؟ ولكن، مَن أنتم حتى نطيعكم، أنتم من تكونون؟

فليس في الحديث نكارة شديدة، لكنها في قلوب النواصب.

(الوجه ٨) ثم أورد ابن كثير رواية أخرى في الوجه الثامن والأخير، هي رواية عن علي عليه السلام، أنه قال: «الهادِي رَجلٌ من بَني هاشِم»؛ قال الجنيد (راوي الرواية وأحد المعلقين من المفسرين) «هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه».

هذه الرواية صحيحة أنها تشخص علياً عليه السلام، لكنها تقول أن علياً عليه السلام لم يشأ أن يذكر اسمه فقال رجل من بني هاشم، ما يعني أنه يريد أن يتواضع. وهذا غريب، لأن القضية ليست قضية مدائحيات إنما أنت منذر ولكل قوم هاد، هذه وظيفة، واجب ثقيل جداً، الله أعلم بالمعاناة التي عاناها أمير المؤمنين عليه السلام منذ أن أُلقيت عليه وحتى استشهد. هذه ليست تشريفات، هذا واجب عظيم، مهمة ومسؤولية ضخمة جداً، فالمقام مقام بيان، مقام توضيح أنني أنا الهادي، أنا الهادي تعالوا إليّ، فما معنى أن يقول رجل من بني هاشم؟ ليست مدائحيات.

ثم إن علياً عليه السلام ذكر فضائله القرآنية في غير موضع، منها عندما أعلن

للناس أنه كان الوحيد الذي عمل بآية التصدّق عند النجوى. فلماذا يكتم في آية «المنذر والهادي» والتي هي - كونها موقعية الهادي الأول بعد النبي صلى الله عليه وآله - أعظم من تلك بكثير؟!

الآية الكريمة وآيات الأمة المسلمة

وبالتالي فإننا نجد أن هذه الآية من أعظم آيات كتاب الله العزيز في الإعلان الواضح من خلال النص زائد البيان الرسولي للنص بموقعية هذه الأمة المسلمة وهنا سيدها سيد العترة الطاهرة علي بن أبي طالب عليه السلام، والذي نعلم مَن هم باقي الأمة المسلمة، من غير الاثباتات الأخرى، يكفي أننا نعلم مَن يهدي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالب عليه السلام، نذهب إليه وهو الذي يهدينا ماذا نفعل من بعده.

❊

بعض مصادر البحث

فيما يلي ذكر بعض مصادر الروايات التفسيرية أو آراء المفسرين، سواء المؤيدة لما ذهبت إليه أو المخالفة له أو المعارضة له، التي تضمنها البحث أعلاه:

- تفسير الطبري
- تفسير إبن كثير
- تفسير الدر المنثور للسيوطي
- مستدرك الحاكم ج٣ ص١٢٩

- كنز العمال ج١ ص٢٥١، ج٦ ص١٥٧
- مجمع الهيثمي ج٧ ص٤١.

الفصل الرابع والعشرون
آيتا أولي الأمر

آيتا أولي الأمر هما من ضمن الآيات المتعلقة بالأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

نصّ الآيتين الكريمتين

الآية الأولى / ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الامْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ النساء:٥٩؛ وهذه آية عامة في الأمر بالطاعة.

الآية الثانية / ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الامْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الامْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلا قَلِيلاً﴾ النساء:٨٣ ؛ كأنما يضع الأسباب لهذه الطاعة.

الفهم من اللغة

الآية الأولى / آية عامة في الأمر بالطاعة، والخطاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، جميع المسلمين. وهذا دائماً ما ننبه عليه أن «الذين آمنوا» هو مصطلح قرآني يستخدمه للمسلمين، أي الذين أعلنوا أنهم آمنوا بالدين ودخلوا به على اختلافهم، لذلك يفرق بينهم وبين المؤمنين في آيات معينة، فيقول يا أيها الذين آمنوا أحياناً كثيرة والمؤمنين في بعض الأحيان.

الأمر بالطاعة لله وللرسول وأولي الأمر منكم، واضحة، طاعة شرعية.

ثم في حال التنازع ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، إن لم تفعلوا فأنتم لستم مؤمنين حقاً، فإذاً الأمر بالطاعة لله والرسول وأولي الأمر وفي حال التنازع ردوا الأمر إلى الله والرسول صلى الله عليه وآله.

الآية الثانية / ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الامْنِ أَوِ الْخَوْفِ﴾ بكل الأحوال؛ ولكن ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ هو المهم هنا، إذ أن هناك فرقاً:

هناك ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾، بينما هنا يقول ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الامْرِ مِنْهُمْ﴾.

فما نفهمه هنا هو الآتي:

أولاً: أن طاعة أولي الأمر طاعة دون شروط لأنه لم يذكر شرطاً، ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الامْرِ مِنْكُمْ﴾، فلم يقل أولي الأمر منكم «إن عدلوا» مثلاً، أو أولي الأمر منكم «إن لم تفعلوا كذا»؛

والثانية أيضاً ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الامْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾، لم يقل إلى أولي الأمر «في حالة كذا»، وإذاً هي طاعة دون شروط.

ثانياً: أولو الأمر هؤلاء يستطيعون استنباط الحكم الشرعي، هم يتوفرون على العلم الشرعي الذي يستطيعون الاستنباط منه لمعرفة ماذا يفعلون، وبدقة، ﴿الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾؛ فلم يقل الذين يعلمونه، الذين يعرفون كيف يتصرفون، ولكن الذين يعرفون «الاستنباط».

فهذا الذي يفهم من اللغة.

البيان الرسولي إلى الأمة

هؤلاء أولو الأمر، نعرفهم من خلال تزكية الرسولصَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ لهم.

نقول (وبعد قليل سنذكر الاعتراضات وأجوبتها)، إننا نذهب إلى أن هؤلاء هم أئمة أهل البيتعَلَيْهِمُالسَّلَامُ الأئمة الاثني عشر بدءاً من علي بن أبي طالبعَلَيْهِالسَّلَامُ، حيث قد زكاهم الرسولصَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ ببيانه، تزكية لهم بصفاتهم الفريدة وموقعيتهم في الدين سواء:

(أ) في تفسير الآيات (التطهير، المباهلة، المودة) التي ذكرناها في فصول منفصلة أو غير تلك الآيات.

أو

(ب) بمعزل عن ذلك، من خلال السيرة النبوية ومن خلال السنّة النبوية بشكل عام التي لا تتعلق بشكل مباشر وواضح بآية معينة.

الاعتراضات

هذا الفهم يُعترض عليه وهو في هذه الحالة ليس اعتراضاً مباشراً على فهمنا ـ نحن أتباع أهل البيتعَلَيْهِمُالسَّلَامُ ـ لأولي الأمر، لأن هذه ليست من الآيات التي تجدها كثيراً في النزاع بين الفريقين، وذلك ربما تمر بمفسر أو مفسرين يذكر وجوهاً متعددة ولا يذكر أصلاً الوجه الذي يقول أنهم أئمة أهل البيتعَلَيْهِمُالسَّلَامُ، ولكن عندما نطرح هذا، يأتي هناك نزاع، أو يكون هناك الاعتراض من ضمن الاعتراض الطبيعي عند تفسير هذه الآية، بداخل نفس المدرسة الفقهية أو المذهبية، وهذه المسألة طبيعية بل هي التي يجب أن

تكون عند تدبر القرآن الكريم.

الاعتراض الأول:

يقول أنه في حال النزاع فإن تنازعتم في شيء فإن الرد إلى الله ورسوله، لم يذكر أولي الأمر، فلو كانت طاعة أولي الأمر ـ هكذا يقولون ـ كطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وآله، أي في وجوبها، كان قد قال «فردوه إلى الله ورسوله وأولي الأمر»، كان كرر أولي الأمر أيضاً.

الجواب على هذا باختصار

(أ) إن أولي الأمر لم ينزل عليهم الوحي، الوحي من الله إلى الرسول صلى الله عليه وآله فأولو الأمر كائناً من كانوا، أي بغض النظر عن التشخيص، ليس لهم أن يتكلموا في كلمة واحدة عن التشريع، هم ينقلون ولا يشرعون، فالرد إلى الله ورسوله صلى الله عليه وآله، ماذا يساوي؟ يساوي النص القرآني زائداً البيان الرسولي للنص. فالحكم في ذلك يجري على أولي الأمر كما يجري على غيرهم من سائر المسلمين.

(ب) في الجواب أيضاً ـ وما هو أهم من هذا ـ هو أن الطاعة التي أمرت الآية بها في الأصل ﴿**أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الامْرِ مِنْكُم**﴾ لم تضع لها شروطاً، فهي طاعة غير مشروطة، ما يعني أنك بغض النظر عن حالات النزاع، أنت في أصل الطاعة هي طاعة غير مشروطة، وبالتالي فيسقط إشكال لماذا لم يكن الرد إلى أولي الأمر في حالة النزاع. فطالما أن الطاعة غير مشروطة إذاً هي واجبة في الحالة الاعتيادية عندما لا يكون هناك نزاع بغض النظر عن النزاع أين؛ إذاً أولو الأمر واجبو الطاعة كما تجب طاعة الله وطاعة

الرسولﷺ، ولو كان هناك شرط لهذه الطاعة لوضعها الله تعالى، لذكر ذلك في الآية.

هذه الطاعة غير المشروطة لا يمكن إلا أن تعني أمراً واحداً أن أولي الأمر هؤلاء لا يأمرون بمنكر ولا ينهون عن معروف، وبعبارة أخرى هم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله مطلقاً (مما سنذكره في أن هذه الأمة (التي سنبحثها في آية ﴿**كُنتُم خَيرَ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاس**﴾ آل عمران:١١٠ ليس فقط أنهم الأمة المصداق لذلك، بل هو هذا التشخيص، أن هذه الأمة التي أخرجت للناس التي فيها الخيرية التي على الإطلاق تأمر بالمعروف، على الإطلاق تنهى عن المنكر، على الإطلاق تؤمن بالله، لا يوجد شائبة في إيمانها، لا يمكن إلا أن تكون تلك الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام التي وصلت إلى الدرجة الأعلى من الإسلام، فلا يمكن أن تأمر بمنكر ولا تنهى عن معروف ولا أن تحيد ذرة واحدة عن الإيمان الخالص بالله).

(ت) لأن «النزاع» يمكن أن يكون بين الناس وأولي الأمر أنفسهم، أي أن الناس يختلفون، يتنازعون مع أولي الأمر أنفسهم ـ سواء في حكم معين أو في أصل الطاعة لهم ـ، فإن العدل أن يتم ذهاب المتنازعين إلى المرجعية التي هي أعلى من أولي الأمر، وهي مرجعية الله والرسولﷺ. لهذا كان الرد في حالة التنازع خالياً من أولي الأمر. (وقد وجدنا هذا على أرض الواقع عندما كان البعض يعترض ويشكل على الإمام عليعليه السلام أثناء حكمه، فكانعليه السلام يقوم بتقديم الدليل من القرآن والسنة النبوية. كذا كان الحال مع الحسنعليه السلام عندما كان يراسل الباغي معاوية وبعد ذلك مع الحسينعليه السلام

حتى في كلامه يوم عاشوراء.)

(ث) أخيراً نقول: إنّ هؤلاء الصفوة إذاً هم الذين يستطيعون استنباط الحكم الشرعي في حالة من الأمن والخوف لو ردوه لكذا، لأنه لو كان هناك احتمال للخطأ أو الزلل في استنباطهم لكانوا سيخرجون من أمر الطاعة دون قيد أو شرط. هذا الاعتراض الأول على القضية أن الطاعة لم تُكرر في حالة النزاع.

الاعتراض الثاني:

البدائل المطروحة أو الوجوه لتفسير الآية، وهذه البدائل ضعيفة إلا في حالة واحدة. البدائل المطروحة ما هي؟

إن هناك خمسة أقوال، أن أولي الأمر هم أمراء السرايا والغزوات، أو هم العلماء، أو هم الأمراء والولاة، أو هم أهل الرأي من الصحابة، أو هم القوّام على الناس والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.

فماذا نلاحظ في هذه البدائل؟

نلاحظ ما يلي / ملاحظتان عندنا فيها:

الملاحظة الأولى: هؤلاء المذكورون أمراء السرايا والأمراء وأهل الرأي من الصحابة، هؤلاء لا يمكن أن تكون طاعتهم غير مشروطة؛ لماذا؟ لأن المفسرين الذين رووا هذه الوجوه قالوا أن الطاعة لهؤلاء تكون في المعروف فقط ويذكرون معها حديث رسول اللهصلى الله عليه وآله «لا طاعَةَ لمَخلُوقٍ في مَعصِيَةِ الخالِق» (مسند أحمد ج٥، ص٦٦)، إذاً كيف نصنع إذا أمروا بمعصية؟ لأن هؤلاء إذا أمروا بمعصية ولم نطعهم عاقبونا على هذا؛ فماذا نصنع؟ إما أن

نخضع وإما أن نثور عليهم. والعجيب هنا هو التناقض الصارخ في الحل، يعني هم يقولون أن الطاعة في المعروف فقط، كلهم يأتوك يقولون «أطع الأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك»، كلهم يريدون ذلك، يعني هناك شيء من الحرص والغيرة على موقعية أولي الأمر من الولاة، وهو حرص في بعضه منطقي لأن القضية يجب أن تكون هناك طاعة، قوانين أو سياقات متبعة معمول بها، سواء هناك غزوات عليها أمير لهذه السرية أو رئيس لدائرة حكومية أو لشركة أو غيرها، لا بد أن يكون هذا، لكن الكلام هو في الشرط.

فلو قالوا: نعم أنت تطيع الأمير ولو ضرب ظهرك وأخذ مالك «ما لم يصدر منه الكفر البواح»، قلنا ماذا إذا صدر منه الكفر البواح، ماذا نصنع؟ نفس السؤال، أنخضع له أم نقوم بالثورة عليه؟ إذا خضعنا نكون قد خضعنا بالمعصية وأطعناهم في المعصية، وإذا ثرنا عليه نفس المفسرين من هذه المدرسة يقولون أن الثورة على أولي الأمر لا تجوز أبداً، حتى أن بعضهم، كذلك المنحرف الكبير ابن تيمية وتلميذه ابن القيم يقولان لا يجوز حتى الدعاء على الحاكم الظالم بل ندعو له، يعني الدعاء بينك وبين الله لا يجوز! فتأمل. إذاً تخضع له، فإن أمر بالمعصية وأنت أعنته على ذلك بطاعتك له فقد عصيت. هذه هي الملاحظة الأولى على الاعتراض ـ البدائل.

الملاحظة الثانية هي أنك إذا نظرت إلى البدائل لا تجد أحداً على العهد النبوي عندما نزلت الآية، لا تجد أحداً تنطبق عليه غير علي بن أبي طالب عليه السلام:

فهو كان من أمراء السرايا والغزوات بل هو الأمير عليهم حتى كان عندما

يرسل رسول الله صلى الله عليه وآله كتيبتين أو سريتين يقول عندما تجتمعون «فعَليٌّ على النّاس» (مصنّف ابن أبي شيبة كتاب الفضائل ج١٨ ح٣٢٧٨٢، ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق، باب علي بن أبي طالب، عندما أرسل النبي صلى الله عليه وآله جيشين على رأس أحدهما علي عليه السلام وعلى رأس الآخر خالد بن الوليد).

وهو أيضاً من العلماء بل هو أكبر العلماء، بل هو باب مدينة العلم، وهذا كله بتزكية الرسول صلى الله عليه وآله وليس بما نراه من رأينا

وهو من الأمراء والولاة كما كان بعد ذلك، كان هو الخليفة

وهو من أهل الرأي من الصحابة، بل هو أعلاهم حتى في زمان الخلفاء قبله لاسيما في زمان عمر بن الخطاب الخليفة الثاني الذي كان هو يقدم رأيه عليه السلام في حالة الاختلاف عن رأي الآخرين

وهو من القُوّام على الناس والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر حقاً لأنه أول الأمة المسلمة في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من ذريتهما.

إذاً هذه البدائل كلها ممكنة في حالة شخص واحد فقط لا غير، فتكون قد اتفقت مع ما نذهب إليه من الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، أولو الأمر في تلك الأمة الذرية المسلمة المصطفاة.

إجمع معها الآية التي تم البحث فيها دائماً بين الطائفتين وهي آية ولاية الأمر، آية الولاية (التي بحثناها في فصل منفصل ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ المائدة:٥٥ والتي قالت معظم التفاسير، إن لم يكن جميعها، أن الذين آمنوا في الآية ليس جميع الذين آمنوا لأنه لا يمكن أن يكون ذلك أن تكون الولاية من الجميع على الجميع،

وإنما هي في شأن علي بن أبي طالب عليه السلام عندما تصدّق بالخاتم وهو يصلي وفي حالة الركوع.

فإذاً، هذه الآيات، آيتا أولي الأمر تنطبق على هؤلاء.

هناك قضية مهمة جداً:

نحن عندما نعترض على هذه البدائل، العلماء والأمراء، لاسيما في حالة الأمراء والولاة، وأمراء السرايا والغزوات وصولاً إلى التطبيق العملي في عملنا أن ولاة الأمر هم الحكام، ملك، رئيس جمهورية، أمير، رئيس وزراء.. سمّ ما شئت، وصولاً إلى ما وصلت إليه مهازلنا إلى أن شاباً لا يكاد يفقه شيئاً من الدين حقاً، يصلي في زاويته يجتمع حوله البعض ممن لا يفهمون شيئاً أكثر منه، فينبهرون به وشيئاً فشيئاً صار أمير جماعة، وإذا به يقتنع بفكر من الأفكار فيصبح أمير جماعة يأمرهم فيأتمرون وينهاهم فينتهون وصولاً إلى أمرهم بقتل الأبرياء، فيقتلون الأبرياء الذين لا يعرفونهم...

هذه نتيجة التفسير المنحرف، أن ولاية الأمر تكون للحاكم، تكون للأمير، تكون لأمراء السرايا والغزوات، الأمراء والولاة، صاروا يقولون لا، نحن نبايع هذا أميرنا وليس رئيس الجمهورية الذي صدر منه الكفر البواح، حتى عندما يقولون هذا صدر منه الكفر البواح ونحن لا نقبل به ولا نطيعه ونهرب منه نهاجر مناطق سيطرته فماذا الذي يصنعون؟ يسقطون مع آخر ربما أفضل منه علماً في العلم الشرعي ولكنه على مسيرة انحراف ربما تكون هي الأسوأ، وهذا الذي حصل.

إذاً «ولاة الأمر» هنا لا يمكن أن يكونوا الجميع، فإنهم ليس فقط لا

يستنبطون الحكم الشرعي بل هم لا يعرفون شيئاً عن الشريعة. تصور أنت رؤساء الجمهورية فلان وفلان أو الملك فلان الفلاني تصور أن هؤلاء يستنبطون الحكم الشرعي، تصور أن هؤلاء يستنبطون الحكم الشرعي، أي مهزلة هذه؟!

حتى لو كان « الأمر » هو « الحكم » فمن هم ولاة الأمر؟

أخيراً هناك آية، يعني أيضاً قضية أولي الأمر، مسألة الأمر نعم هي الحكم وتضم إلى ولاية الأمر والحكومة، لكن من هم هؤلاء؟

لو ذهبت إلى الآية ٦٧ من سورة الحج يقول تعالى:

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الامْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ آية عظيمة هي من القلب في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالذرية المصطفاة، الذرية المسلمة وفي الرسول الذي يُبعث فيهم. حتى في تلك الآية، أنظر إلى أن القرآن كيف يربط الأمور لكي لا يكون لأحد حجة مهما فعلوا في الواقع استطاعوا أن ينجحوا في التحريف، هنا لا يستطيعون مع كتاب الله أبداً.

إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يقولان: **﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾** البقرة:١٢٨، وهذه الآية تقول **﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الامْرِ... ﴾** أنت يا رسول الله، أنت يا محمد لا ينازعنك في الأمر أي لا يجوز لهم، هنا فلا ينازعنك، هذه "ناهية" لهم، أي لا تنازعونه فلا ينازعونه، النون هنا هي نون التوكيد الثقيلة، يعني لا تنازعوه فلا ينازعنه في الأمر، **﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى**

﴿هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ لأنه لا يمكن أن تكون هنا الأمر هي النبوة والرسالة، لا يستطيع أحد أن يقول لا، أنت يا محمد قف على جانب، أنا الذي أدعو إلى الله؛ تدعو بماذا؟ لا وحي ولا علم ولا فهم ولا حكمة ولا أي شيء، فإذاً النزاع في الموقعية على أرض الواقع التي تمكّن من الدعوة إلى ربك ﴿فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الامْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾.. وقد وجدنا أنه ﷺ لم يستطع أن يدعو كما يشاء ولو بـ ١٪ وهو في مكة إلى أن ذهب إلى المدينة وتمكن وصار هو ولي الأمر، صار ولي الأمر الحاكم وهو ولي الأمر المعصوم، ولي الأمر الذي يأتيه الحكم الشرعي بُسطت يده استطاع أن يدعو إلى ربه ما يحب.

آيتا أولي الأمر وآيات الأمة المسلمة

فهذه الآية ﴿فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الامْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ كلها مربوطة بالأمة المسلمة وآيتا أولي الأمر قيد البحث.

وهذا أيضاً يذكرني برواية عن الصحابي عبادة بن الصامت رضي الله عنه وهو الصحابي الأنصاري العقبي من كبار الذين بايعوا رسول الله ﷺ في العقبة. أكثر الروايات الشهيرة تقول الذين بايعوا رسول الله ﷺ "أن نمنعه مما نمنع منه نساءنا وأطفالنا"، إلا أن عبادة بن الصامت، لأنه لا يريد أن يخفي شيئاً والحمد لله أن الرواة عنه لم يخفوا هذه الجزئية، أيضاً قال:

«بايعنا رسول الله على أن نمنعه .... وعلى أن لا ننازع الأمر أهله».

(وهذا حديث مهم جداً أخرجه البخاري في صحيحه، ح٧٠٥٦، ومثله على اختلاف يسير ح٧١٩٩ ومسلم في صحيحه ح١٨٤٣، يقول فيه عبادة رضي الله عنه: «بَايعْنَا رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم علَى السَّمعِ والطَّاعةِ في

العُسْرِ واليُسْرِ، والمنشَطِ والمكرَهِ، وعلى أثرةٍ علينا، وعلى أن لا نُنازِعَ الأمرَ أهلَهُ إلَّا أنْ تروا كفرًا بواحًا عندكم مِنَ الله ـ تعالَى ـ فيه برهانٌ، وعلَى أنْ نقولَ بالحقِّ أيْنَما كنَّا لا نخافُ في اللهِ لؤمةَ لائمٍ»).

مهم جداً جداً؛ كيف؟

لأن رسول الله صلى الله عليه وآله كان في أشد الحاجة إلى النصرة ويأتيه الأنصار يفتح الله تعالى عليه هذا الطريق إلى يثرب لتكون هي القاعدة له، فعلى الأقل المتوقع أنه لا يذكر هذه المسألة، إذ لا يعقل أن أناساً يأتون إليك يفتحون مدينتهم مع ذلك تقول تبايعوني أن الأمر يعني الحكم هنا، أن الأمر هذا بعيد عنكم ليس لكم، لأن هناك احتمالاً قوياً أن يقولوا له لماذا نحن نفتح لك مدينتنا وتأتي ونجعلك أنت المتحكم فينا والمهيمن على مجتمعنا وماذا تأمر نحن نأتمر، تنهى نحن ننتهي، ثم حتى لا يكون لنا نصيب في الأمر؟ عبادة بن الصامت يقول: «بايعناه على أن لا ننازع في الأمر أهله».

فهذا لا يعني سوى شيء واحد فقط: أن ولاية الأمر من ضمن «النص الإلهي» وليس باختيار الناس.

❊

بعض مصادر البحث

فيما يلي ذكر بعض مصادر الروايات التفسيرية أو آراء المفسرين، سواء المؤيدة لما ذهبت إليه أو المخالفة له أو المعارضة له، التي تضمنها البحث أعلاه:

- تفسير الطبري
- مصنّف ابن أبي شيبة كتاب الفضائل ج١٨ ح٣٢٧٨٢
- ابن عساكر تاريخ دمشق، باب علي بن أبي طالب
- صحيح البخاري ح٧٠٥٦، ح٧١٩٩
- صحيح مسلم ح١٨٤٣.

الفصل الخامس والعشرون
آيات يوم الغدير

من الآيات التي ليست بالوضوح كغيرها من بعض آيات الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام المشخصة بالعترة الهادية من آل محمد صلى الله عليه وآله، على أهميتها في الحدث المرتبطة به، هي الآيات المرتبطة بيوم الغدير.

هناك ثلاث آيات، آية وآية أخرى ومجموعة آيات.

نصوص الآيات المباركة

النص الأول / هو نص إكمال الدين. جزء الآية المعني هو:

﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الاسْلامَ دِينًا﴾ المائدة:٣.

الملاحظ في هذه الآية أن ما قبلها يتحدث عن الطعام، محرّمات الطعام وغيرها ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالازْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾؛

ثم يقول: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الاسْلامَ دِينًا﴾؛

ثم يقول: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

النص الثاني / الثانية ما نسميها آية البلاغ وهي:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ المائدة:٦٧.

النص الثالث / وتسمى آيات السائل:

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ . لِلْكَافِرينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ . مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ المعارج: ١-٣.

الفهم من اللغة

الآية الأولى / آية إكمال الدين

هناك مجموعة من المحرّمات تستغرق نصف الآية، ثم الجملة الأخيرة من الآية أن الذي يضطر في جوع ولا يريد الإثم أبيح له أن يتناول هذه المحرمات (محرمات الطعام من الميتة والدم ولحم الخنزير، كلها من طعام ما عدا الاستقسام بالأزلام، أي النظر في الحظ أو التفأُّل كما يفعل أهل الجاهلية).

فجزء الآية قيد البحث ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الاسْلامَ دِينًا﴾ ـ إن كان له علاقة بهذا ـ كما يقولون ـ فإن من العجيب أن الكافرين كانوا غير يائسين من أن ينالوا من الدين الإسلامي إلى أن تنزل تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة! أو أنهم لم ييأسوا من الدين الإسلامي لم ييأسوا من الطعن في الدين إلى أن حصل هذا! فكأنما يئسوا أن الإسلام سينهزم، أي أنه قد ثبت، أو يئسوا من التأثير على الإسلام؛ بالحالتين غير صحيح.

أما التأثير على الإسلام فلم يزالوا يؤثرون على الإسلام، على أن المسلمين كان فيهم البركة ولم يقصّروا في التأثير على دينهم كي يحتاجوا إلى الآخرين (!)، مع ذلك فإن الآخرين استطاعوا.

وأما إذا كانت القضية لا يستطيعون هزيمة الإسلام بعد ذلك، فهذه المجموعة من المحرّمات ليست أول مرة تحرّم في القرآن، لأن هناك آيات قبل ذلك نزل فيها تحريم لحم الخنزير ـ قال تعالى:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الأنعام:١٥١.

فلماذا لم ييأس الذين كفروا هناك في القضايا الأهم أن ﴿لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، أو التعامل مع الوالدين ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، بينما ييأسوا من هذه الأمور؟ فمن الممكن أن يكون الإنسان المسلم في مكان ليس فيه ميتة ولا لحم خنزير، فكم من المسلمين سيكون في حالة ابتلاء ويأتون ويقولون هذه متردية من جبل؟ هذه نطيحة قتلت بنطح؟ أصلاً الاحتمالات قليلة جداً، فما بال الكافرين لم ييأسوا من أن يسقطوا الدين الإسلامي بالمهم والآن يئسوا بهذه الأمور الثانوية؟ فهكذا تفسير غير ناهض أصلاً.

ما يعضد هذا أنه تعالى يقول ﴿فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾، لا تخافوا منهم، من الآن لم يعد هناك خشية؛ كيف لم يعد هناك خشية؟ لا تحتاج لهذه الأمور.

ثم أن ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الاسْلامَ

دِينًا﴾ هذه كلها أمور سبق أن كانت من المحرّم فإذا وردت المنخنقة والموقوذة الآن وهم كانوا يأكلون، هل هذا يكمل به الدين؟ لم يقل أحد من المسلمين من مفسرين من محدثين أن معالم الإسلام الأساسية ليست فقط الأركان إنما أيضاً الفروع، لم يقولوا أن هذه هي المعالم الرئيسية أو هي الأعمدة أو هي الأسس التي بها يرضى الله تعالى بالإسلام ديناً! فهذا الكلام غير ناهض من هذه الناحية أيضاً.

فلا يبقى إلا أن نذهب إلى البيان الرسولي بأن نفضّ التنازع لأن الآية غير واضحة، فسنجد الروايات التي تفسر لنا مراد هذا الجزء من الآية. على أننا لا نريد أن نتكلف كلاماً على آيات القرآن الكريم دون دليل من القرآن في هذه البحوث، وإلا فإن هناك روايات متعددة تبين المطلوب. المهم هو أن من الواضح أنه لا يمكن أن يكون يأس الذين كفروا ولا يمكن أن يكون رضى الإسلام ديناً لهذه الأمور.

فلماذا وقع هذا النص في وسط هذه الآية؟ هذا نظير ما هو موجود في غيرها ويجب أن يُبحث (والذي يستحق أن يفرد له بحث مستقل، مثلاً لماذا أن آية التطهير ضمن آية من آيات الخطاب مع نساء النبي صلى الله عليه وآله؟ أو لماذا أن آية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ التوبة:١١٩ تقع وحدها ضمن آيات الحديث عن أهل الكتاب، آيات قبلها وآيات بعدها؟ وغيرها من آيات يلتفت إليها حتى من يقرأ وهو خالي الذهن من مثل هذه الأبحاث)، لا بد أن يكون هناك علاقة بهذا السياق ولكن ليس هو هذه العلاقة هو التفسير.

الآية الثانية / آية البلاغ، وهي شيء آخر، هذه نستطيع أن نقطع فيها أن

البدائل المطروحة هي بدائل خطأ. فماذا قالوا في آية البلاغ؟

قالوا ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ هنا جاؤوا ببديل لهذه ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ وجاؤوا ببديل لـ ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

أما بديل ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ فقالوا أن المقصود بالرسالة هي الرسالة الإسلامية ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾. هذا الكلام مردود بأبسط نظر، نردّه بأمرين:

الأمر الأول: أن الجميع يقولون أن هذه الآية من الآيات المتأخرة، على الأقل هي مدنية، فعندما يقول ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، هل أن الله تعالى وجد منهﷺ قصوراً في التبليغ؟ حاشاهﷺ من ذلك ـ فمنذ اليوم الأول ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ المدثر:١ ـ ٢ لم يألُ جهداً في ذلك لحظة من حياته حتى عانى ما عانى، فما معنى أنه بعد هذه السنوات الطويلة يأتي فيقول له ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ وهو يقصد تبليغ القرآن؟ فهذا الوجه غير صحيح بالمرة، نقطع به قطعاً يقينياً.

ثم نردّه بالآتي:

﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ إن كان بلّغ ما أنزل إليه أي الرسالة فإن الله تعالى ماذا يقول؟ «بلِّغ الرسالة وإن لم تفعل فما بلغت الرسالة»! يعني كأنما قول الشاعر:

كأننا والماء من حولنا قومٌ جلوسٌ حولهم ماءُ!

فبالتأكيد أن ما أنزل إليه يعني الرسالة، فما معنى ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ

رِسَالَتَهُ﴾؟ الشخص العادي لا يقول هذا الكلام وليس البلغاء فكيف بالقرآن الكريم على بلاغته العظيمة، لا يوجد منه حرف واحد بل حركة على الحرف إلا لغاية محكمة لا غبار عليها، هذا كلام سيكون لا معنى له، لا فائدة منه أصلاً.

إذاً عندما يأمره ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ فهو يتكلم عما أنزل بشيء محدد، وأن هذا الشيء إن لم تقم بتبليغه، هو من الأهمية بمكان كأنك لم تبلغ الرسالة كلها. فماذا يعني هذا الربط مع الرسالة؟

يعني أنك إذا بلّغته فالآن صارت الرسالة قد بُلّغت، الآن ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الاسْلامَ دِينًا﴾ المائدة:٣ ـ أي أن الآية ٦٧ من سورة المائدة هي التي تلقي الضوء على الآية ٣ من نفس السورة المباركة.

هذا الشيء إن لم تبلّغه فما بلّغت رسالته وكأنك لم تفعل شيئاً، فإن بلّغته فقد بلّغت الرسالة. فإذا بلّغت الرسالة كاملة فعندها، وعندها فقط، قد حصل رضا الله تعالى بالإسلام ديناً بعد أن أكمله وأتم النعمة، وبذلك، بذلك فقط، يمكن القول ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾.

الآن قد تم الدين بشكل لم يعد هناك معه مجال للنيل منه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لماذا نقول «بعد» رسول الله صلى الله عليه وآله؟ لأن هذه آية نحن نقول أنها نزلت بعد أن أتم النبي صلى الله عليه وآله بيعة الغدير حيث نصّب صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام في ١٨ ذي الحجة، أي بعد أسبوع من حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة. كانوا قبل ذلك يقولون إذا مات محمد نحن نفعل ما نشاء، نصبر عليه إلى أن يموت؛ الآن لا، نُصِّب التتمة من بعده فأصبح هناك يأس، يئس الذين كفروا أن يفعلوا شيئاً بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

وهذا الذي حصل، بالفعل اضطروا لأن يخضعوا، البعض خضع حقيقة ثم حسن الإسلام في قلبه وحسن إسلامه، والبعض الآخر خضع ظاهرياً لأنه لم يعد هناك مجال من الظهور بالكفر، ﴿يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ ماذا يفعلون وقد يئسوا؟ دخلوا في الدين.

فالبديل الذي جاؤوا به لتفسير جزء ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ من آية البلاغ باطل تماماً.

أما جزء الآية ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فقد جاؤوا له بتفسيرين:

الأول، ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي يعصمك من أن يؤذوك بسبب ما تبلغه من الإسلام. هذا باطل لأنه لا تنزل إليه العصمة بعد كل هذه السنين، الأحرى أن تنزل العصمة من البدء، لماذا يعصمه بعد أن بلّغ وبعد أن صار العهد المدني وبعد أن تمكّن وأصبح هو أقوى من الناس بغض النظر من يكونون؟ إذاً هذا باطل.

الثاني مما جاؤوا به، ويبدو أنه سائد وأكثر ما ينشرونه بين الناس، أن العصمة من الناس، هي العصمة من السِّحْر، يقومون بعمل سحر يؤثّرون فيه عليك. وهذا باطل أيضاً؛ لماذا؟ أولاً لأن العصمة من السحر مما يجب أن يكون في البدء أيضاً؛ ثانياً لأننا نعتقد أن هذا كلام باطل — فمن المستحيل أن يؤثر السحر على رسول الله صلى الله عليه وآله. وذلك، لأنه إذا كان يؤثر عليه السحر ـ كما رووا في أحاديثهم الكاذبة أن السحر أثّر عليه حتى كان يأتي الشيء ولا يدري أنه يأتيه ويأتي النساء ولا يدري أنه أتى النساء (!) هذا معناه أننا لن نعلم ما حصل معه في تلك الأيام، أي أحاديث أية أوامر أية نواهٍ صدرت منه وهو

على هذه الشاكلة؟ من المستحيل أن يكون هذا.

وبالتالي ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ يعصمك من الناس الذين لا يريدون هذا الأمر الذي أنزل عليك والذي أنت تريد أن تبلّغه، ولكنك تعلم بما في صدورهم أو في صدور البعض منهم.

ولو أردنا أيضاً أن نرد ذلك بقضية الناس، ﴿يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ بالسؤال التشخيصي: من هم الناس؟

الناس هم إما قريش والأحزاب، وكان قد هزمهم رسول الله صلى الله عليه وآله فلا يخشى منهم.

وإما أنهم اليهود، حيث يسميهم القرآن أحياناً بكلمة الناس كما في الآية ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ آل عمران:١٧٣ قصد بهم اليهود وقريش في قضية نعيم بن مسعود الأشجعي عندما جاء وحذّر النبي صلى الله عليه وآله من المؤامرة قبيل معركة الأحزاب، ولكن اليهود أجلاهم صلى الله عليه وآله ولم يعد هناك مشكلة. بل وإننا وجدنا أنهم كانوا أضعف جنداً وأضعف حيلة مع رسول الله صلى الله عليه وآله، في جميع تلك المؤامرات بنو قينقاع وبنو قريضة وبنو النظير لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً. إذاً، الناس في الآية ﴿يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ليسوا اليهود.

فإذا كان الناس هنا هم غير اليهود، هم غير قريش، هم غير الأحزاب، فمن هم الناس إذاً؟ من الذي بقي من البشر في واقع النبي صلى الله عليه وآله؟

إذاً هم ناس «من المسلمين»، وإذاً السبب الذي كان وراء طلب النبي صلى الله عليه وآله أن يأتيه جبريل عليه السلام بالعصمة من الناس ـ كما في الروايات ـ أن هؤلاء لن يرضوا ما نزل، الذي هو في شأن علي عليه السلام. ثم جاء واقع الحياة بعد

رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ليثبت ذلك تماماً، إذ رفض بعض المسلمين نتائج بيعة الغدير.

الآيات الثالثة / أول سورة المعارج

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۞ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۞ مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ المعارج: ١ ـ ٣؛ هنا ذكروا فيها روايتين:

إحداها أن شخصاً، قبل معركة بدر بمدة، لعله في مكة، قال: يا رسول الله هل هذا ـ أي هذا الكلام والقرآن والإسلام ـ هو من عندك أم من عند الله؟ قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بل من عند الله، فقال الرجل: «اللهم إن كان هو الحق من عندك»، يعني فيه تحدّ وأنه لكي يثبت، أنزل علينا عذابك، أنزل علينا عذاباً من السماء...

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي أن السائل يسأل بعذاب واقع، قالوا بعد ذلك أنه قُتل في بدر. نحقق فيه، نجده ممكناً.

إلا أنهم رووا روايات أخرى تختلف، أن هذا إنما حصل بعد ذلك بسنوات، بعد بيعة الغدير، وحددوا السائل «الحرث بن النعمان الفهري» أنه جاء إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ... ولأورد النص من تفسير الثعلبي قال أنه أتى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وهو في ملأ من أصحابه فقال: «يا محمد أمرتنا أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقبلناه منك، وأمرتنا أن نصلي خمساً فقبلناه منك، أمرتنا بالزكاة فقبلنا، أمرتنا بالحج فقبلنا، أمرتنا أن نصوم شهراً فقبلنا، ثم لم ترضَ بهذا حتى رفعت بضبع ابن عمك ففضلته علينا وقلت من كنت مولاه فعليٌّ مولاه؟ هذا شيء منك أم من الله تعالى؟» فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «وَاللهِ الّذي لا إلهَ إلاّ هُوَ هذا مِنَ الله»، فقال الحرث بن النعمان: «اللهم إن كان ما يقوله حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم»، فما وصل إليها أي إلى

راحلته إلى الناقة حتى رماه الله بحجر فسقط على هامته..إلخ، فأنزل الله سبحانه ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾.

وكعادتهم في تضعيف الروايات عندما تكون في شأن عليعليه السلام، ماذا حاول بعضهم؟ يذكر الرواية لكن يستعمل «وقيل أن هذا حصل» كأنما «قيل» يعني قالوا، يعني حكاية ليست مؤكدة. أسأل: إذا أنت ترضى أن هذا ضعيف لماذا ترويه؟ لماذا؟ يعني من التقوى؟ كأنما قوله طائر! طبعاً الله تعالى يجعلهم يذكرونه لأن لله الحجة البالغة، ولا أحد يستطيع أن يتغلب على الله تعالى، فهذا شيء غير ممكن لأنه ﴿غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ﴾ يوسف:٢١.

القرطبي أضاف «قيل»، ولكن هذا غير رواية الثعلبي ثم شواهد التنزيل الحسكاني وغيره، ذكروا أن هذا الذي نزل، لكن يبقى في ظاهر الآيات، يبقى كلا الإحتمالان.

الآيات المباركة وآيات الأمة المسلمة

هذه الآيات وحادثة الغدير فيها أعظم الربط مع دعاء إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام، لأن في الغدير نصّب رسول اللهصلى الله عليه وآله بأمر من الله تعالى علياًعليه السلام وأولاده الأئمة من بعده، نصبهم همعليهم السلام الأئمة، همعليهم السلام أولو الأمر، همعليهم السلام الذين تجب طاعتهم على جميع المسلمين، والمقام ليس لبيان الغدير، لكن صارت لهعليه السلام الولاية على الناس، نفس الولاية التي لرسول اللهصلى الله عليه وآله.

ذلك لأن الرسولصلى الله عليه وآله عندما وقف في الغدير قام أولاً بإشهاد الناس «أَلَسْتُ بأولى بِكُم مِن أنفسِكُم؟» القرآن يقول: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ الأحزاب:٦، فقالوا: «بلى يا رسول الله»، عندها قالصلى الله عليه وآله: «فَمَنْ كُنْتُ مَولاهُ فهذا

عليٌّ مَولاه»، وهو رافع يد علي عليه السلام. ما جعل لعلي عليه السلام الولاية على المسلمين، على كل مسلم، مقدمة على ولاية ذلك المسلم على نفسه، يأمرك بأمر فيه هلاكك علماً أنه لا يجوز أن ترمي بنفسك إلى التهلكة، لكن إذا جاء الأمر ممن له الولاية عليك أكثر، تفعل ذلك، هذا معنى ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾.

هنا عندما نصّب صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام أمام هذه الجموع فهذه كانت الترجمة الرائعة الكبرى لكلمة يزكّيهم في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ البقرة:١٢٩ هذا تعليم علي عليه السلام، تعليم رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام طيلة هذه السنوات الطويلة ٢٣ سنة عمر الدعوة. بعد التعليم ماذا؟ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يزكّيهم إلى الناس، «هذا عَليّ يُفَهِّمُكُم بَعدِي» (بحار الأنوار ج٣٧، ص١٢٧)، هذا هو الهادي من بعدي، فتزكية رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي يوم الغدير هي المعنى الكامل لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في هذه الأمة الذرية المسلمة من ذريتهما أن تكون هي الصفوة الهادية للناس والتي عندما يبعث الرسول فيهم في نفس الدعاء يقوم بهذه الوظيفة من تلاوة الآيات إلى تعليم الكتاب والحكمة وتنتهي إلى هذه القمة في الحدث يوم الثامن عشر من ذي الحجة السنة العاشرة للهجرة بتزكية علي عليه السلام إلى الناس.

فهذه الآيات آيات الغدير فيها بحوث طويلة ولكن هنا هذه الخلاصة تكفي لهذا الغرض ان شاء الله تعالى.

*

بعض مصادر البحث

فيما يلي ذكر بعض مصادر الروايات التفسيرية أو آراء المفسرين، سواء

المؤيدة لما ذهبت إليه أو المخالفة له أو المعارضة له، التي تضمنها البحث أعلاه:

- الطبري في تفسيره ج٣ ص٤٢٨.
- الثعلبي في تفسيره.
- الفخر الرازي في تفسيره ج٣ ص٦٣٦.
- الآلوسي في تفسيره ج٦ ص٦١.
- أحمد بن حنبل في مسنده ج٤ ص٢٨١.
- البيهقي في سننه ج١٠ ص١٤.
- الهيثمي في مجمع الزوائد ج١ ص٩ وغيرها.
- البخاري في تاريخه ج١ ص٣٧٤ رواية ١١٩١، ج٤ ص١٩٣ ورواية ٢٤٥٨، ج٦ ص٢٤٠ رواية ٢٢٧٧.
- الذهبي في تذكرة الحفاظ ج١ ص١٠، ج٣ ص١٠٤٣.
- الشهرستاني في الملل والنحل.
- إبن عساكر في تاريخ دمشق من عشرات الروايات في الأجزاء ١٣، ١٨، ٢٥، ٤٢.
- سير أعلام النبلاء ج٨ ص٣٣٤ و ج١٣ ص٣٤٠ و ج١٩ ص٣٢٨ وغيرها.
- السمهودي في وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ج٢ ص١٧٣.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

القسم الخامس
آيات أخرى
في الأمة المسلمة

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

الفصل السادس والعشرون

آية ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾

الآية التي تستخدم كلمة أمّة آية شهيرة جداً، آية صفة «الخيرية» كما يسمونها:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ آل عمران:١١٠.

تحليل الآية

في تحليل سريع لنص الآية، هناك:

١/ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، ثم

٢/صفات ثلاث ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ، ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ، ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾.

مما يناسب الإلفات إلى أن مفردة «الأُمّة» تأتي في القرآن العظيم بمعاني مختلفة في حجمها:

ـ فهناك معنى «الفرد الواحد» ﴿إِنَّ إبراهيم كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لله حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ النحل:١٢٠؛ إن إبراهيم عليه السلام كان وحده أمة، في إشارة إلى أن الفرد بموقفه هو يمكن أن يكون أعظم أثراً من الكثرة من الجماعة الكبيرة، إذ ربما

كانت الجماعة كبيرة لكنها عند الله تعالى ضعيفة، وفرد واحد أعظم منهم جميعاً، بل ربما يكون الفرد الواحد على الصراط المستقيم والجماعة في خط الضلال.

ـ ثم تأتي مفردة «الأُمّة» بمعنى «الجماعة من الناس» في قصة موسى عليه السلام **﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾** القصص:٢٣، فهناك وجد «أمة يسقون»، أي لما ورد ماء مدين، قوم شعيب عليه السلام، ما كانوا كلهم يسقون، جماعة من عدة أفراد أو أكثر بما لا يتجاوز العشرين أو الثلاثين شخصاً مثلاً، واقفون يسقون عند مكان سحب الماء من البئر.

ـ ومنها أيضاً ما يؤكد أنها «جماعة في الأمة الكبيرة» **﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾** الأعراف:١٥٩، جماعة محدودة من ضمن قوم موسى عليه السلام، أو أمة ضمن أمة موسى عليه السلام، فرّق بين الأمة التي تتبع موسى عليه السلام أو التي هي مرتبطة بموسى عليه السلام سواء كانت بني إسرائيل أو الذين دخلوا في دين موسى عليه السلام سمّاها القوم، ومن هؤلاء القوم هناك جماعة فقط هم الذين **﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُون﴾** (أي أن الحقّ يهدون إليه ويهدون به، وبه يحكمون بالعدل)، هذه جماعة واحدة فقط يعني مفروغ منه أن لا تكون الأمة الكبرى القوم يفعلون هذا.

إذاً الأمة تأتي بمعنى الفرد، كما تأتي بمعنى الجماعة وهو قول إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام الذي أثبتناه في أساس البحث **﴿ومِنْ ذُرِّيَتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَك﴾** البقرة:١٢٨ كون هذه الجماعة من ذريتهما عليهما السلام فلا يمكن أن تكون الأمة

الإسلامية كلها التي دخلت في الدين الإسلامي، في رسالة النبيﷺ. وبالتالي الكلام من رسول اللهﷺ، في نفس هذا الدعاء الإبراهيمي الاسماعيلي، في تزكية هذه الأمة ﴿يَتلُو عَليهِم آياتِكَ ويُزكِّيهِم﴾ بأشكال مختلفة، أن هناك جماعة هي التي تتصف بهذه المواصفات العليا.

بدائل تفسير «الأُمّة» في الآية المباركة

هناك بدائل وضعوها مقابل تفسيرنا أن «الأمة» في هذه الآية المباركة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ هي الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام التي دعوا الله طلباً لها، و جميعها ضعيفة في المقام، نذكرها واحدة واحدة. ما ينبغي الإلفات إليه أن هذه البدائل تكاد تكون جميعها غير معروفة للناس.

نذكر أولاً القول الشائع السائد، ثم نذكر البدائل الأخرى.

* القول الشائع السائد لهذه الآية، أن «الأمّة» هي الأمة الإسلامية، أي جميع من قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله هو من ضمن هذه الأمة، ومجموع هؤلاء هي هذه الأمة التي هي ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾؛ هذا هو الفهم السائد، وهو أول البدائل. وهو قول باطل، يتضح بطلانه مما سيأتي في الأقوال التالية (خلاصته أنه لا يمكن أن يكون جميع المسلمين يتصفون بهذه الصفات الثلاث).

فإذا جئنا إلى البدائل الأخرى ـ أي التي هي ليست مشهورة بين الناس ـ نجدها على سبعة أقوال:

* القول الأول: أن خير أمة أخرجت للناس هم المهاجرون من الصحابة،

فقط هم المهاجرون. طبعاً هذا باطل لأنهم ليسوا كلهم يتصفون بهذه المواصفات يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فقد وجدنا أن من الصحابة من فعل عكس ذلك بنص القرآن، وبعضهم سقط في النفاق كما قال القرآن وكما دلت السيرة.

* القول الثاني: هم ليس فقط المهاجرين، بل هم الصحابة عموماً، قالوا الصحابة ومن صنع مثل صنيعهم. هذا القول فيه أمران:

١ ـ أنه يستند إلى نظرية «عدالة جميع الصحابة» بحيث أنه مهما صدر من أي صحابي من فعل مخالف للدين فإنه يبقى ثقة عدلاً، حتى ولو خاض في الفتن والدماء. هذا باطل لأنه يخالف واضحات الآيات القرآنية والكثير من الأحاديث النبوية الصحيحة كأحاديث الحوض.

٢ ـ أنه يعضد القول أن الأمة هنا هي جماعة وليس كل من يشهد الشهادتين، فلا يجوز الاعتراض عندما نقول أن هذه الجماعة محددة بشكل أكثر تخصيصاً.

* القول الثالث: أنهم الصحابة وفي إضافة لهذا أنهم الرواة يعني تعبير ذلك أنهم الرواة الدعاة الذين أمر الله المسلمين بطاعتهم. وهذا القول باطل، أولاً لما تقدم أن في الصحابة مَن أمر بالمنكر ونهى عن المعروف، ولا نريد أن نأتي بأسماء ولكن السيرة معلومة. ويكفي أن نقول أن الصحابة عندما وقف بعضهم إزاء بعضهم يتقاتلون، من المستحيل أن يكونوا في هذه الحالة هم في حالة بالأمر عن نفس المعروف ونهي عن نفس المنكر، بل كانوا على العكس تماماً. إذاً، لا يمكن أن نطبق هذا على ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

أما إذا كان الشرط الآخر وهو أنه أمر الله بطاعتهم، فهذا ينطبق فقط على الأمة الذرية المسلمة من آل محمد صلى الله عليه وآله وليس غيرهم، لأنهم هم الرواة الدعاة الذين أمر الله المسلمين بطاعتهم، كما جاء في نصوص الآيات من موقعيتهم ومن تزكية النبي صلى الله عليه وآله لهم في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كونهم في الدرجة العليا من الإسلام، وكما في البيان الرسولي من أحاديثه صلى الله عليه وآله الكثيرة المتنوعة في ذلك في قوله وفعله.

* القول الرابع: قالوا أن هؤلاء هم المسلمون كلهم، هم المسلمون خير أمة، لماذا؟ لأنها أكثر الأمم استجابة للإسلام. وهذا أيضاً باطل، لأن هذه الصفات يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله لو سلمنا أنهم كلهم يؤمنون بالله، نخرج منهم المنافقين الذين على النفاق التام، فليسوا كلهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وإلا لما قال رسول الله صلى الله عليه وآله لنا: «والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بالْمَعْرُوفِ، ولَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلا يُسْتَجابُ لَكُمْ» (صحيح الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ح٢١٦٩).

* القول الخامس: مشابه له، وهو أنهم المسلمون لأنها آخر الأمم وأكرمها على الله. هذا القول ممكن، على أساس أن الأمة بشكل عام هي الأمة التي تتصف بالتوحيد الخالص مقارنة مع الأمم الأخرى، إلا أن أكثرية الأمة لا تتحقق بهم هذه الشروط الثلاثة، فهناك منهم من يتشهد الشهادة ظاهراً بينما في دواخلهم لا يؤمنون بالله أصلاً، فكيف إذا جئنا بقضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ فإن الكثير الكثير يخرجون منها بل الأكثر.

* القول السادس: عن عكرمة، قال نزلت في ابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة وأُبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل، أي وضعها في أربعة فقط. هذا القول باطل لأنه يعني أن هؤلاء الأربعة فقط هم خير أمة، فلا تنطبق هذه الصفات الثلاث ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمُعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِالله﴾ إلّا عليهم.

البحث ليس لمعرفة أسباب هذه الأقوال، ولكن أقول: الله وحده يعلم لماذا قال عكرمة ذلك، فقد كان الرجل منحرفاً عن علي عليه السلام، كان يرى رأي الخوارج كما روى المؤرخون. على أننا نعلم أن اثنين من هؤلاء الأربعة كانا منحرفين عن علي عليه السلام، سالم بن أبي حذيفة ومعاذ بن جبل (والمقام لا يتسع لبيان ذلك)؛ وثالث الأربعة ابن مسعود فيه قولان: البعض يقول أنه كان منحرفاً عن علي عليه السلام، والبعض الآخر يقول كان معه ولكنه لم يجاهر؛ فقط أُبيّ بن كعب رضي الله عنه كان من أنصار علي عليه السلام.

فهذه مجموعة غير متجانسة بالموقف أصلاً، فكيف جمعها عكرمة هذه الجمعة بأنها خير أمة أخرجت للناس؟! ولكن من يقبل بهذا بحيث يضعونه في التفاسير ؟

على أن من يقبل التشخيص بأربعة رجال عليه أن يقبل عندما نشخّص ونقول أنهم أئمة الهدى عليهم السلام من آل محمد، أو الأئمة عليهم السلام والزهراء عليها السلام، أي المعصومون من أهل بيت محمد صلى الله عليه وآله، العترة الهادية التي قارنها بالكتاب؛ من يقبل أربعة ممن (أ) لم يقل أحد بكمال أفعالهم تماماً (ب) عدم تجانس مواقفهم في الأحداث (ت) ليس لهم هذه المنزلة حتى عند المسلمين عموماً مقارنة مع منزلة أهل البيت عليهم السلام، عليه أن يقبل هذا من عندنا...

مع الأسف، لم نجد أنهم أنكروا هذا على عكرمة، بخلاف الشيء عندما يخص علياًعليه السلام، عندها يقومون ولا يقعدون!

* القول السابع: والأخير أن المعنى أنتم خير أمة إذا كنتم بهذه الشروط. هذا يدعم القول بأن في الأمة ذرية مسلمة أنه أنتم ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ إن كنتم ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾، بعبارة أخرى يدعم القول، أن هؤلاء الأمة يجب أن تتصف بهذه الصفات.

إلا أن هذا الكلام لا يدعم النص، لأن النص يقول ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾، كيف يصبح المعنى أنتم خير أمة إن تحققت فيكم هذه الشروط؟ لا يصح أبداً، فلا يوجد تجانس بين النص القرآني والمعنى الذي ذهبوا إليه.

فـ ﴿كُنْتُمْ﴾ تشير إلى الماضي، وهذا الماضي إما يكون «كنتم في علم الله تعالى»، وهذا مقبول لا نستطيع أن نرده، أو يكون «كنتم هذه الجماعة أخرجت للناس، الخيرية فيها أخرجت في زمان ماض وهذا هو انطلاقتها سابقة»، ولكن انطلاقتها القرآنية واضحة، (لأنه سنأتي إلى آيات أخرى تدعم القول أن ذلك الاصطفاء للأمة الخيرية كان من قبل الخلق)، فانطلاقتها القرآنية في دعاء إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام.

إذاً، يمكن القول كنتم أنتم الخيرية أخرجت للناس في زمان ماضٍ، أو في علم الله، الاثنتان تتوافق، والاثنتان يمكن تطبيقهما على الذرية الأمة المسلمة من آل محمدصلى الله عليه وآله، بشروط هذه الخيرية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.

وينبغي القول إنّ هذه الشروط الثلاثة يمكن تطبيقها على غير الذرية من

آل محمد صلى الله عليه وآله، فإن هناك الكثير من المسلمين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله إيماناً تاماً، ولكن هذا الكلام هنا عن أمة جماعة أخرجت للناس في وقت ماض، هذا الكلام عن الذين يتصفون بهذه الصفات بالمستوى الأعلى، فكما أن كلمة مسلمة في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هي ذاتها كلمة مسلمة في أمة مسلمة تقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، على ما فيها من نقص، ولكن في الدعاء المقصود في مصطلح تلك الآية هو الأعلى في الإسلام.

كذلك الخيرية هنا هي الأعلى لأن الأعلى في الأمر بالمعروف، الأعلى في النهي عن المنكر، الأعلى في الإيمان بالله. ماذا يعني الأعلى؟ يعني:

(أ) أن معرفتهم بمواضع المعروف ومواضع المنكر كاملة.

(ب) أنهم يقومون بالأمر والنهي بما وسعهم ذلك ولا يقصرون.

(ت) أنهم يقومون بالأمر والنهي بالطريقة الموزونة الصحيحة طريقة الحكمة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) البقرة:١٢٩، هذه الحكمة وضع الشيء في موضعه، يكون الأمر بالمعروف متى؟ أين؟ كيف؟ مع من؟ كذلك النهي عن المنكر.

(ث) والصفة الثالثة ـ الإيمان بالله ـ أنهم وصلوا إلى الدرجة العليا، درجة الاطمئنان ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ البقرة: ٢٦٠.

فالأقوال الأخرى أنهم الصحابة أو المهاجرون أو أنهم الأمة الإسلامية كلها إنما هي مرتبطة بنفس الفهم الباطل أنها هي الشاهدة على الناس، بينما هي الذرية الابراهيمية–الاسماعيلية التي وصلت إلى القمة، وقلنا أن هذه الأمة

لا يمكن أن يطبق عليها هذا كله أنها أخرجت للناس لإقامة الشهادة على الناس بأنها تقوم وتتصف على هذا المستوى الأعلى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله، فتكون شاهدة على الناس.

فالأمة التي تتصف بهذه الخيرية قد أخرجت للناس منار هدى ثم تشهد على الناس ماذا فعلوا إزاء ذلك، كيف كانت ردة فعلهم لما قامت به هذه الأمة المصطفاة لهداية الناس إلى الله سبحانه وتعالى. فهذا فقط هذا الفهم هو الوحيد الذي يعطي هذا المعنى أنه ﴿كُنتُمْ﴾ ، ﴿خَيْرَ﴾ ، ﴿أُخْرِجَتْ﴾ ، وبهذه الصفات ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾، ما يتوافق في مفردة «الأمة» بما هو موجود في آيات أخرى، إنها أمة تعني الجماعة وليس الأمة الكاملة، قوم نبي من الأنبياء عليهم السلام.

❊

بعض مصادر البحث

فيما يلي ذكر بعض مصادر الروايات التفسيرية أو آراء المفسرين، سواء المؤيدة لما ذهبت إليه أو المخالفة له أو المعارضة له، التي تضمنها البحث أعلاه:

- تفسير أبي جعفر الطبري
- تفسير السعدي.

الفصل السابع والعشرون

آيات ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾

هذه الآيات من الآيات غير السائدة في البحث حول أهل البيت عليهم السلام لأن الدقة التي فيها هي دقة لغوية، فحتى مع الدقة اللغوية أيضاً هناك مجال لأن يكون هناك بديل أو بدائل معقولة غير التفسير بهم. لكن أهميتها تبرز من أنها إن كانوا هم المعنيين هنا، وحدهم أو كانوا هم مِن أهم مَن هو معني فيها، فإن هذا أهميته أنه حصل منذ قبل الخلق. وهي آيات علّم آدم الأسماء كلها.

النص المبارك

يقول تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آَدَمَ الاسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٣١ قَالُوا سبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ البقرة: ٣١ ـ ٣٣.

ماذا تقول اللغة؟

ما أخبرنا الله تعالى عن كلامه مع الملائكة قبل خلق آدم ورأي الملائكة ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ البقرة: ٣٠ معروف، ولكن الكلام هنا في هذه التعبيرات:

- ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الاسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ثم لم يقل «عرضها»، ولكن قال ﴿عَرَضَهُمْ﴾ - والضمير «هُم» هو ضمير العاقل؛

- ﴿عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ﴾ - و«هؤلاء» تطلق على العاقل وغير العاقل؛

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

ثم ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، ولم يقل «بأسمائها» -ولغير العاقل تقول أسمائها، يستخدم ضمير الجمع المؤنث، (مثلاً تقول: قفزت النمور و النمور قفزت، لا تقول النمور قفزوا، قفزوا هنا للعاقل، تستخدم قفزت هنا صيغة غير العاقل).

- ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ﴾ هذه الـ ﴿هُم﴾ للملائكة، ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ مرة أخرى لم يقل «أسمائها»، ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ﴾.

فإذاً، الآيات متوافقة في أنه هناك عاقل في الأسماء.

وعندما قال ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الاسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ وليس كلهم فلأن الأسماء غير عاقل، الاسم نفسه غير عاقل، «ذات» ذلك الاسم هو عاقل، ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾، يعني نقول كريم عاقل، هذا الذكر من البشر عاقل، إسمه كريم، الإسم غير عاقل، لذلك ﴿الاسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ . ﴿عَرَضَهُمْ﴾ هم الذَّوات، و ﴿أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، صار بأسماء هؤلاء الذوات، فلما أنبأهم آدم بأسمائهم هذه الذَّوات ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾.

ماذا يقول البيان الرسولي؟

كيف نعلم أن هذه تتعلق بالأمة الذرية المسلمة من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام؟

عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام (والذي لا يحدثنا إلا عن آبائه عليهم السلام عن

علي عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله):

«أن الله تعالى علّم آدم عليه السلام أسماء حجج الله تعالى كلهم، ثم عرضهم وهم أرواح على الملائكة فـ ﴿قَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ لأنكم أحقّاء بالخلافة في الأرض لتسبيحكم وتقدسيكم من آدم، فـ ﴿قَالُوا سبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾؛ قال الله ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، فلما وقفوا أي عرفوا وتعرفوا على عظيم منزلتهم عند الله تعالى ذِكرُه علموا أنهم أحقّاء بأن يكونوا خلفاء الله في أرضه، وحججه على بريته» (مجمع البيان للطبرسي، ج١-٢، ص٧٧).

هذه الآية ماذا تقول؟ هذا الحديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام يقول أن هذه الأسماء هذه الذوات العاقلة لأهل البيت عليهم السلام من محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله التي وهم أرواح عرفهم بآدم وعلّمه أسماءهم، ثم عرضهم على الملائكة إلى آخر الآية.

ماذا تقول التفسيرات الأخرى؟

تقول أنه عرض عليه أسماء ولده إنساناً إنساناً، والدواب فقيل هذا الحمار، هذا الجمل، يعني كل شيء؛

أو الإسماء التي يتعارف بها الناس، انسان ودابة وأرض وسهل يعني عناوين الخلق، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها؛

أو هي أسماء الملائكة؛

أو هي أسماء النجوم؛

كما قالوا أنها أسماء ذريته كلها.

وقد اختار المفسر الأشهر أبو جعفر الطبري أنه علّمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية، يعني سوية الاثنين، علّمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية لأنه قال ثم ﴿عَرَضَهُمْ﴾. قال الطبري: «لأنه قال أي الله تعالى ﴿ثُمَّ عَرَضَهُم﴾، وهذا عبارة عما يعقل، الذي يعقل عاقل وهذه الضمير هم».

ولكن اعتُرض عليه أنه ليس بلازم، فإنه يمكن أن يدخل معهم غيرهم ويعبَّر عن الجميع بصيغة العاقل للتغليب، يعني أنه أسماء الملائكة والذرية، ولكن يدخل معهم أسماء الجمادات والحيوانات والنباتات، ولكن يعبّر عن أسماء هذه الذرية بالتغليب أنه للعاقل.

ولكن هنا يجب أن نأتي بقول لابن عاشور في تفسيره يستدعي التوقّف عن أن نقطع أن الأسماء هي أسماء الأمة المسلمة في ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لا نقطع بذلك اعتماداً على قضية الضمائر.

(نقطة للإلفات: نحن هنا لا نتكلف بأن نأتي بالشاردة والواردة لدعم موقعية أهل البيت عليهم السلام، فلا نحتاج إلى ذلك، آية واحدة تكفي، آية التطهير أو آية الولاية تكفي، روايات الأئمة الاثني عشر تكفي، حديث أن علياً بمنزلة هارون من موسى تكفي، آية المباهلة تكفي، حديث الثقلين في صحيح مسلم وغيره يكفي، هذه لا تحتاج إلى دليل، لذلك نحن إنما نأتي بهذه لنثير هذه العناوين، بعضها نصل فيه إلى القطع، معظم آيات هذه الأمة المسلمة، وبعضها هم الأفضل مصداقاً لهذه الآية أو تلك).

يقول ابن عاشور: وإعادة ضمير المذكر العاقل على المسميات في قوله: (عَرَضَهُمْ) للتغليب لأن أشرف المعروضات ذوات العقلاء، وصفاتهم، على أن

ورود مثله بالألفاظ التي أصلها للعقلاء طريقة عربية نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ الإسراء:٣٦ لم يقل «تلك»، التي هي للمفردة المؤنثة لغير العاقل، بل قال كل أولئك الذي هو للعاقل، فيقول إن تعبير السمع والبصر والفؤاد هي معان غير عاقلة عبّر القرآن عنها للعاقل، أي أنها طريقة ممكنة في التعبير القرآني. إذاً يقول ان الاعتماد على الضمير «هُم»، عرضهم أسماءهم، لا يقطع بالضرورة أنها كانت ذوات عاقلة.

إذاً، الخلاصة (في تفسيراتهم المختلفة) تقول أنه يمكن أن تكون الأسماء لعناوين جميع الموارد من الخلق، وأن منها كمصداق للذوات العاقلة في المجموع هي أسماء محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله.

الآيات المباركة وآيات الأمة المسلمة

الأمة المسلمة هي المصداق الأهم في الذي جرى تعليمه لآدم في ذريته، أي:

- إن كان في تعليم آدم أسماء ذريته فهم الأهم.
- وإن كان في تعليمه الذوات العاقلة فهم الأهم.
- وإن كان التعليم هو لتعليم الأشياء عموماً، فإن العاقل هو الأهم والأفضل في العاقل هم الذين وصلوا إلى المستوى الأعلى من الإسلام، الذي دعا به إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

❊

بعض مصادر البحث

فيما يلي ذكر بعض مصادر الروايات التفسيرية أو آراء المفسرين، سواء

المؤيدة لما ذهبت إليه أو المخالفة له أو المعارضة له، التي تضمنها البحث أعلاه:

- مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي
- جامع البيان في تفسير القرآن لأبي جعفر الطبري
- تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

الفصل الثامن والعشرون

آية الحسد

من ضمن الآيات غير المشهورة من آيات الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، آية الحسد.

نص الآية الكريمة

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ النساء: ٥٤ .

تفكيك المجاهيل في الآية الكريمة

الآية لا تصرح لا باسم الحاسدين ولا من هم المحسودون ولا بموضوع الحسد.

﴿يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ هذه الواو واو الجماعة، الفاعل الحاسد والناس المحسودين، ﴿عَلَى مَا آتَاهُمُ﴾، إلى ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ لا تذكر.

ثم يأتي سبب الحسد ﴿عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾، ولكن لا يصرح إلى هنا بالفضل الذي آتاهم الله.

فالمجاهيل ثلاثة من هم الحاسدون، من هم المحسودون، وما هو سبب الحسد أو الفضل الذي حسد المحسودون عليه.

الاستفهام: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ﴾، هذا استفهام استنكاري، أي هو يستنكر عليهم

الحسد؛ لماذا؟ لأنه يأتي بالجواب عليه مباشرة ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ؟ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾. أي لماذا تحسدون هؤلاء على ما آتاهم الله؟ مثل ما آتينا آل إبراهيم، آتيناهم.. مثل ما آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة والملك العظيم، آتينا هؤلاء الذين تحسدونهم.

هنا التفسير الذي يناسب والذي نفهمه مباشرة عندما يقول مثل ما آتينا آل إبراهيم فلماذا تحسدونهم؟ لا بد أن يكون هؤلاء المحسودون هم المقابل لآل إبراهيمعليه السلام في أمة محمدصلى الله عليه وآله، وإلا تسقط الحجة. فعندما أقول لك «لماذا أنت فعلت هذا بعد أن اعترضت عليه مني؟» فإنها حجة منطقية، إذ لا يجوز لك، فلا ينتظر منك، أن تعترض عليّ بشيء ثم تقوم به؛ في حين لوقلت لك: «ما كان يجب أن تقوم بهذا الفعل وقد اعترضت عليّ عندما فعلت فعلاً آخر» ستقول لي: لا هذا شيء وهذا شيء وهو اعتراض صحيح.

فإذاً المناسب أن من يقابل آل إبراهيمعليه السلام في الإسلام هم آل محمدصلى الله عليه وآله، وذلك:

أولاً: عدم مناسبة التفسيرات البديلة (سآتي بها بعد قليل).

والثاني: يناسبه لأن آل محمدصلى الله عليه وآله هم أيضاً من آل إبراهيمعليه السلام، فهم مشمولون بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ آل عمران:٣٣، وآل الرجل نزولاً، فلا يوجد استثناء إلا بدليل، كما لا يوجد تخصيص في كل موضع إلا بما نعلمه من الناطق بهذا القرآن المبين وهو رسول اللهصلى الله عليه وآله، ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ آل عمران:٣٤.

الثالث: لا يمكن أن يكون جميع آل إبراهيم عليه السلام هم المقصودون، أي الجميع من آل إسحاق عليه السلام وآل إسماعيل عليه السلام، في الخطين الإسحاقي والإسماعيلي، لماذا؟

(١) لأن آية الحسد هذه في المدينة، فإذا كان الحاسدون هم اليهود كما قيل، فإن اليهود لا يحسدون آل إسحاق عليه السلام، إذا كان هؤلاء المحسودون هم آل إسحاق عليه السلام فاليهود لا يحسدونهم.

(٢) إذا كانوا من غير اليهود، من المسلمين، فما شأنهم بآل إسحاق عليه السلام؟

إذاً لا تنطبق هذه إلا على آل إبراهيم عليه السلام، ومن نسل إسماعيل عليه السلام، فالآل هم هذه الذرية المسلمة بدعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من ذريتهما. إذاً ليس فقط من آل إبراهيم عليه السلام، بل يجب أن يكونوا من آل إسماعيل عليه السلام أيضاً لأنهما عليهما السلام دعوا الدعاء المشترك أثناء بناء البيت الحرام... وإسماعيل عليه السلام موضعه في البيت وآل محمد صلى الله عليه وآله موضعهم في البيت في الحجاز، فهي تحيط بهم لا بغيرهم مطلقاً.

الرابع: أنه إذا قيل أن المحسودين هم المسلمون جميعاً، قلنا في أول الأمر: إنّ الأمة المسلمة في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لا يمكن أن تكون جميع المسلمين لأنه ببساطة ليس جميع المسلمين هم من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

الخامس: أما سبب الحسد، وهو المجهول الثالث في أول الآية ﴿يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾، فهو يتجلى في النظر إلى ما آتاه الله إلى آل إبراهيم عليه السلام في الآية «قد آتينا آل إبراهيم (١) الكتاب + (٢) الحكمة + (٣) الملك العظيم». وهذا أيضاً

ليس جميع المسلمين أوتوا الحكمة والملك العظيم.

لقطة قرآنية معجزة

والآية، عندما جمعت الكتاب والحكمة ثم فرّقت الملك العظيم بقول «آتينا» ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾، فلأن القرآن دقته معجزة، دقته تأخذ بالألباب، لماذا فرّق؟

لأن هذه قضية واقعية، فالكتاب والحكمة من تعليم الله تعالى ﴿... وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً ... وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ... ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ...﴾ البقرة:١٢٨ ـ ١٢٩، رسول تبعثه من عندك يتولى تعليمهم الكتاب والحكمة. هذا الكتاب والحكمة بدرجته، تعليم الكتاب والحكمة بدرجته، هناك الدرجة الأقل التي علّمها للأميين من الحجاز، من مكة أم القرى، علّمها للمسلمين جميعاً.

و ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ البقرة:٢٦٩، هذا المستوى من العلم والحكمة هذا يأتي بتعليم، وإذا حصل التعليم لا يحتاج إلى موافقة أحد من الناس أو إلى دعمه. أما الملك العظيم فيختلف، فهذا بسط اليد بالواقع، الإدارة، إدارة الحكم، وهذه يستطيع الناس أن يمنعوك منها حتى ولو أنت كنت الجهة الشرعية، وقد حصل. أي أنك لا تحتاج إلى موافقة من الناس لتثبيت شرعيتك ولكن تحتاج إلى إعلامهم الموافقة كي تجري عليهم الأحكام من أجل أن لا يقولوا: أنت تسلطت علينا؛ وهذا ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يفعله عندما كان يطلب منهم البيعة، يأخذ البيعة.

وقد حصل أن الأمة قد أدارت ظهرها لآل محمد صلى الله عليه وآله لهذه الذرية من

ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فلم تستطع أن تسلبها العلم والحكمة لأنه مستحيل، ولكنها سلبتها الحكم.

تزكية الرسول صلى الله عليه وآله لهم

تزكية الرسول لهم ﴿وَيُزَكِّيهِم﴾، وكما قلنا مراراً، أنه كان من أول البعثة إلى آخرها، والتفاصيل كثيرة:

منذ اليوم الأول ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الشعراء:٢١٤، وقال لعلي:«هذا أَخِي ووَصِيٌّ وخَلِيفَتِي فَاسْمَعُوا لَهُ وأَطِيعوا»، واستمراراً إلى يوم الغدير في ١٨ ذي الحجة سنة ١٠هـ مدة ٢٣ سنة كان فيها رسول الله صلى الله عليه وآله يزكيهم، وفي هذا الروايات كثيرة.

كما جاء في روايات عن أهل البيت عليهم السلام الذين هم ينطقون عن الرسول صلى الله عليه وآله، لأن شرعية كلام أهل البيت عليهم السلام جاءت من التأسيس في التنصيص القرآني في أول الأمر، وفي تنصيص الرسول صلى الله عليه وآله. فعندما يقول الإمام الصادق عليه السلام: «نَحنُ المَحسُودُون» لا نسأله أنت ممن سمعت، نعلم أنه لا يسمع إلا من الباقر عليه السلام، والباقر يسمع من زين العابدين عليه السلام، وزين العابدين عليه السلام يسمع من الحسين عليه السلام أو من عمه الحسن عليه السلام وهما يسمعان من علي عليه السلام أو مباشرة من رسول الله صلى الله عليه وآله، فهم عليهم السلام ينطقون عن رسول الله صلى الله عليه وآله وبالتالي هذه تزكية.

وعليه، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي يخبرنا عن طريق الأئمة عليهم السلام أن «هؤلاء هم المحسودون»، أي أن هذه الآية تخصهم، أي هذه مرة ثانية يقول هؤلاء هم المقابلون لآل إبراهيم عليه السلام. (راجع كتاب الكافي، ج١، باب أن

الأئمة عليهم السلام ولاة الأمر وهم الناس المحسودون، رواية ٢؛ وقريب منها رواية ٤.)

اعتراضات باطلة

الاعتراض الأول، من خلال إعطاء وجه تفسيري آخر؛ يقول البعض: إنّ المحسودين هم النبي صلى الله عليه وآله حصراً.

وهذا باطل بكل وضوح، لأنه لو كان ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾، لو كان الناس هو رسول الله صلى الله عليه وآله هو فقط لكان ينبغي أن يقول «وآتينا إبراهيم العلم والحكمة» ولا يقول ﴿آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾، فمن يقابل محمد صلى الله عليه وآله هو إبراهيم عليه السلام ومن يقابل آل محمد صلى الله عليه وآله آل إبراهيم عليه السلام، لا يمكن أن يكون المحسود هو النبي صلى الله عليه وآله ثم يستنكر لأنه آتى آل إبراهيم عليه السلام، سيقولون له «لا نحسدك، فقد آتى آل إبراهيم ولم يؤتك، وليس الكلام عن آل إبراهيم نحن نتكلم عنك قد أوتيت فضلاً عظيماً». ثم ما الذي يمنع القرآن، لماذا يتحاشى عن قول ذلك، كأن يقول «أم يحسدون النبي على ما آتاه الله من فضله»؟ لماذا يتحاشى القرآن عن ذلك؟ في القرآن اسم النبي صلى الله عليه وآله في كل المواقع وفي كل المواقف، فما المشكلة في ذلك، كان سيفصح عنه بكل تأكيد.

الوجه الآخر، قال البعض أن المحسودين هم المسلمون عموماً.

وهذا طبعاً باطل. إذ، كما قلنا، ليس جميع المسلمين هم من أوتي العلم والحكمة، ولو كان ذلك لكان قال «لقد آتينا أتباع إبراهيم عليه السلام» لو كان المحسودون هم المسلمين، لكانت الحجة تكون الاستنكار، آتينا أتباع إبراهيم عليه السلام، وهو غير صحيح بكل تأكيد، فليس جميع المسلمين قد أوتوا

العلم والحكمة، ولا الملك العظيم، وبالتالي فهذا الاعتراض باطل..

مثل هذه الوجوه التي تتكلف تفسيرات واضحة البطلان تدلك ـ ببساطة ـ أنها ما أريد بها إلا الجد والاجتهاد في كتمان موقعية أهل البيت سلام الله عليهم.

الآية الكريمة وآيات الأمة المسلمة

ربط آية الحسد بالأمة المسلمة من أوضح ما يكون، وذلك بما نوّهت إليه أنهم همعليهم السلام الذين علّموا الكتاب والحكمة من رسول اللهصلى الله عليه وآله، أوتوا ذلك من دعوة إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام، ثم الربط الجميل بينهم وبين آل إبراهيمعليه السلام في هذه الآية.

❊

بعض مصادر البحث

فيما يلي ذكر بعض مصادر الروايات التفسيرية أو آراء المفسرين، سواء المؤيدة لما ذهبت إليه أو المخالفة له أو المعارضة له، التي تضمنها البحث أعلاه:

- تفسير أبي جعفر الطبري
- تفسير السعدي
- كتاب الكافي للشيخ الكليني

الفصل التاسع والعشرون

آية ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

فصل آخر من الآيات غير المشهورة التي تتعلق بالأمة المسلمة من ذرية ابراهيم واسماعيل عليهما السلام هي الآية المباركة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ التوبة:١١٩.

النظر في أقسام الآية المباركة

القسم الأول / نداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى المسلمين جميعاً.

القسم الثاني / ثم يقدم الأمر بالكون مع الصادقين بالحث على التقوى، ما يعني إشارة إلى أن ما سيأمر به فيه شيء من الصعوبة، سواء الصعوبة في الخارج، الواقع الحياتي الدنيوي، أو صعوبة في الداخل، الجانب النفسي الذي لا يقبل ذلك.

ونحن نجد هذا في القرآن كثيراً كما في آية تحكيم الرسول: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ النساء:٦٥، إذ كان يمكن أن يقول يجب عليهم أن يحكموك ثم لا يجدوا، ولكنه قال: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ ليجعلك تنتبه، أي أكون من المؤمنين؟ لماذا؟ كيف؟ ما هي الشروط؟ هكذا. أو يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

الحشر:١٨، فإنه عندما قال ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ أنت تنظر ماذا؟ وبعدها ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾، فيكون هذا الأمر ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ﴾ لام الأمر أقوى وأشد وقعاً مما لو لم يقدمه بـ ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ أو ما يشببها من التعبير.

القسم الثالث /ثم يأمر ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

هنا نسأل: هل أن الصادقين جماعة محددة؟ أم هي أي صادق؟

يمكن قبول الثاني لأن الصدق من أعظم الأعمال، فالإنسان الذي يتحرّى الصدق يسير في إطار الصراط المستقيم عموماً،بغض النظر عن الجنبات الأخرى؛ وبالتالي فإن الندب إلى أنك تكون معهم منطقي ومفهوم ومعقول.

أو هو الأول؟ أن «الصادقين» هنا هم جماعة محددة، وهنا يكون الخطاب منطقي مباشرة؛ كيف؟

هو يقول في الخطاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أيها المسلمون كونوا مع هذه الجماعة، إذا قلنا أنها جماعة محددة، مع هذه الجماعة الصادقة أبداً، ﴿كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، لم يقل كونوا مع الصادقين في حالة كذا، كونوا مع الصادقين إن لم يفعلوا كذا ـ ﴿مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ فقط.

إذاً، إذا كانت جماعة محددة فهي جماعة لا تخرج عن إطار الصدق مطلقاً؛ وبالتالي هو يقول:

«أيها المسلمون كونوا مع الجماعة الصادقة أبداً، فإن وجدتم أنفسكم لا تقبل هذا فإنه بعيد عن تقوى الله، فقوموا بتفعيل التقوى من أجل أن تكونوا مع الصادقين»... هكذا نفهم الآية.

تزكية الرسول لهم ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بالبيان الرسولي

هذا أيضاً كما قلنا في حلقات أخرى أنه في سائر حياته الشريفة مدة الدعوة كان ينوّه بهم وبفضلهم وبمنزلتهم عند الله وعند رسوله صلى الله عليه وآله وبموقعيتهم في الدين، الموقعية التي هي موقعية وجوب الاتباع، فهنا ﴿كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ إذا كنت معهم فإن تحقُّق الاتباع سيكون من تحصيل الحاصل، لأنك ستكون مع جماعة أنت ستنهل منهم الذي يقولونه وستقبله منهم فيتحقق الانقياد.

وقد ذكروا وجوهاً في التفسير، الوجوه الباطلة أو الضعيفة حسبما سنبين أدناه؛ ولكن إضافة إلى هذا ذكروا الوجه الذي يقولون فيه كونوا مع علي بن أبي طالب عليه السلام، أيضاً ذكروا هذا الوجه ذكره بعض المفسرين كالثعلبي والآلوسي، وهذا الوجه كونوا مع علي بن أبي طالب عليه السلام رووه عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، على قلة ما يروون عن أئمة أهل البيت عليهم السلام رووه عنه، والإمام الباقر عليه السلام طبعاً عندنا وعند المخالفين لا يكذب، وأنه لا يتحدث إلا عن آبائه الطاهرين واحداً بعد واحد عليهم السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثم إن علياً عليه السلام وصف عترة النبي صلى الله عليه وآله التي هي الأمة المسلمة من ذرية ابراهيم واسماعيل عليهما السلام وصفهم وصفاً بألصق ما يكون إلى الصدق. قال في خطبة شهيرة:

«فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ وَالأَعْلَامُ قَائِمَةٌ وَالآيَاتُ وَاضِحَةٌ وَالْمَنَارُ مَنْصُوبَةٌ، فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ وَبَيْنَكُمْ عِتْرَةُ نَبِيِّكُمْ» ثم يعدّد لهم ثلاث صفات:

«وَهُمْ أَزِمَّةُ الْحَقِّ» أي أن بيدهم زمام الحق يحركونه كيفما داروا، كما قال النبي صلى الله عليه وآله: «عَلِيٌّ مَعَ الحَقّ، والحَقُّ مَعَ عَلِيّ»..

«وَأَعْلامُ الدِّين» أنت تريد الدين، فحتى من بعيد أنك تنظر أين هو علم الدين؟ كما يفعلون في الحج وغيره عندما يكون ناس ينظرون إلى الرايات والأعلام، وهذه تستخدم منذ القدم لكي تعلم أين جماعتك فتنحاز إليها.

«وَأَلْسِنَةُ الصِّدْقِ» يعني كأن الصدق صار محتاجاً إليهم، أو كأنهم الصدق إذا كان له لسان يتحدث به فهم هؤلاء الصفوة عليهم السلام هم الصدق المطلق إذاً.

فإذاً في الآية المباركة قيد البحث، فإن ﴿الصَّادِقِينَ﴾، إما هم عليهم السلام، أو على أقل تقدير إذا كانت تقول كونوا مع أي صادق، أنهم عليهم السلام فهم المصداق الأعلى لذلك. وبالتالي، إذا أردت أن تفعّل الآية فمن غير المعقول أن تكون مع صادقين غيرهم ولا تكون مع الذين هم الأعلى في هذا، فهم ألسنة الصدق.

وجوه الاعتراضات على تفسيرنا

أوردوا وجوهاً في التفسير غير ما نذهب إليه، تمثل الاعتراضات عليه. مما ذكروه:

- أن الصادقين هم الأنبياء، أو
- أنهم محمد صلى الله عليه وآله وأصحابه، أو
- أنهم المهاجرون الصادقون، أو
- أنهم أبو بكر وعمر حصراً، أو
- أنهم أبو بكر وعمر وأصحابهما.

وهناك روايات من سنخها، كلها وجوه من كلام الرواة وصولاً إلى

التابعين كحد أقصى أو تابعي التابعين، بعضهم سعيد بن جبير مع رواية تصل إلى أبي بكر نفسه يقول: إنّ المهاجرين هم الصادقون. يعني الرواة وهو صحابي طبعاً، والباقي من التابعين، هي ليست عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

جميع الوجوه باطلة! لماذا؟

ـ الأنبياء نعم هم الصادقون أبداً، لكن الآية موجهة إلى المسلمين بعد نزول القرآن فما معنى أن يكونوا مع الأنبياء عليهم السلام الذين مضوا؟ ما معنى ذلك؟

ـ الوجه الثاني: أنه النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه؛ ولكن الصحابة ليسوا كلهم صادقين، بعضهم كذّب بعضاً، فكيف تجمع النبي صلى الله عليه وآله معهم في إطار غير مضبوط؟ النبي صلى الله عليه وآله هو الصادق أبداً تجمعه مع الآخرين الذين هم يصدقون ويكذبون؟!

ـ الوجه الثالث: أن أبا بكر وعمر على تمام الصدق. وهذا باطل، لأنهما لم يكونا كذلك، ويكفي دليل (ونستطيع أن نأتي بغيره)، أن أبا بكر وعمر اختلفا في حضرة رسول الله صلى الله عليه وآله وعلت أصواتهما أصلاً، وهذا يدل على أنهما ليسا على ذلك الطريق الذي سميناهم ألسنة الصدق وبالتالي الذين لا يختلفون. ولكن عندنا ما هو بالنسبة إلينا الدليل على كذبهما وبالنسبة للمخالفين هو محيّر لأنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً إزاءه، وهو أن فاطمة الزهراء عليها السلام هي سيدة نساء العالمين عليها السلام كذّبت أبا بكر، وضمناً كذّبت عمر لأنه الوحيد الذي أيّده عندما ادّعى أن النبي صلى الله عليه وآله قال أن الأنبياء لا يورّثون وبالتالي منع فاطمة عليها السلام من ميراثها من أبيها صلى الله عليه وآله، وقد كذّبته فاطمة عليها السلام، وبما أننا نصدق فاطمة عليها السلام فيما تقول مطلقاً فقد كذب إذاً، فلا يمكن عندئذ أن يكون مصداقاً

لصفة الصادقين المطلقة في الآية.

أما المخالفون فلهم أن يتخيّروا من يصدقون: فاطمة أم أبا بكر وعمر؟!

هذا طبعاً عن الصدق القولي، ﴿كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، ولكن الصدق أبداً هو في القول والفعل، في الموقف. فإذا أردنا النظر في مواقف الرجلين نجد أن بعضها لا يتناغم ولا ينسجم مع الصدق. الصدق يعني مبايعة رسول الله صلى الله عليه وآله على الثبات في المعارك، أن لا أفرّ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾ الأنفال:١٥، وقد ولّيا الأدبار في أُحد، وولّيا الأدبار في حُنين، وعليه، فلا يمكن أن يكونا صادقين صدقاً مطلقاً. هذا غير صحيح، أي حتى لو كان كلٌّ من أبي بكر وعمر صادقاً في ٩٠٪ من الأقوال والأفعال فإن ١٠٪ لا تنطبق عليه، فيكون هذا مصداق أضعف من مصداق آل محمد صلى الله عليه وآله.

ـ كذا الأمر، بل أوسع، مع وجه المهاجرين، المهاجرون كلهم كما قال أبو بكر؟ كيف يكون ذلك وهم فيهم الكاذب والصادق وفيهم حتى من فعل المحرمات التي ثبتت عليه، بعضهم من البدريين حتى، وطبعاً وبعضهم قاتل بعضاً، فكيف يكون هذا موقفه موقف الصدق؟

الآية المباركة وآيات الأمة المسلمة

كما قلنا مراراً: إنّ المستوى الأعلى في الإسلام وصلته هذه الأمة الذرية المسلمة من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وصلته من قبل أن يخلقوا، وصلته من دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، حيث طلبا عليهما السلام أن تكون هذه الذرية بالمستوى الأعلى من الإسلام.

(نكرر) كيف نعلم أنها بالمستوى الأعلى من الإسلام؟ نعلمه لأن ابراهيم واسماعيل عليهما السلام طلباه أولاً لاسيما ابراهيم عليه السلام وهو من هو في الإسلام في الحنيفية العليا، وإذا بعد هذا كله وقد صار شيخاً كبيراً يقف ليقول مع ابنه عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ البقرة:١٢٨، فلا بد وأن تكون ﴿مُسْلِمَيْنِ﴾ أي في تمام الإسلام والانقياد، نحن نريد هذه الدرجة؛ وبعد ذلك يقولان دعاءً: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ البقرة:١٢٨، فالإسلام في الذرية المسلمة هذا من نفس مستوى الإسلام الذي طلباه في أول دعائهما عليهما السلام.

فإذاً، هذا أعلى مستوى من الإسلام، فكيف لا يكون معه الصدق التام؟ فلذلك عندما يقول: ﴿اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ فهو يعني أنه تعالى أمر أن نكون مع الذين وصلوا إلى المستوى الأعلى من الانقياد لله تعالى والتسليم له بحيث لا يمكن أن يخرج منهم شيء مخالف وبالتالي لا يخرج منهم شيء إلا إذا كان صادقاً قولاً أو فعلاً.

❊

بعض مصادر البحث

فيما يلي ذكر بعض مصادر الروايات التفسيرية أو آراء المفسرين، سواء المؤيدة لما ذهبت إليه أو المخالفة له أو المعارضة له، التي تضمنها البحث أعلاه:

- تفسير الطبري
- تفسير ابن كثير الدمشقي

- الصواعق المحرقة لأبن حجر الهيثمي، آيات أهل البيت عليهم السلام

الفصل الثلاثون

آية الصلاة على النبي ﷺ

آية من أعظم الآيات ومن أكثرها انتشاراً بل هي الأكثر انتشاراً، وهي آية الصلاة على النبي ﷺ، والتي تتصل اتصالاً مباشراً، وإن كان غير واضح مما هو سائد في الأبحاث المختلفة، بموضوع الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. إنها الآية المباركة:

﴿**إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ الأحزاب:٥٦.

اللّهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم.

معنى الآية المباركة

أولاً / الآية فيها إخبار وفيها أمر أو حثّ:

أما الإخبار فهو أن ﴿**إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ**﴾.

وأما الحثّ فهو أن يقوم المسلمون جميعاً ليس فقط بالصلاة، يعني يتابعون الله وملائكته على ذلك، ولكن أيضاً هناك التسليم.

ثانياً / أما المعاني فقد اختلفوا في معنى الصلاة. قيل: إنّ الصلاة من الله هي ثناء على النبي ﷺ، ومن ملائكته هي الثناء عليه وتعظيمه ﷺ. وقيل: الصلاة من الله هي الرحمة به ﷺ، ومن الملائكة الاستغفار له ﷺ، ومن

الناس هي الدعاء له صلى الله عليه وآله.

أما السلام فجاؤوا بثلاثة أوجه:

الأول: أنه السلام من النواقص والآفات، يعني كأنما يقول نحن نعترف ونذكر له بأنه صلى الله عليه وآله خالٍ من الآفات والنقائص؛

وقيل: إنّ السلام هو الله تعالى، من أسمائه السلام فـ **﴿سَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾** فكأنما نقول أننا نؤمن أن الله تعالى السلام هو متعهد بحفظ النبي صلى الله عليه وآله وبحمايته وبسائر شأنه؛

والوجه الثالث: أنه الانقياد، أي من المسالمة وعدم المخالفة، الانقياد له ولشريعته صلى الله عليه وآله.

هذا الوجه الأخير هو الذي أجده الأكثر انسجاماً مع التعبير في الآية، وذلك لأنه يقول: **﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾**، و «تسليم» مفعول مطلق يؤكد الفعل مثل **﴿يُطَهِّرَكُم تَطهِيراً﴾** الأحزاب:٣٣، **﴿يُتَبِّرُوا ما عَلَوا تَتْبِيراً﴾** الإسراء:٧. أنت تقول قاموا بتسليم أنفسهم إلى السلطات أو أن هذا التسليم الكامل للأمر، الخضوع والانقياد إليه. فلو كان هو التحية لكانت «سلموا سلاماً» (سلاماً وليس تسليماً) مثلاً قوله تعالى **﴿تَحِيَّتُهُم فِيها سَلام﴾** يونس:١٠.

تزكية الرسول صلى الله عليه وآله بالبيان الرسولي

أما تزكية الرسول صلى الله عليه وآله بالبيان الرسولي للأمة المسلمة من عترته الهادية عليهم السلام فقد رويت الروايات الكثيرة في هذا، وجاء فيها بصيغة الاستجابة للأمر بالصلاة والتسليم، يسألون النبي كيف نفعل؟ فيعلمهم.

أكثرها شهرة:

«اللّهُمَّ صَلِّ على محمّدٍ وآلِ مُحمّدٍ كما صَلَّيتَ على إبراهِيمَ إنَّكَ حَميدٌ مَجيدٌ وبارِك على مُحمّدٍ وآلِ مُحمَّدٍ كما بارَكتَ عَلى إبراهِيمَ إنّكَ حَميدٌ مَجيدٌ»،

وفي غيرها «... كما صَلَّيتَ على إبراهِيمَ وعَلى آلِ إبراهِيمَ وبارَكتَ على إبراهِيمَ وعلى آلِ إبراهِيم»،

وبعضها تضع «السلام» أيضاً.

إذاً المشترك بين الروايات جميعاً أن الاستجابة لأمر الله هذا في النص القرآني ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ هو أن الصلاة على الآل عليهم السلام جزء من الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله. فلو لم يقل النبي صلى الله عليه وآله شيئاً كنا نقول: اللّهم صل على محمد ونسكت، ولكن هو علّمنا أن نقول: «اللهُمَّ صَلِّ على محمّدٍ وآلِ مُحمّدٍ»، ومرة ثانية وثالثة وعاشرة يربطها صلى الله عليه وآله بإبراهيم عليه السلام «كما صَلَّيتَ على إبراهِيمَ» وفي روايات «وعَلى آلِ إبراهِيمَ».

اعتراضات المخالفين

كما هي العادة عندما يتعلق الأمر بأهل البيت عليهم السلام، هناك اعتراضات. هنا:

الاعتراض الأول/ يقولون أنكم يا معاشر شيعة أهل البيت عليهم السلام تقولون أن هذه ميزة لأهل البيت عليهم السلام أن الله تعالى جعل الأمر (أو الحث على الأقل) عندما تصلون عليه صلى الله عليه وآله تجمعون معه الآل؛ يقولون: هذا ورد في غيرهم أيضاً، فقوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ﴾ الأحزاب:٤٣، يجعل الأمر في الآخرين أيضاً سواءً بسواء؛ بل ـ يقولون ـ إنه لم يذكر الآل هناك، بينما هنا يصلي عليكم جميعاً وملائكته.

ولكن، لو قرأنا الآية بتمامها: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ فإننا نستطيع القول شتّان ما بين الصلاتين: صلاة ليس فيها إلا هي، وصلاة أخرى تعطي تعليلاً لهذه الصلاة، الهدف من الصلاة ليخرجكم من الظلمات إلى النور، فمتى كان رسول الله صلى الله عليه وآله وآله الأطهار عليهم السلام في الظلمات يوماً لكي يحتاجوا إلى الصلاة عليهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور؟ لهذا، لم يقل الله تعالى هذا. هذه صلاة وتلك شيء مختلف آخر.

الاعتراض الثاني/ أن آل محمد صلى الله عليه وآله تشمل الأزواج؛ وهو فهم موجود عند المسلمين من غير أتباع أهل البيت عليهم السلام أن هذه تشمل الأزواج.

نقول:

أولاً: هناك في بحث آية التطهير، نعم، إن مصطلح «أهل البيت» المصطلح اللغوي يشمل الأزواج ويشمل كل من في البيت حتى الضيف، والأقرباء، والخادم، بل قيل أنه يشمل حتى الحيوانات المنزلية كونها تعتاش في البيت، ولكن المصطلح الشرعي نأخذه من الذي أُنزلت عليه وهو رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد قام صلى الله عليه وآله بوضع علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام تحت الكساء، ولم يضع الزوجات، وعندما أرادت السيدة أم سلمة رضي الله عنها أن تدخل تحت الكساء جذبه النبي صلى الله عليه وآله، فقالت له: «ألستُ أنا من أهل البيت؟» قال: «أنتِ مِن أزواجِ النّبيّ»، أي كأنه صلى الله عليه وآله قال: لا، هذه القضية هذا المصطلح في الآية **٣٣** من سورة الأحزاب لا ينطبق عليكِ.

ثانياً: الآية تقول ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، إذاً الآية كانت تتعلق بالتسليم/الانقياد،

ونحن لم نؤمر أن ننقاد إلى زوجات النبي صلى الله عليه وآله، أبداً، لا يوجد هناك أمر بطاعتهن. ولكننا مأمورون بطاعة علي وفاطمة وأولادهما عليهم السلام كما في الروايات الكثيرة وكما في هذه البحوث، بحوث موضوع الأمة المسلمة. وكيف يمكن أصلاً الانقياد للزوجات وقد حصل من بعضهن ما حصل مما استوجب التهديد الشديد من الله تعالى كما في سورة التحريم لمن يريد أن يراجع.

ثالثاً: لعل هناك في الروايات ما يشير إلى التفريق بين المجموعتين بين آل محمد والزوجات، كما أخرج المخالفون في روايات زعموا أن النبي صلى الله عليه وآله قالها، وهي تعطي صيغة لكيفية الصلاة، عندما سألوه كيف نفعل مع هذه الآية؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى أهل بيته وعلى أزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى أهل بيته وعلى أزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد»، وهذا التفريق واضح بواو العطف بين الآل والأزواج، بل وفي بعضها يفصّل، أو يفصل أمهات المؤمنين بوضوح. ما نسبوه إليه بالقول: «من سرّه أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على محمد وأزواجه وذريته وأمهات المؤمنين كما صليت على إبراهيم..» وهذا تفريق واضح بين الآل وبين الزوجات. (طبعاً الوضع/الاختراع في هذه الصيغة واضح لأنه ما معنى ذكر على أزواجه وعلى أمهات المؤمنين؟! يعني هل أن الأزواج غير أمهات المؤمنين؟! كما نعلم أن الوضع ضروري عندما يأتي الكلام عن آل محمد عليهم السلام من أجل كتمان

فضائلهم وموقعيتهم ـ هذا منهاج فاشل وهذا أحد الأسباب التي من أجلها نقوم بالبحث لتنبيه الناس إلى الحقيقة.)

الاعتراض الثالث/ في ظني أنه حديث من مخترعات عصرنا، وهو أن آل محمد هم جميع المسلمين، فهم أتباع محمد، أمة محمد صلى الله عليه وآله. هذا الاعتراض يأتي عادة ممن يسمون أنفسهم القرآنيين.

(هؤلاء القرآنيون صفتهم التناقض، أي أن أكبر صفة واضحة فيهم هي التناقض، فإنهم يقولون نحن نريد القرآن ولا ننشغل بالروايات لأننا لا نعلم حالها، نطيع القرآن وحسب؛ فنسألهم: هل تطيعون القرآن بالمطلق؟ يقولون: نعم نطيعه بالكامل، نقول: طيب، القرآن يقول **﴿أَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾** النساء:٥٩ كيف نفعل؟ القرآن يقول **﴿إِتَّبِعُونِي﴾** آل عمران:٣١ كيف نتّبعه؟ القرآن يقول **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾** النساء:٦١ تصدّون عن الرسول صلى الله عليه وآله لأن **﴿وَإِلَى الرَّسُولِ﴾** بيانه صلى الله عليه وآله من خارج النص القرآني فهذا صفة النفاق؟ هنا يسكتون ، هذا حالهم.)

في هذه الآية المباركة يأتون بشيء هو من الرأي مع أنهم يقرّعون الناس كيف يأتون بالرأي قبالة النص القرآني، فيقولون أن آل محمد هم أمة محمد صلى الله عليه وآله.

هذا الكلام باطل بأقل نظر، ذلك:

أولاً: لأنه يعني القول أن هذه الأمة كلها نصلي عليها، وهو مما لم يأت من أحد من قبل.

ثانياً: على هذا الفهم فإن مصطلح آل محمد صلى الله عليه وآله الذي معناه الأمة، يعني

أن آل إبراهيم هم أيضاً أمة إبراهيم عليه السلام؛ وبالتالي فإن آية الاصطفاء **﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إبراهيم وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾** آل عمران:٣٣ تعني أنه تعالى اصطفى جميع أمة إبراهيم عليه السلام، فهل اصطفى جميع أمة إبراهيم؟! سواء الذين معه أو الذين انحدروا منه؟ هل اصطفى جميع اليهود وجميع النصارى وجميع المسلمين؟! هل من يقول بهذا عاقل؟! ثم ما معنى أمة عمران؟ **﴿اصْطَفَى آَدَمَ ... وَآَلَ عِمْرَانَ﴾** ، هل عمران كان عنده أمة من الناس اتبعته؟ فهذا قول واعتراض باطل.

الآية الكريمة وآيات الأمة المسلمة

نبدأ بالقول أنه لا ينقضي العجب من أمة تفعل كل يوم شيئاً مرات ومرات، في أهم فعل بينها وبين الله تعالى وهو الصلاة، في تشهد الصلاة تصلي على جماعة من الناس ولا تعلم عنهم شيئاً، فإذا سئلت مَن هم؟ لا تعلم!

فهل يُعقل أن الله تعالى يضع في الصلاة التي هي عماد الدين بينكم وبينه مرات في اليوم، الصلاة التي لا يمكن إلا أن يؤديها المكلف حتى ولو كان على فراش المرض بل فراش الموت، أو كان مشلولاً يؤديها في ذهنه فقط، يجعل المكلف يصلي على محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله ولا يكون لهؤلاء موقعية ومنزلة كبرى تختلف عن غيرهم؟ هذه المنزلة التي جمعتهم بالصلاة على رسول الله في هذه المواضع وفي غيرها.

النكتة المهمة:

وإن النكتة المهمة جداً في عدم ذكر الآل عندما يقول: **﴿صَلُّوا عَلَيْهِ﴾** ثم يأتي رسول الله صلى الله عليه وآله فيقول: «على محمّدٍ وآلِ مُحمّدٍ»، يجب أن تذكروني

معهم، لو كانت الآية ذكرتهم لكانت فصّلت في ذلك، كانت طلبت الصلاة على محمد وعليهم، ولكن عندما لم تذكرهمعليهم السلام فكأنها تقول، بل هي تقول بالفعل، أن دور هؤلاء هو من سنخ دور رسول اللهصلى الله عليه وآله، فهم الذين يؤدّون عنه بحيث إذا ذُكرصلى الله عليه وآله فهمعليهم السلام معه كتحصيل حاصل بحيث لا يحتاج إلى الذكر.

فليت المسلمين ينتبهون إلى هذه الحالة من أجل أن يعلموا أن هؤلاء لهم دور يجب عليهم أن يلتفتوا إليه، لاسيما وأن هذا أمر، ورد في التفاسير ـ نأخذ ملخص كلامهم:

مثلاً تفسير السعدي قال: وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليهم مشروع في جميع الأوقات وأوجبه الكثير من العلماء في الصلاة...

وأما القرطبي فقد أورد في تفسيره قول الزمخشري الذي أورده مختصراً بلقطات منه، هذا الزمخشري، بعد أن ذكر الروايات التي تنص على «وعلى آله»، يقول: «فإن قلت الصلاة على رسول اللهصلى الله عليه وآله واجبة أم مندوب إليها؟ (طبعاً يقول هذا وهو يقول صلى الله عليه وسلم دون الآل! وهذه أيضاً من التناقضات أم من مرض القلب لا أدري.) قلت بل واجبة، وقد اختلفوا في حال وجوبها، واجبة متى؟ كيف؟ فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكرهصلى الله عليه وآله، ومنهم من قال: تجب في كل مجلس مرة، يعني أنت في مجلس، أول ما ذكر النبي مثلاً في بداية المجلس يُصلّى عليه يعني مجبور بالصلاة، بعد ذلك إذا ذُكر لا يُصلّى.. قال بعضهم هكذا يقول».

ثم يقول الزمخشري:

«والذي يقتضيه الاحتياط، الصلاة عند كل ذكر كما ورد من الأخبار في ذلك، كلما يُذكر رسول الله صلى الله عليه وآله تصلي عليه، انه هذا مما أوجبه العلماء، ناهيك عن آثاره العظمى التي في مصلحة الإنسان يعني لو لم يوجبوه لكان حريّاً بالمسلم أن يصلي عليه في كل حين».

ولو قرأتم الروايات في هذا، تجدوا فيها الأعاجيب من الثواب في الصلاة على رسول الله؛ لماذا؟ لأنك عندما تفعل ذلك أنت في حالة الالتفات مع نفسك وتلفت الآخرين إلى أن الله تعالى ينزل رحماته على النبي صلى الله عليه وآله أنه يثني عليه، أن الملائكة تثني عليه وتعظمه، فأنت تتابعهم على ذلك، وإذا نطقتها مع السلام فصل وسلّم فكأنما تقول: الله هو السلام يحفظه هو موكل به، أو السلام أنا أسلّم أنقاد إليه.

نعمة كبيرة لاحظت ما سيحصل:

إنها كلمة عظيمة كبيرة هي أعظم نعم الله سبحانه وتعالى على المسلمين، فتجده تعالى علماً منه بالذي سيجري أن الأمة ستدير ظهرها لهؤلاء الصفوة الطاهرين عليهم السلام جعل الحد الأدنى وهو ذكرهم يجري على لسان الإنسان المخالف لهم لا يعرفهم عليهم السلام حسب فقهه لا يعرف عنهم عليهم السلام شيئاً، فجعل ذكرهم العطر على لسانه مرات ومرات في الصلاة.

❊

بعض مصادر البحث

فيما يلي ذكر بعض مصادر الروايات التفسيرية أو آراء المفسرين، سواء المؤيدة لما ذهبت إليه أو المخالفة له أو المعارضة له، التي تضمنها البحث

أعلاه:

- الواحدي في أسباب النزول ص ٢٧١
- القرطبي في ج ١٤ ص ٢٣٣ من تفسيره الجامع لأحكام القرآن
- إبن العربي المالكي في كتاب أحكام القرآن ج ١ ص ١٨٤
- الفخر الرازي في تفسيره ج ٧ ص ٣٩١، ج ٢٥ ص ٢٢٦
- تفسير النيسابوري ج ٢٢ ص ٣٠
- تفسير روح المعاني للألوسي ج ٢٢ ص ٧٢
- إبن كثير في تفسيره ج ٣ ص ٥٠٦
- تفسير الطبري ج ٢٢ ص ٢٧
- الحاكم في المستدرك ج ٣ ص ١٤٨
- البخاري في صحيحه ج ٦ ص ١٢
- الإمام الشافعي في مسنده ج ٢ ص ٩٧
- إبن حجر في الصواعق ص ١٤٤

الفصل الحادي والثلاثون

آية ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾

من آيات الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾.

نص الآية المباركة

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة النحل:٤٣ ـ ٤٤ .

ما نفهمه من الآية المباركة

ما نفهمه من الآية الأولى، الآية ٤٣ :

إننا لم نرسل من قبلك من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام إلا رجالاً، من جنس الرجال وبلغوا مبلغ الرجال، وكنا نوحي إليهم نتعهدهم بالوحي في التعليم.

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ يصبح الخطاب مع المخاطبين كائناً من كانوا ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ إن كنتم لا تعلمون بالبينات، كل ما يبيّن لكم من أحكام وعقائد والذي هو في زبر الأولين ما كان أُنزل من قبل.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ الآن الخطاب مع رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾، إذاً أنزلناه هذا الذكر من أجل أن تبين للناس ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

فالمعنى العام هو أنه قد سبقك رجال من الأنبياء والمرسلين أوحينا إليهم، وأنت أنزلنا إليك الذكر، وسبب الإنزال إليك لكي تبيّن للناس ـ كأنه يقول: أن الذين يحتاجون إلى هذا هم الناس، أما أنت فمنقطع لله سبحانه وتعالى وعندك في وجودك كله العلم بهذا.

(نعم في القرآن ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ النساء:١١٣ سابق لهذا الكلام؛ إنا أنزلنا إليك لتبيّن لهم، ما نزّل إليهم، هذه نقطة على الهامش.)

إذاً في هذا كله، وطيلة مسيرة الأنبياء عليهم السلام، وهذه الرسالة الخاتمة، هناك أمر ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾:

أولاً: هو موجه إلى الذين لا يعلمون بعلوم هذا الوحي، ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾.

ثانياً: وهذا الأمر موجه إليهم، ماذا يفعلون؟ ليقوموا بسؤال أهل الذكر.

ما الذِّكر؟ ومن أهله؟

الآن تنطلق أسئلة: ما هو الذكر، من هم أهل الذكر لكي نسألهم؟

السؤال الأول / ما هو الذكر؟

ما عدا معنى ذكروه من الذكر التي سنأتي به في آخر الكلام، عموماً فإن للذكر في الدين معنىً عام ومعنى خاص:

ـ المعنى العام: هو كل ما يُذكّر بالله تعالى، وتفاصيل العلاقة به، كل ما

يذكّر بالله تعالى، يعني حتى الذين يذكّرون بالله تعالى خارج عن الشريعة الإسلامية أو غير الإسلامية (الشرائع السماوية) جميع ما يذكّر.

ـ والمعنى الخاص: هو ما ذُكِر في القرآن، ما نزل في الذكر، الذي أنزل عليه صلى الله عليه وآله أي القرآن.

فإذاً، هناك توجيه للمسلمين الذين لا يعلمون أن يسألوا أهل الذكر الإسلامي، بغض النظر عن أن هناك كلاماً مع أهل الكتاب أنظروا ماذا عندكم، فهذا لا شأن لنا به هنا، حيث أننا نتكلم عن هذا الإطار المسلم. هناك توجيه للمسلمين الذي لا يعلمون أن يسألوا أهل الذكر الإسلامي.

فالسؤال الأول: «من هم الذين لا يعلمون»؟

والسؤال الثاني: «من هم أهل الذكر الذي يتوجهون إليهم بالسؤال»؟

في جواب السؤال الأول: إن كل من لا يعلم ولو بنسبة ١٪ ينطبق عليه «لا يعلمون» ولو في شيء محدود من العلم، تقول هذا يعلم كذا وكذا.. إلى ٩٩٪ لكنه لا يعلم هذا الـ ١٪، فهذا الشخص سيكون عليه في هذا المحدود من العلم مهما صغر أن يسأل أهل الذكر، حتى هذا تنطبق عليه. إذاً نستطيع القول أن الذين لا يعلمون، المأمورين بالسؤال، هم جميع الناس إلا قليلاً.

السؤال الثاني / تشخيص المصاديق ـ من هُم أهل الذّكر

من هم أهل الذكر الذين يتوجه إليه بالسؤال؟

تكفي رواية ابن كثير (في تفسيره).

«وكذا قول أبي جعفر الباقر عليه السلام: «نَحْنُ أَهْلُ الذّكر»»، يورد رواية عن الإمام الباقر عليه السلام يقول فيها نحن أهل الذكر.

للاختصار نقول: نعم هم أهل الذكر، فنبحث هل هناك اعتراض على هذا؟

بدائل متعددة

ليس هناك اعتراض على هذا (سنورد ما فعله ابن كثير تعليقاً)، بل هناك وجوه ذكروها تشخيصاً لمن هم أهل الذكر، ولا نستطيع القول أن هذه الوجوه جاؤوا بها من أجل دفع الناس بعيداً عن أهل الذكر الذين نعتقد بهم وهم الأئمة عليهم السلام ـ فإن هناك وجوهاً معقولة من سياق الآيات ومن فعل الآيات، بدائل ممكنة.

ولنذكر ثمانية وجوه مما ذكروا:

الوجه الأول / هم أهل التوراة، هناك من ذكروا أنهم من أهل التوارة، لأن دليلهم من القرآن هو: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ**﴾ الانبياء:١٠٥ و ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ**﴾ فالزبور من بعد الذكر، ما قبل الذكر هو التوراة، فإذاً اسألوا أهل الذكر، يعني اسألوا أهل التوراة.

الوجه الثاني / هم أهل الكتاب، إسألوا أهل الكتاب الذين يعرفون معاني كتاب الله تعالى، فإنهم يعرفون أن الأنبياء عليهم السلام كلهم بشر، أي صار تحويل السؤال إلى قضية واحدة وهي ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلا رِجَالاً**﴾ كأنما الآية كلها في هذه.

الوجه الثالث / هم أهل العلم بأخبار الماضي، فهناك ليس فقط الزبر، البيّنات أيضاً مما مضى.

الرابع / إسألوا من هم أهل الكتاب ـ هم اليهود والنصارى.

الخامس / ليس أهل الكتاب كلهم، ولكن سلوا مؤمني أهل الكتاب، ولا

أعلم أن مؤمني أهل الكتاب سيكونون مؤمنين بكتبهم أو يقصدون المؤمنين بالإسلام منهم، أي بعد أن دخلوا الإسلام، فعندهم العلم فيستطيعون أن يثبتوا ما يقوله الإسلام.

السادس / قالوا أهل الذكر يعني أهل القرآن، يعني القرآن هو الذكر. فقد جاء في القرآن أنه ﴿ذِيْ الذِّكْرِ﴾ ص:١، وجاءت ﴿إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ التكوير:٢٧ أيضاً.

وهناك قول سابع / أنهم أهل العلم، قالوا هذا يقارب الوجه السادس، أي أن أهل القرآن هم أهل العلم.

والوجه الثامن / إسألوا كل من يُذكر بعلم أو تحقيق، أي كل من عنده علم أنت تسأله، يعني هذا المعنى العام اسألوا أهل الذكر، سؤال الجاهل من العالم.

والوجهان السادس والسابع ـ «أهل القرآن» و «أهل العلم» ـ هما المعقولان من هذه الوجوه، لأن هذا يمتد إلى سائر الأسئلة التي يمكن للمسلم أن يسألها.

والمسلم يذهب إلى سؤال من عنده شيء من العلم في قضية ما، يجب طبعاً أن يكون هناك وثاقة في علميته، مصدريتها، درجتها، أي أن هناك معايير، لكن بالمجمل إذهب إلى سؤال أهل العلم. هذان بديلان ممكنان.

ولكن الوجه الآخر الممكن وهو ما يتوافق مع رواية الباقر عليه السلام التي أوردها ابن كثير؛ فيما يأتي.

المصداق الأفضل

ولكن ما هو أفضل مصداق لهذه البدائل؟

فإذا قبلنا بهذه البدائل أو ببعضها فإن قول الباقر عليه السلام «نَحْنُ أَهْلُ الذِّكْرِ» ليس الوحيد ولكن يكون المصداق، أفضل مصداق.

ولكن في هذه الحالة ينطلق السؤال: هل هناك من توفروا على العلم بدرجة ١٠٠٪ كما هم هؤلاء عليهم السلام بحيث لم يحتاجوا إلى السؤال؟ إذا كان هؤلاء أهل القرآن، مؤمني أهل الكتاب، أهل التوراة، عندهم ١٠٠٪ من العلم فلا يحتاجون أن يسألوا، فهل من هؤلاء من وصل إلى هذه الدرجة بحيث يكونون مصداقاً لأهل الذكر غير أئمة أهل البيت عليهم السلام، حسب ما زعم الباقر وهو لا يكذب؟ فمن هؤلاء؟

نحن لا نجد أن أحداً، من أكابر الصحابة نزولاً، قد ادّعى لنفسه ذلك، لم نجد أحداً قال: أنا من أهل الذكر تعالوا اسألوني أنا عندي العلم ١٠٠٪، كما لم نجد من ادّعى لهم ذلك، إذ لم نجد أحداً قال أن الصحابي الفلاني أو التابعي الفلاني أو العالم الفلاني عنده العلم بدرجة ١٠٠٪ ـ لم يدّع ذلك أحد لنفسه ولا أحد لآخر مطلقاً. وحدهم أئمة أهل البيت عليهم السلام من ادّعوا ذلك، إضافة إلى أنه ادّعاها لهم أصحابهم من شيعتهم، بدءاً من شيعتهم من الصحابة الكبار رضي الله عنهم إلى يومنا هذا؛ فإننا ندّعي أن عندهم من العلم ١٠٠٪، وهذا فارق مهم أنهم يدعون لأنفسهم ولا يوجد شخص يستطيع أن يقول أنهم يكذبون، ونحن أيضاً ندّعيها لهم.

شروط ما أنزل الله به من سلطان!

عوداً إلى رواية ابن كثير وقول الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام «نَحْنُ أَهْلُ الذِّكْرِ»، كيف تعامل معها؟

هنا يأتي كيف يوسعون ويضيقون، عندما يقول الباقر: «نَحْنُ أَهْلُ الذّكْر»، فإنه يوردها على أنها صحيحة، فماذا يصنع معها؟ استمع إليه ماذا يقول:

«وعلماء أهل بيت الرسول عليهم السلام والرحمة من خير العلماء إذا كانوا على السنّة المستقيمة كعلي وابن العباس والحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وعلي بن الحسين زين العابدين وعلي بن عبدالله بن العباس وأبي جعفر الباقر وهو محمد بن علي بن الحسين، وجعفر ابنه وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم ممن هو متمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم وعرف لكل ذي حق حقه ونزل كلاً المنزلة التي أعطاها الله ورسوله واجتمع إليه قلوب عباده المؤمنين».

إذاً هذه هي المشكلة ـ الصحابة الكبار ممن كانت لهم مشكلة مع أهل البيتعليهم السلام! ابن كثير يحدد لنا المعيار في علماء أهل البيتعليهم السلام، يحدده هكذا:

ـ أنهم على السنّة المستقيمة (فهو الذي يعرّف لهم السنة المستقيمة، ما هي!)

ـ عرف لكل ذي حق حقه، يعرف كم قدره، وأنزله المنزلة التي أعطاها الله ورسولهصلى الله عليه وآله، لا يزيد عليها.

ـ واجتماع إليه قلوب عباده المؤمنين؛ هنا فيها غمز، لا أؤكد ذلك، ولكن يبدو فيها غمز لعليعليه السلام وباقي الأئمةعليهم السلام لأنه لم تجتمع لعليعليه السلام ولا لباقي الأئمةعليهم السلام قلوب جميع عباده المؤمنين، أي خالفتهم قلوب عباد مؤمنين (ما شاء الله مؤمنين جداً وحقاً وصدقاً! اجتمعت قلوبهم على غيرهم ولم تستطع

الاجتماع عليهم عليهم السلام... ولا حول ولا قوة إلا بالله).

الآية الكريمة وآيات الأمة المسلمة

أخيراً نربط هذه مع آيات الأمة المسلمة بمعنى الذكر.

قلت آنفاً بخصوص معنى الذكر ما هو، قالوا: الذكر ليس ذكر الله تعالى أو العلوم ولكن الذكر هو النبي صلى الله عليه وآله وذلك لقوله تعالى **﴿...أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ الله مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...﴾** الطلاق ١٠ ـ ١١، **﴿أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَسُولاً ...﴾**، لو لم يقل يتلو كنا قلنا الرسول، الذكر (القرآن) هو الرسول، ولكنه قال **﴿رَسُولاً يَتْلُو﴾** أي يقرأ الآيات المبينات، إذاً هو رسول الله هو محمد صلى الله عليه وآله. هنا يقول **﴿أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾** فكأنه في الملأ الأعلى وأنزله رحمة بالناس.

المهم في القضية أنه سمّاه الذكر، فقال المفسرون قالوا أن الذكر هو الرسول، إذاً **﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾** إسألوا أهل هذا الرسول صلى الله عليه وآله، طبعاً هؤلاء من يتوفر عندهم العلوم كلها، قلنا أنهم لا يسألونهم، ولكن يُسألون عن العلوم، وهؤلاء ما توفروا على العلوم إلا من تعليم النبي صلى الله عليه وآله، وما وجدنا الوجوب على اتباعهم وطاعتهم إلا بأمر من النبي صلى الله عليه وآله.

بعبارة أخرى، **﴿يُعَلِّمُهُم الكتابَ والحِكمَةَ ويُزَكِّيهِم﴾** البقرة:١٢٩ إلى الناس كما هي في **﴿ومِنْ ذُرِّيَتِنا أُمّةً مُسلِمَة﴾** البقرة:١٢٨ وردت في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، هؤلاء فقط هم الذين توفروا على العلوم كلها والنبي صلى الله عليه وآله قال اذهبوا إليهم فاسألوهم. وهذا قول الباقر عليه السلام في الرواية التي أخرجها ابن كثير في أعلاه.

وهو قولهعليه السلام أيضاً عندما سئل «إن من عندنا يزعمون أن قول الله عز وجل: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ أنهم اليهود والنصارى»، قال: «إذاً يدعونكم إلى دينهم!» ثم أردف وهو يشير إلى صدره: «نحن أهل الذكر ونحن المسؤولون» (الكافي، ج١، ص٢١١، رواية ٧)، ومثله عن الرضاعليه السلام (رواية ٣).

ومثله قول الصادقعليه السلام (الكافي، ج١، ص٢١٠، رواية ٢).

❊

بعض مصادر البحث

فيما يلي ذكر بعض مصادر الروايات التفسيرية أو آراء المفسرين، سواء المؤيدة لما ذهبت إليه أو المخالفة له أو المعارضة له، التي تضمنها البحث أعلاه:

- تفسير الطبري
- تفسير ابن كثير
- تفسير القرطبي
- الكافي، ج١ باب «إن أهل الذكر الذين أمر الله الخلق بسؤالهم هم الأئمة عليهم السؤال».

الفصل الثاني والثلاثون

آية ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾

من الآيات التي يتبادر إلى الذهن فيها العلاقة بالأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام الأئمة على الناس، الشهداء على الناس، هي هذه الآية المباركة.

يقول تعالى:

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الاخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ الإسراء:٧١ ـ ٧٢.

الرابط بين الآيتين الكريمتين

موضع البحث هو ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾، إلا أن هناك ملاحظة في الآية الثانية هي نفسها في الآية ٧١.

الآية تقول: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾، الكلام عن يوم القيامة، إذاً سيكون دعوة لكل أناس، لكل مجموعة، كل جماعة، بإمامهم، الذي هو بالتأكيد في موضوع ما هو الامام؟

ثم يقول: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾، بعد ذلك يجري الحساب كيف فعل؟

أوتي كتابه بيمينه، ﴿يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾، يقرأون الكتاب بما قاموا به من الحسنات ولا يظلمون شيئا بسيطاً.

ثم يردف أنه ﴿مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ ـ لعل الرابط بالآية الاولى ـ أنه من كان في هذه الدنيا أعمى ﴿فَهُوَ فِي الاخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾. عندما يُدعى هؤلاء الناس الى إمامهم ـ بغض النظر عن التفسير ما معنى الإمام ـ فسيكونون فريقين، كل إنسان هناك له احتمالان: أن يقرأ كتابه بيمينه، فيكون من الناجين، أو يكون ممن في الآخرة هو أعمى وأضل سبيلاً، فيذهب الى سبيل الخسران.

وهذه نتيجة لأي شيء؟ في المقدمة أنه في هذه الدنيا كان أعمى ، ولا شك في أن المقصود من «أعمى» ليس كفيف البصر ولكن كفيف البصيرة، أعمى البصيرة، الذي سار في الطريق المنحرف.

هذا هو المعنى الذي يُفهم من الآيتين بهذا الشكل السريع..

روايات تفسيرية

إن ما ورد من المعاني في ذلك من طرق أهل البيت عليهم السلام (ولا يأتينا خبر من أحد أئمة الهدى عليهم السلام إلا ونعلم أنه من رسول الله صلى الله عليه وآله، لأنهم لا يأخذون من أحد من خارج ذلك البيت)، من خلال الروايات، كله من ضمن تزكية الرسول صلى الله عليه وآله لهم عليهم السلام ﴿وَيُزَكِّيهِم﴾ البقرة:١٢٩ إلى الناس (بعد تعليمهم الكتاب و الحكمة التي نجدها في رواياتهم عليهم السلام).

(هذه الروايات ـ ما عدا رواية مشتركة، هي من ضمن روايات عديدة عن طرق أهل البيت عليهم السلام وليس عن طرق الكتب الأخرى كما المعتاد في هذه

الحلقات عندما نأتي بالتفسير من تفسير السعدي أو الطبري أو البغوي أو الثعلبي أو ابن كثير ـ نأتي من هذا ليس لعدم وجود روايات في تلك التفاسير، فهي موجودة، ولكن للإشارة الى أن حديث أهل البيت عليهم السلام مقدم أصلاً على غيرهم، ولكن في مقام التحاجج نأتي بأحاديث الآخرين.)

من ذلك قول الباقر عليه السلام:

«يُجيءُ رسولُ الله صلى الله عليه وآله في قَومِهِ وعَليٌّ عليه السلام في قَومِهِ والحَسَنُ في قَومِهِ والحُسَينُ في قَومِهِ وكُلُّ مَنْ ماتَ بينَ ظَهرانِي إمامٍ جاءَ معَهُ، كُلُّ أُناسٍ بإمامِهِم» (تفسير العياشي ج٢، ص٣٠٢، رواية ١١٤).

إذاً «كُلُّ أُناسٍ» بتحديد الزمان، إمام بدأ من سنة كذا إلى سنة كذا، جميع الذين عاصروه فعاصروا إمامته هؤلاء هم الناس المقصودون، هؤلاء الذي سيُدعَون ـ هؤلاء الناس المقصودون الذين سيُدعَون مع هذا الإمام.

وقول الإمام الصادق عليه السلام:

«ألا تَحمِدُونَ الله؟ إنَّهُ إذا كانَ يومُ القيامةِ فدعا كلُّ قَومٍ إلى مَنْ يتولَّونَهُ، ودَعانا إلى رَسولِ الله صلى الله عليه وآله، وفَزِعتُم إلَينا، فإلى أينَ تَرَونَ يُذهَبُ بكُم؟ إلى الْجَنَّةِ وَرَبِّ الكَعبَةِ! ـ قالها ثلاثاً» (تفسير مجمع البيان ج٦، ص٢٧٥).

هذا معناه أن النبي صلى الله عليه وآله هو الإمام للأئمة من أهل بيته عليهم السلام، ثم يكونون عليهم السلام هم الأئمة لمن يأتم بهم، لأن رسول الله صلى الله عليه وآله في زمانه هو الإمام بالتأكيد، وإلا لا يطلق عليه الإمام باعتبار أن النبي والرسول من الصفة الأولى فيه والإمام تحصيل حاصل كونه صلى الله عليه وآله هو الرسول. ولكن هذا ليس بالضرورة، لأننا نعلم أن إبراهيم عليه السلام كان نبياً ورسولاً ثم صار إماماً من الكبار؛ هناك

أنبياء عليهم السلام يتبعون غيرهم، لوط عليه السلام آمن بإبراهيم عليه السلام ولكن الذي هو من نوع تحصيل الحاصل أنت تعيش في زمان وفي معيّة نبي أنت الذي تتبعه وتطيعه فيكون عليه السلام إماماً عليك.

وفي رواية أيضاً قول الإمام الرضا عليه السلام:

«يُدعى كُلُّ أُناسٍ بإمامِ زَمانِهم وكِتابِ رَبِّهم وسُنَّةِ نَبيِّهم».

وهذا مروي عن غير طريق أهل البيت عليهم السلام كما في الدر المنثور للسيوطي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه:

«يُدعى كُلُّ أُناسٍ بإمامِ زَمانِهم وكِتابِ رَبِّهم وسُنَّةِ نَبيِّهم».

وهذا هو القول الذي اختاره الطبري من الأقوال (سنذكر البدائل أدناه)، مع السبب في اختياره المعنى أنه الإمام الشخص الإمام البشر، قال: «وأولى هذه الأقوال عندنا بالصواب قول من قال معنى ذلك يوم ندعوا كل أناس بإمامهم الذي كانوا يقتدون به ويأتمون به في الدنيا، لأنه» ـ يقول الطبري: «لأن الأغلب من استعمال العرب الإمام في ما ائْتُمَّ واقتدي به، وتوجيه معاني كلام الله إلى الأشهَر أولى ما لم تثبت حجة لخلافه يجب التسليم لها».

يقول: نحن لا يجوز أن نتكلّف، كلام الله تعالى نزل باللغة العربية، المعنى كان هذا الذي يستخدمه العرب في ما نزل فيهم، فلا يجوز أن نذهب إلى غيره إلا بدليل.

هذا وقد روى القرطبي في تفسيره رواية عن علي عليه السلام: «بإمام عصرهم».

كما روى عن النبي صلى الله عليه وآله: «كل يدعى بإمام زمانهم وكتاب ربهم وسنّة نبيهم فيقول: هاتوا متبعي إبراهيم هاتوا متبعي موسى هاتوا متبعي عيسى هاتوا

متبعي محمد ـ عليهم أفضل الصلوات والسلام ـ فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بأيمانهم ، ويقول : هاتوا متبعي الشيطان هاتوا متبعي رؤساء الضلالة إمام هدى وإمام ضلالة».

بدائل أخرى في التفسير

جاؤوا ببدائل مختلفة، بوجوه ثلاثة، لعلها هي التي تلخص ما في التفاسير.

الوجه الأول / أن الإمام ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ هو نبيهم، أي يأت أي رسولﷺ فيقال هذا رسولك ـ أي من كان يقتدي به في الدنيا ويأتم به.

هذا صحيح، ولكن بعد النبي من الأنبياء عليهم السلام ماذا يحصل؟ بعد أن يتوفى، في زمان الفترة بين النبي والنبي الذي يليه، كيف يكون؟ من هو الإمام الذي يقتدى به؟ ثم إن كان نبي في منطقة ما، ماذا عن المناطق الأخرى التي لم تسمع به أصلاً؟

وأما الوجه الثاني / فقالوا يُدعَون بكتب أعمالهم التي عملوها في الدنيا. وهذا بالتأكيد غير صحيح لأن كتب الأعمال تسجل ما فعل، النتيجة لما فعلوا، أما يدعوهم بإمامهم، الإمام هو الطريق الذي قادهم اتباعُهُ إلى هذه الأفعال. أي: إتَّبَعوا هذا الإمام أولاً فأدى ذلك إلى ما فعلوه، فالكتاب يكون كتاب الأفعال ثم بعد ذلك يدعو إلى إمامهم، فالإمام ليس هو كتاب الأفعال التي سجلت النتيجة.

والوجه الثالث / هو يوم ندعوا كل أناس بكتابهم الذي أنزلتُ عليهم فيه أمري ونهيي. وهذا أيضاً غير صحيح لوحده، لأن الكتاب يحتاج إلى مبيّن، والمبين هو النبي وبعده الإمام.

إذاً: الرواية الجامعة

الرواية الجامعة من مصادر الفريقين تقول أنهم يُدعَون إلى سنّة نبيهم والكتاب الذي نزل وإمامهم.

هذه الرواية ممكنة لأنه مع الكتاب ومع السنّة لا بد من الإمام الذي يهديك إليهما، فكلٌّ يدّعي وصلاً بليلى، ولكن من قال أن هذه هي السنّة الصحيحة؟ إذاً لا بد من وجود علم هدى من البشر.

الآيتان الكريمتان وآيات الأمة المسلمة

وأخيراً الربط مع آيات الأمة المسلمة.

إن الجزء من النص ﴿**يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**﴾ يتعلق بالإمامة التي هي من أظهر الأمور في الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام، فإنها دعوة من إبراهيمعليه السلام الإمام على الناس عندما كان وإسماعيلعليه السلام يرفعان القواعد في البيت العتيق الذي سيكون هو القبلة للناس، ويدعو إلى هؤلاء الناس الذين سيكونون في المستوى الأعلى من الإسلام، وبالتالي إن لم يكن هؤلاء هم الذين يؤتم بهم، فمن؟

ثم هي دعوة من إبراهيمعليه السلام الذي جعله الله إماماً ﴿**قالَ إِنّي جاعِلُكَ للنّاسِ إماماً**﴾ البقرة:١٢٤، فمن هو في مستوى الإسلام في الطاعة لله على ذلك المستوى هو الذي سيجعله الله تعالى إماماً من بعد إبراهيمعليه السلام.

كما أن تزكيتهم من الرسولصلى الله عليه وآله بعد تعليمهم الكتاب والحكمة، بمعنى ويزكيهم إلى الناس، كي يتبعهم الناس أي يتخذونهم أئمة. فالإمامعليه السلام هو الشاهد على أهل زمانه هو، زمانه هو بطبيعة الحال، لا يشهد على زمان ثان،

فكيف يكون شاهداً ما لم يُدع أهلُ زمانه كي يشهد عليهم؟ أي: في الآخرة على من يشهد إذاً؟

يشهد على أهل زمانه اتبعوه أم لم يتبعوه؟

في الأصل اتبعوه أم اتبعوا غيره؟

ثم كيف اتبعوه، بأي درجة؟

إذاً الناس في زمانه يُدعَون حسب إمام زمانهم لينظر عليه السلام كيف صنعوا.

نسأل الله أن ننجح في هذا ولا نكون مصداقاً للآية التالية التي قرأناها:

﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾.

❊

بعض مصادر البحث

فيما يلي ذكر بعض مصادر الروايات التفسيرية أو آراء المفسرين، سواء المؤيدة لما ذهبت إليه أو المخالفة له أو المعارضة له، التي تضمنها البحث أعلاه:

- تفسير العياشي
- تفسير الطبري
- تفسير القرطبي
- تفسير مجمع البيان.

الفصل الثالث والثلاثون

آيتا التصدّق عند النجوى

من آيات الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام آيتا التصدّق عند النّجوى، أي عند الحديث الخاص مع الرسول صلى الله عليه وآله.

يقول تعالى في سورة المجادلة الآية ١٢ ثم الآية ١٣ (لأن هناك تفريقاً):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ المجادلة:١٢ ـ ١٣.

الحادثة في الآيتين

هاتان الآيتان عجيبتان! فإن أولاهما تخبر بنزول أمر تشريعي أن الصحابي (حيث نزلت في الصحابة ثم رفعت فلم تمتد إلى ما بعد العصر النبوي) إذا أراد أن يتكلم مع النبي صلى الله عليه وآله على انفراد فإن عليه أن يقدم صدقة (طبعاً هذه كانت واحدة من الطرق في نزول تلك الآية للمساعدة على الصدقة، والنبي صلى الله عليه وآله لا يأخذها، إنما هي لأهل الصُّفّة والمعدمين من المسلمين)...

ثم تأتي الآية الثانية فتخبر وتقول أن الأمر رُفع، والسبب لأن هناك فشلاً، الفشل في تقديم الصدقة عند المناجاة!

توقفوا عن سؤال النبي صلى الله عليه وآله، وليس لعدم قدرتهم، بدليل أنه يقول **﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا﴾** أأشفقتم على أنفسكم من أن تخسروا المال من هذا الفعل الذي وكأنه حِمل ثقيل عليكم؟! أيضاً بدليل أن الآية الأولى التي توجب تقديم الصدقة قالت: **﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**، ما يعني أنها فقط للمقتدرين مالياً (ولو بشيء بسيط، فينبغي القول أنها لغير المعدمين)، فالذي لا يجد لا عتاب عليه فيما لو لم ينفق. المقتدرون فقط يعاتبون، وهؤلاء المقتدرون كان عندهم ولكنهم بخلوا.

والعجيب أن الآية الأولى تحضهم حضاً شديداً **﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾** خيرٌ وأطهر، مع ذلك لم يستجيبوا!

كيف نجد البيان في السيرة، نجده في العجب من أن هذه الآية الثانية تقول أنهم فشلوا؛ فهل فشلوا جميعاً؟

كلا. نجد أن الروايات التفسيرية تقول أن الذي عمل بهذه الآية كان واحداً فرداً وهو علي بن أبي طالب عليه السلام.. فقد أورد ابن جرير صاحب التفسير رواية عن علي عليه السلام قال:

«في كتابِ الله عَزَّ وجَلَّ آيةٌ ما عَمِلَ بها أحدٌ قَبلي ولا يعملُ بها أحدٌ بَعدي» ثم تلا الآية، قال: «فُرِضَت ثم نُسِخَت» يعني نُسِخ وجوبها.

علي عليه السلام يقول: «ما عَمِلَ بها أحدٌ قَبلي ولا يعملُ بها أحدٌ بَعدي»، وذلك أن المفسرين قالوا أن الآية الأولى بقي حكمها أسبوع أو عشرة أيام أو تسعة أو ثمانية أيام لا أكثر، وذكرها الزمخشري في تفسير الكشاف أيضاً في حديث علي عليه السلام: «كانَ لي دينارٌ فصرَفْتُهُ فكُنتُ إذا ناجَيتُهُ [أي النبي صلى الله عليه وآله]

تَصدَّقتُ بدِرهَم».

كما ذكر الزمخشري تأكيد ابن عمر عندما ذكر ثلاثة لعلي عليه السلام، أن هذه الثلاثة تكفي في منزلته الفريدة، الثلاثة التي ذكرها: تزويجه فاطمة عليها السلام، وإعطاؤه الراية يوم خيبر، وآية النجوى.

هذه القضية ذكرتها عدة مصادر دليلاً على أنه تفرّد بها، وذكرها الواحدي (في كتابه المهم جداً «أسبابُ النُّزول») أن علياً عليه السلام استمر على هذا الحال حتى نفد الدينار، فنسخت الآية ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا﴾ يعني أشفقتم إلا علي عليه السلام.

محاولات رفع التهمة

الآن، هل هناك من اعترض على هذا؟ لم يعترضوا ولكنهم حاولوا رفع التهمة عن هذا الفشل العجيب الملفت للنظر من الصحابة المقتدرين وليس الجميع؛ فماذا فعلوا؟ نذكر واحدة مما قالوه ولكم الحكم عليها وعلى غيرها:

قالوا: إنّ الآية تؤلم قلب الفقير الذي لا يجد فبالتالي سيكون صعباً عليه، فالله تعالى رفع الحكم! فلكم أن تنظروا إلى عدم تحرّجهم من أن يوصلوا التهمة حتى إلى الله تعالى، كما اتهموا رسول الله صلى الله عليه وآله حتى يدفعوها عن صحابي؟! أو يتهمون صحابياً أقل عندهم من أجل الثلاثة الأربعة الخمسة من الكبار، هنا وصلت التهمة إلى الله سبحانه وتعالى!

أولاً: الله تعالى يقول ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، الله تعالى لم يطلب من الذي لم يكن عنده، أصلاً لم يطلب من المقتدرين بالطلب الوجوبي، لم يقل: يجب أن تذهبوا وتتصدقوا إذا ناجيتم فقدموا صدقة والذي لا يستطيع يرفع الله عنه ذلك.

أما في أن الله تعالى كان جاهلاً بأن هذه الآية سوف تؤلم قلب الفقير على فرض أنها تؤلم، هي لا تؤلم لأنه لم يوجبها عليهم، الآية تؤلم قلب الفقير؟ وبعد أسبوع أو عشرة أيام تنبه الله تعالى إلى ذلك؟!

إنه لمن المعيب جداً (إن لم نقل من شعب النفاق الواضح) أن يصل الأمر إلى هذا الحد، من أجل رفع التهمة عن اثنين أو أكثر مهما بلغوا ولو كانوا ما كانوا في المنزلة عند هؤلاء المفسرين، فنحن لا نقبل أن يتهم الله تعالى لأجل رسول الله صلى الله عليه وآله، فهل يُعقل هذا؟

الآيتان الكريمتان وآيات الأمة المسلمة

الآن إذا أردنا أن نربط هاتين الآيتين المباركتين مع آيات الأمة المسلمة، فربما لا يبدو أن هناك ربطاً مباشراً، ولكنه في الحقيقة من أجمل ما يمكن... وفي القرآن كثير من هذا.

نحن هنا نسأل: لو قلنا: إنّ في المدينة كان هناك ألف صحابي (وقد كانوا أكثر بعدة أضعاف)، وأن المقتدرين منهم كانوا ١٠٪، أي مائة منهم يستطيعون تقديم الصدقة، وجدنا أن علياً عليه السلام كان يقدم درهماً درهماً من الدينار حتى نفد، فما كان عنده الكثير أصلاً. من هؤلاء المائة يأتي مرة يضع درهماً أو نصف الدرهم، من هؤلاء المائة فقط جاء علي عليه السلام، تسعة وتسعون صحابياً لم يعملوا بها طيلة هذه الأيام؟! توقفت أسئلتهم وحاجاتهم؟! لم يكونوا محتاجين لمعرفة مسألة شرعية كيف يحكم الإسلام بها؟!

طيب، لو فرضنا أن هذا حصل فعلاً، أما كان التشجيع الإلهي **﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾** كافياً لدفعهم إلى المبادرة بمناجاة النبي صلى الله عليه وآله؟ أين هم

الميسورون من الصحابة؟ بل أين الذين كانوا يحفرون الآبار ويجهزون الجيوش ويعتقون العبيد من الذين سمعنا عنهم مراراً؟! هل هذا الإحجام عن دفع صدقة بسيطة وأنت في لذيذ المناجاة مع رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ هل هذا يتوافق مع من قالوا أنهم يعتقون العبيد وأنهم فعلوا ما فعلوا؟! لكم الحكم.

السؤال الثاني: بما أن الله تعالى، بما هو بالقطع واليقين من عقيدة المسلم، أنه يعلم ما سيكون فإنه يعلم أنه سينزل الآية رقم ١٢ التي توجب دفع الصدقة عند المناجاة ويعلم أنه بعد بضعة أيام سيرفع هذا الحكم لأنه يعلم أنهم لن يدفعوا، فلماذا أنزلها؟ إذاً، لم تكن الغاية من إنزال تلك الآية هو لجمع الصدقات من أجل أن يتقوى بها النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ على مساعدة المعدمين من المسلمين، لأن أي خطة اقتصادية لا تستمر أكثر من أسبوع أو عشرة أيام لا تنفع شيئاً. أفلا نقول، بالتالي، أن الهدف الوحيد من هاتين الآيتين هو لإبراز علي عَلَيْهِٱلسَّلَامُ عن الصحابة جميعاً لاسيما المقتدرين الكبار؟

السؤال الثالث: وهو مهم قوله تعالى في الآية الثانية، بعد أن يدين موقفهم **﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾**، فيقول **﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾** ألا يحق لنا أن نسأل، أن نضع احتمالاً، أن المقصود بهذا هو طاعة الله ورسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ في شأن ذلك العبد المتفرّد الذي نجح وحده من بين المقتدرين على العمل بهذه الآية التي أوجبت تقديم الصدقة؟ ألا يحق لنا أن نقول: إنّ الأمر بطاعة الله ورسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ إذاً بشأن هذا عندما يزكيه لهم أنه هو الإمام وواجب الطاعة وعليهم الخضوع؟

وإلا ما معنى ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾؟ هو يتحدث مع الصحابة، ﴿أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ هذه قضايا بديهيات، قوموا بذلك وأطيعوا الله، يعني يفترض أن يطيعوا الله ورسوله صلى الله عليه وآله إن كانوا مؤمنين حقاً،فإذاً هم يطيعون الله ورسوله صلى الله عليه وآله في كذا وكذا وكذا؛ إذاً لا بد أن التركيز هنا على قضية معينة، الأمر بالطاعة، خصوصاً بالتحذير المبطن في آخرها بعد الأمر بالطاعة ﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، ألا يحق لنا أن نتساءل، هل هذا هو احتمال معتد به على الأقل إن لم يكن هو الوحيد؟

هذا التفرّد العلوي ينبئك بحال الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام مقارنةً بغيرهم، وينبئك بنوعية إسلامهم حيث أن هذه الأمة عليهم السلام تبادر، على الرغم من ضعف ظروفها المالية كما كان حال علي عليه السلام، تبادر إلى طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وآله، بينما يحجم الآخرون.

هذه هي نوعية إسلام هذه الأمة المسلمة، هذه النوعية التي كما قلنا مراراً في هذه البحوث، هي هذه النوعية على هذا المستوى من الإسلام الذي طلبه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إذا قالا ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ البقرة:١٢٨، وهما في القمة أصلاً من الإسلام، أرادا النوعية الأعلى في الإسلام التي طلباها بعد ذلك مباشرة في دعائهما للذرية المسلمة.

❊

بعض مصادر البحث

فيما يلي ذكر بعض مصادر الروايات التفسيرية أو آراء المفسرين، سواء المؤيدة لما ذهبت إليه أو المخالفة له أو المعارضة له، التي تضمنها البحث

أعلاه:

- تفسير الطبري ج٢٨ ص١٥
- أسباب النزول للواحدي ص٣٠٨
- سنن الترمذي ج٢ ص٢٢٧ في أبواب تفسير القرآن
- النسائي في الخصائص ص٣٩
- كنز العمال ج١ ص٢٦٨.

الفصل الرابع والثلاثون

آية ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾

من آيات القرآن المتعلقة بالأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، والتي قلّما ترد في مثل هذه الأبحاث، هذه الآية المباركة:

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ هود:١٧.

«يشهد» و «يتلو»

موضوع الشاهد أو موضوع البحث في الآية هو **﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾**، وذلك لأن الشهادة متعلقة بموضوع الأمة المسلمة التي قلنا أن لها مقام الشهادة ـ **﴿هُو سَمّاكُم المُسلِمين من قَبْل﴾** الحج:٧٨، **﴿لتكُونوا شُهَداءَ على النّاسِ ويكُونَ الرَّسولُ عَليكُم شَهيداً﴾** البقرة:١٤٣، سمّاكم ذرّيّة إبراهيم عليه السلام، ملّة أبيكم إبراهيم عليه السلام، كما ذكرنا في أول البحوث. فالشهادة هي من مقامات الأمة المسلمة التي من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، الأمة المسلمة التي شخصناها بأنها الأئمة من آل محمد صلى الله عليه وآله.

فالمعنى الظاهر كالآتي:

ـ ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ إجماع على أنه رسول الله صلى الله عليه وآله، لأن الخطاب مع الآخرين خطاب مع اليهود ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ... إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾؛ الكلام كله لرسول الله صلى الله عليه وآله، فهناك إجماع على أن ﴿مَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ ـ فإن الله تعالى هو الذي بعثه بذلك، وهو يعلم ذلك، نزّله على قلبك ـ رسول الله صلى الله عليه وآله، بما لا يحتاج إلى الإثبات العقلي بذلك، فالقضية مرتبطة بوجوده كله، فهو الذي ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾.

ـ ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾، يتلوه بمعنى التلاوة أو بمعنى الاتباع؟ شاهدٌ، أو شيءٌ، أو شخصٌ منه، يُنمى إليه، له علاقة به، هذا المعنى الظاهر.

فالمعنى الذي مما أخرجه الطبري في تفسيره ما نذهب إليه والذي هو موجود في روايات أهل البيت عليهم السلام:

قال علي رضي الله عنه: «ما مِنْ رجُلٍ مِنْ قُريش إلاّ وقد نَزَلَتْ فيهِ الآيةُ والآيَتان» فقال رجل: فأي شيء نزل فيك؟ قال علي: أما تقرأ الآية التي نزلت في هود: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾.

(ملاحظة على الهامش: هذه الرواية فيها تحجيم كبير لدور علي عليه السلام، فكأنها هي الآية الوحيدة النازلة فيه، زائداً أن غيره أيضاً نزلت فيه الآية والآيتان، وهذا ما نعلم بطلانه بإجماع المحدثين والمفسرين وأهل السير والأخبار أنه لم يأت بالأخبار الحسان مثلما جاء في علي عليه السلام، وفي القرآن كذلك، وهذه البحوث الأمة المسلمة تكفي في هذا.)

موضع الشاهد هو أن علياً عليه السلام نفسه يخبرنا أن الآية نازلة فيه، أنه هو

الشاهد من الرسولﷺ.

والاعتراضات اللازمة!

فالاعتراضات على فهمنا للآيـة المباركـة (والتـي أسـميها اعتراضـات لأن الجهد في دفع الآية عن عليؑ واضح فيها وفي غيرها مما قـدمناه فـي هـذه البحوث)، أو لنقل ما جاؤوا به من بدائل كالآتي:

ـ أول وجه آخر جاؤوا به أن الشاهد منه هو لسانهﷺ، أي أن اللسان هو الذي يتلو ما يقولﷺ، وهذه أتركها لكم لأني لا أجد تعليقاً لائقاً بحقها، ماذا يعنـي أن اللسان هو الشاهد عليه؟! شاهد منه؟ يتلوه، يتلو ماذا؟! الكلام عن الرسولﷺ.

ـ البديل أو الوجه الآخر أنه هو محمـدﷺ أي أنـه هـو الشـاهد مـن الله، ولكن هذه تجعل الذي على بيّنة من ربه هو الله نفسه! لأنه هو يتلوه شاهد منـه، يتلو الذي على بيّنة، فإذا كان رسول الله هو الشـاهد، فـإذاً الله تعـالى هـو الـذي بيّنة من نفسه، أليس كذلك؟

ـ الوجه الثالث: أن الشاهد هو جبريلؑ، أي أن النبيﷺ هو على بينة من ربه وجبريلؑ شاهد منه، يتلو على محمدﷺ ما بعـث بـه، هـذا معنـاه أن جبريلؑ شاهد على ما تلاه هو على النبيﷺ، فكيف يقوم بالشهادة؟! كيف يقوم جبريـل بالشـهادة للنـاس؟ يظهـر لهـم بـأي صـورة؟ ثـم كيـف أن جبريلؑ شاهد مـن النبـيﷺ؟ شـاهد ﴿مِنْهُ﴾.. أي علاقـة بـين الاثنـين؟ واحد ملك والآخر بشر؟! ما معناها؟ هذه هي الأخرى لكم!

ـ الوجه الرابع: أن الشاهد هو ملـك يحفظـه، أي أن النبـيﷺ معـه ملـك يحفظه من الشرور من الآفات، مما يمكن أن يقع على البشر، ما يعني أن معنى

شاهد هو حافظ! وهذه أيضاً أتركها لكم!

ـ الوجه الخامس: هو ما قاله علي بن أبي طالب عليه السلام وهي الرواية التي ذكرناها أعلاه.

ولكن حتى هذه الرواية التي قلت أنها تحجّم من موقعية علي عليه السلام في القرآن، حتى هذه وجدوها صعبة على أنفسهم، فماذا فعلوا؟

فعلوا ما فعلوه مراراً: يأتون برواية عن أحد أولاد علي عليه السلام، أو عن أحد صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله من شيعته، عمار أو غيره رضي الله عنهم، أو يأتون برواية حتى عن علي عليه السلام نفسه، ليضربوا هذه الرواية، لتقع الشبهة فيها، ليقع التعارض، ليقع التساقط، فتضعف الرواية الأولى.

مع هذه الآية المباركة، رووا حديثاً عن ولده محمد بن الحنفية رضي الله عنه، قال: «قلت لأبي، يا أبت أنت التالي في ﴿**وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ**﴾؟ قال لا والله يا بني...»، يقسم بالله (!)، «وددت لو أنني كنت أنا هو، ولكنه لسانه»! يعني حتى محمد بن الحنفية فهمها ولكن أباه خيب ظنه (!)، وذهب إلى الوجه الأول أنه اللسان، وهو الذي تركت التعليق عليه لأني والله لا أجد كيف أن علماء كبار بهذه العقلية الضعيفة، ما معنى أن اللسان الذي يتلو به هو شاهد؟! كيف يشهد، هو يتلو الآيات، فكيف يشهد عليه؟ كيف تكون التلاوة وهو الشاهد عليها، فيكون الشاهد هو اللسان التالي له؟!

هؤلاء لا يهمهم أن يزروا بأنفسهم من أجل كتمان الحقيقة.

وهذا وقد أخرج بعض المفسرين هذه الرواية عن علي عليه السلام بشكل يختلف. من ذلك قوله عليه السلام: «واللهِ ما نَزلَتْ آيةٌ في كتابِ الله في لَيلٍ أو نَهارٍ

إلاّ وقد عَلِمتُ فِيمَنْ أُنزلَتْ ولا مَرَّ على رأسِهِ المواسي (أي مواسي الحلاقة) إلاّ وقد أُنزلتْ عليهِ آيةٌ من كِتابِ الله تَسُوقُهُ إلى الجنّةِ أو إلى النّار»، ثم قام رجل فساله عن الذي نزل فيه فتلا عليه الآية المباركة ثم قال عليه السلام: «فرسُولُ الله صلّى الله عليه وآله عَلى بَيّنةٍ من ربِّهِ وأنا الشّاهِدُ لَهُ فِيهِ وأتلُوهُ مَعَه»، وفيها الجمع بين المعنيين من كلمة «يتلو» أنها الاتباع والتلاوة.

وهناك روايات أخرى تعضد هذه (راجع تفسير نور الثقلين للحويزي، ج٢، ص ٣٤٤-٣٤٥.)

الآية المباركة وآيات الأمة المسلمة

أخيراً، نربط هذه الآية المباركة المهمة مع آيات الأمة المسلمة، فنقول:

= طالما أن مقام الشهادة على الناس من ضمن مقامات الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فإنها أي الشهادة صفة أصيلة فيهم، يقومون بها كلما اقتضى الأمر. هنا ليست مثلما قلنا شهداء على الناس في الدنيا وفي الآخرة، يشهدون كيف صنعوا، هنا الشهادة في الدنيا على الرسالة الإسلامية.

= كما يمكن أن تكون الآتي: أن النبي صلى الله عليه وآله على بينة من ربه وعلي بن أبي طالب عليه السلام منه بمعنى العصمة النسبية، الأقرب إلى النبي صلى الله عليه وآله؛

= كما يمكن أن تكون بمعنى العلاقة التي عقدها الله تعالى لهما مما جاء في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: **﴿وابعَثْ فيهِم رَسولاً مِنهُم﴾** البقرة:١٢٩، يعني الاثنين، وهذا الشاهد يأتي تالياً للنبي صلى الله عليه وآله بماذا؟ بمعنى يتلوه في الطاعة، يتبعه، أو يتلوه في الإمامة من بعده، سيأتي من بعده إماماً على الناس؛ أو الإثنتين معاً: يتلوه يتبعه في الطاعة لا يحيد عن ذلك مطلقاً، ثم يأتي من بعده

هو الذي يصبح الإمام في الناس.

❊

بعض مصادر البحث

فيما يلي ذكر بعض مصادر الروايات التفسيرية أو آراء المفسرين، سواء المؤيدة لما ذهبت إليه أو المخالفة له أو المعارضة له، التي تضمنها البحث أعلاه:

- تفسير الطبري (ومن يراجعه يجد أنه جاء بالوجوه المختلفة، ولكنه انتصر للرأي أن الشاهد هو «جبريل»، فقد أتى بـ ١٧ رواية فيه، وعلل ذلك أن الآية تقول بعد ذلك ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ ما يعني «الشاهد هو جبريل الذي يتلو القرآن ومن قبل القرآن تلا كتابَ موسى عندما أنزل». ولأن هذا التقدير يجب أن يجعل كلمة «كتاب» منصوبة، لأنها معطوفة على «القرآن» الذي هو في التقدير الأصلي «جبريل الشاهد يتلو القرآنَ، ومن قبل ذلك تلا كتابَ موسى»، بينما القراءة التي لا خلاف فيها هي رفع كتاب ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾ فإنه صار يتأول بتقدير آخر أنهم ابتدأوا الخبر عن مجيء كتاب موسى قبل القرآن...
وكل هذا جهد لا داعي له لأن المعنى لا يستقيم كما قدمنا من عدم إمكانية قيام جبريل بالشهادة على القرآن. وهذا مثال على تركز فكرة أو رأي في ذهن المفسر، وربما يجد نفسه يحب هذا الوجه من التفسير أو ذاك، ثم يبذل الجهد من أجل توجيه ذلك الوجه حتى ولو خالف المنطق وخالف القراءة المتسالم عليها.)
- تفسير نور الثقلين للعروسي الحويزي.

الفصل الخامس والثلاثون

سورة الكوثر

من آيات كتاب الله العزيز التي تتعلق بالأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في دعائهما العظيم عندما كان يبنيان البيت الحرام سورة كاملة وهي سورة الكوثر المباركة، أصغر سور القرآن. سورة صغيرة جداً في نصّها، كبيرة جداً في دفاعها عن النبي صلى الله عليه وآله حيث الإعجاز في الإخبار الإلهي المستغرق للزمان:

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيْمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَر ② إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ الكوثر:١ ـ ٣.

معاني المفردات

الكوثر هي الكثرة، "فَوْعَل كَوْثَر"، أي ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ أي الشيء الكثير.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾، لم يستخدم فصلّ إلى إلهك؛ مما يجب أن نلتفت إليه هنا عندما نقرأ القرآن، الفارق بين الإله والرب. فالإله تعالى قبل الخلق بمعزل عن الخلق، لكن الرّبّ والربوبية، الرّبّ من التربية، المربّي والتربية هو ما يتعلق بفعل الله تعالى مع خلقه، إذاً هنا العطاء.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾، ربك المنعم الذي أعطاك الشيء الكثير فصلّ له

وانحر؛ الصلاة هي الصلاة، والنحر ﴿انْحَرْ﴾ هذا ما يفعله من يحتفل بالنعمة شكراً للنعمة فيذبح الأضحية أو العقيقة.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾، الشانئ هو المبغض، من الشنآن، ﴿هُوَ الأَبْتَرُ﴾، الأبتر ــ بترَ قطع، فالأبتر هو الأقطع أو المنقطع.

وهنا يقول ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾، «لم يقل إن شانئك الأبتر»، لو قال: إنّ شانئك الأبتر، صفة، شانئك الأبتر، لكن من الممكن أن تكون أنت أيضاً أبتر، فشانئك أبتر وأنت أبتر، لكن عندما قال ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ أي إن شانئك هو الأبتر وليس أنت.

فالمعنى الكامل هو:

إنا أعطيناك الشيء الكثير فقم بالصلاة والنحر شكراً لله على هذه النعمة، وإن مبغضك هو المنقطع هو الأبتر.

فحتى بحساب الاحتمالات، يستطيع القارئ لهذه السورة المباركة أن يقول: إنّ هذا الشيء الكثير الذي أعطي لرسول الله صلى الله عليه وآله لا بد وأن يكون له علاقة برميه أنه كان أبتر منقطعاً مقطوعاً، ليس مقطوع اليدين أو غيرها، إنما مقطوع الذريّة؛ إذاً:

هذا الكوثر هو الذي يرد على ذاك الذي يقول لك: إنك أبتر بالقول إنه هو الأبتر وليس أنت، أي أنه هو من سيكون منقطع الذرية لا شأن لهم، وأنت الذي ستكون، على العكس من ذلك، لك الذرية الكوثر الكثيرة فلن تكون أبتر.

وهذا ما تؤيده الروايات المتضافرة كلها، دون أن تشذ واحدة.

منها عن يزيد بن رومان أحد الرواة قال:

«كان العاص بن الوائل السهمي (والد عمرو بن العاص)، إذا ذكر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قال: «دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له، لو هلك انقطع ذكره واسترحتم منه»».

عقليته هكذا ـ هذا رجل ليس عنده أولاد، النتيجة ينقطع ذكره، فأنزل الله تعالى في ذلك ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ...﴾.

تحريف سائد!

الآن هل من اعترض على ذلك؟ نعم، هناك وجوه مختلفة جاء المفسرون بها، أن الكوثر هو القرآن أو الإسلام أو تخفيف الشريعة، أو الخير الكثير عموماً. ولكن الاعتقاد السائد هو أحد هذه الوجوه.

فهو ليس اعتراضاً على معنى الذرية المباركة (لأنهم لم يأتوا به!)، ولكنه الاعتقاد السائد في القول وفي التفسير أن الكوثر هو ليس الكثرة في العقب في الذرية، إنما هو نهر في الجنة، كما قالوا أيضاً أن الكوثر هو الحوض في الجنة، ثم ليربطوا بينهما قالوا ان الكوثر هو نهر يصب في حوض الكوثر، وأن هناك القدحان وأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يسقي الناس.

صحيح، مما اتفق عليه المسلمون أن هناك حوض النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وها هم يجعلونه تفسيراً لهذه السورة المباركة.

ولكن ما علاقة هذا بالسورة؟

الفهم الواضح أن الله تعالى يقول أن العكس هو ما سيكون، عكس ما يرمونك به أنك أبتر سنعطيك الكثرة من الأولاد، وهؤلاء ينقطع عقبهم، هؤلاء

الشانئون سينقطع عقبهم، وأن الشانئين سينقطع ذكرهم وأن وصف الأبتر سيكون لائقاً بهم وأنك على العكس لن تكون كذلك.

والدليل على ما أقول هو:

طالما أن المقصود هو أبتر الولد فإن التعويض يجب أن يكون في الدنيا وليس في الآخرة، أي أن هؤلاء يقولون عنه أنه أبتر، يعوضه في الآخرة؟ في الآخرة لا توجد منافسة بينه صلى الله عليه وآله وبين هؤلاء الكفرة العاص بن وائل وغيرهم، فشانئوا النبي صلى الله عليه وآله لن تنعقد بينهم وبينه صلى الله عليه وآله منافسة في الآخرة، فشانئ النبي صلى الله عليه وآله في جهنم، وبالتالي فإن التعويض ردّاً على هذا الشانئ ينبغي أن يكون في الدنيا ليخرسه ويلطمه ويلقمه حجراً. فإذا كان التعويض هو الحوض في الآخرة فإن النبي صلى الله عليه وآله يبقى أبتر في الدنيا حسب تهمتهم، وهذا يرده القرآن بقوله **﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾** وليس أنت الأبتر.

إذاً تفسير الكوثر أنه هو حوض الكوثر غير صحيح؛ فإن كان فهو مصداق ضعيف، والتفسير الصحيح الأصلي الذي لا خلل فيه هو أنه الذرية الكثيرة.

وحتى القول أن «الكوثر» تعني الخير الكثير ـ كما قد أورده بعض المفسرين ـ، فإن الخير الكثير الذي هو ألصق بصفة الأبتر إنما هو الذرية المباركة.

وعليه، فإن التفسير المعقول للكوثر هو الذرية عن طريق الزهراء عليها السلام لأن الله سيعطيه الكثير الكثير من الذرية عن طريق هذه النسمة المباركة عليها السلام.

وهي عليها السلام أنثى وهذا مهم، لأن الشانئ وحزبه كانوا يقولون ما عنده عقب، ما عنده غير بنت ليس لها قيمة بالنسبة لهم، فأولئك الجاهليون كانوا يئدون

البنات ويخجلون منهن؛ وإذا بالقرآن ينزل ليقول أنه لا يضرّهاعليها السلام كونها أنثى أن يخرج منها الكثير الكثير من الذرية، هذا في الوقت الذي ستنقطع ذرية الشانئين ـ مع أن عندهم ذرية من الذكور ـ فلا يعود هناك من ينمى إليهم أصلاً.

وهذا الذي أشار إليه صاحب تفسير الميزان، بعد أن جاء بالوجوه المختلفة التي أوردها المفسرون، قال:

«والجملة لا تخلو من دلالة على أن ولد فاطمة عليها السلام ذريته صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا في نفسه من ملاحم القرآن الكريم فقد كثر الله تعالى نسله بعده كثرة لا يعادلهم فيها أي نسل آخر مع ما نزل عليهم من النوائب وأفنى جموعهم من المقاتل الذريعة».

السورة المباركة وآيات الأمة المسلمة

وقد تحقق هذا وذاك على أرض الواقع، فإن الله تعالى قوله فصل وحكم ولا بد واقع. فإذا أردنا أن نربط هذا مع آيات الأمة المسلمة، فنحن نعتقد أن فاطمة الزهراءعليها السلام وإن لم تكن من الأئمة بمعنى المصطلح الشرعي للإمام بوظيفته اليومية في الأمة في بيان الشريعة وحراسة الشريعة...

... حيث يمكن أن نوجز وظيفة الأئمةعليهم السلام في أمرين، أو توجز وظائفهم في وظيفتين: بيان الشريعة وحراسة الشريعة من الانحراف...

فليست وظيفة الزهراءعليها السلام بهذا الشكل الذي نعتقده في علي والحسنين والأئمة من ولد الحسينعليهم السلام، لكنها حجة الله تعالى على العباد، حيث قد تحققت فيها جميع صفات الشهادة على الناس، ونحن ذكرنا أن من صفات

ونتائج الأمة المسلمة أن ﴿**لتكُونوا شُهَداءَ على النّاسِ ويكُونَ الرَّسولُ عَليكُم شَهيداً**﴾ البقرة:١٤٣.

وعندما يقول إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يدعوان الله تعالى عند بناء البيت الحرام: ﴿**وابعَثْ فِيهِم رَسولاً مِنهُم**﴾ البقرة:١٢٩ بعد أن يطلبا الذرية التي وصلت الدرجة الأعلى من التسليم لله تعالى ﴿**ومِنْ ذُرِّيَتِنا أُمَّةً مُسلِمَةً لَك**﴾ البقرة:١٢٨، والرسول منهم، وهذه الذرية فاطمة من ضمن هذه الذرية وعلي عليه السلام من ضمن هذه الذرية، ثم الأئمة من نسل علي وفاطمة عليها السلام، فنحن نعلم أنها عليها السلام حصلت على مقام الشهادة على العباد وذلك:

من خلال منزلتها التي نعلمها من قول النبي صلى الله عليه وآله وفعله في الكثير، منها آية التطهير، ومنها ما ذكرنا من آيات أخرى في البحث، ومن خلال العديد مما جاء في الأحاديث الصحيحة باتفاق المسلمين وفي التفاسير؛

بعد ذلك من أين جاءت الكثرة في نسل الزهراء عليها السلام؟

جاءت من الفرعين الكريمين الحسن والحسين عليهما السلام ، وهذا طبعاً من الأمة المسلمة في البحث.

إذاً سورة الكوثر تخص بشكل خاص الزهراء عليها السلام ، ثم ولدها الحسن عليه السلام الذي كان أول مصداق للكثرة، ثم الحسين عليه السلام الذي سيكون الفرع الثاني لهذه الكثرة، الكثرة العددية من هذه الذرية، ناهيك أنه سيكون والد الأئمة التسعة الآخرين عليهم السلام الذين هم يزكيهم رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الناس بعد أن علّمهم الكتاب والحكمة.

والحمد لله رب العالمين.

*

بعض مصادر البحث

فيما يلي ذكر بعض مصادر الروايات التفسيرية أو آراء المفسرين، سواء المؤيدة لما ذهبت إليه أو المخالفة له أو المعارضة له، التي تضمنها البحث أعلاه:

- أسباب النزول للواحدي ص٣٠٧.
- تفسير القرطبي.
- الميزان في تفسير القرآن للطباطبائي.

خاتمة

التأويلات الفاسدة تدعم موقفنا

قلت في المقدمة تحت «التلميح أقوى من التصريح أحياناً»:

سيجد القارئ كيف أن الله عز وجل قد ضمّن كتابه العزيز موقعية أوليائه الطاهرين عليهم السلام في العديد من الآيات المباركة، وبشكل جميل رائع معجز، ربما سيكون في بعضها أقوى من التصريح، الأمر الذي انتبه إليه مفسروا أهل الخلاف، أو بعضهم على الأقل، ولهذا ... جاؤوا بما لا يقبله العقل أو الذوق السليم...

وها نحن نشير إلى طرقهم «الكتمانية» مع مثال واحد لكل طريقة، مما ذكرته في الفصول المتعلقة بهذه الآيات المباركة.

*

الكتمان يمثل دليلاً، أو على الأقل قرينة

عندما يتم اعتماد الكتمان ـ بطرقه المختلفة ـ نهجاً مركزياً مستمراً عند المفسرين المخالفين، فإنه يصبح دليلاً قوياً على صحة ما يعتمده مفسرو مذهب أهل البيت عليهم السلام وباحثوه؛ فإن لم يقبل القارئ بالدليل إلا باعتراف المفسر المخالف (!)، وهو مستحيل، فإن هذا المنهاج الكتماني يعد قرينة قوية على صحة ما نقول.

*

طريقة الكتمان ١: الإتيان بعدة وجوه من أجل تقزيم الوجه الصحيح

مثال / آية مودة القربى ـ الشورى:٢٣

جاؤوا بخمسة وجوه إضافة إلى الوجه الصحيح الواضح من الآية والذي جاءت به الروايات من أن «القربى» المقصودين هم أهل البيت عليهم السلام.

فالوجه الأول: هو تفسير ابن عباس وليس من النبي صلى الله عليه وآله أن النبي يقول لقريش: صِلوا القرابة بيني وبينكم. أي منطق يقبل هذا وقريش لم تؤمن به، فأي معنى لطلبه منهم إعطاءه أجراً على شيء لم يأخذوه منه؟!

وأما الوجه الثاني: فإنه خطاب للأنصار، وهذا لا معنى له لأن الأنصار كانوا يحبون النبي صلى الله عليه وآله حباً جمّاً لله، لا أنهم صاروا يحبونه كأجر طلبه منهم!

وأما الوجه الثالث: أن المودة من النبي صلى الله عليه وآله لقريش، يدعوهم حباً بهم! فهل كان صلى الله عليه وآله يدعو الناس إلا حباً بهم جميعاً وليس لقريش خاصة؟

ثم الرابع: أن المودة لقرابة المخاطبين أن أجري هو أن تودّوا قراباتكم أنتم. وهذا مفروغ منه للمؤمنين، ولا معنى له للكافرين الذين رفضوا التبليغ أصلاً.

وغيّروا معنى القربى في الخامس: أنها تعني التّقرُّب إلى الله بالعبادات. وهذا باطل مع الكافرين لأنهم رفضوا التبليغ، ومع المسلمين لأن هذا من صميم عملهم، وإلا فلا يقومون بالواجبات وغيرها قربة إلى الله إلا إذا كان بعنوان الأجر على التبليغ!

*

طريقة الكتمان ٢: الإتيان بوجوه لا يقبلها أي قارئ للآيات قيد النظر

مثال / آية الشاهد ـ هود:١٧

تعال هنا واعجب مما جاؤوا به للتعتيم على أن الشاهد هو علي عليه السلام.

أول وجه: أن الشاهد منه هو لسانه صلى الله عليه وآله؛ فكيف يشهد اللسان له؟!

ووجه آخر: أن الشاهد هو محمد صلى الله عليه وآله، ما يجعل الذي على بيّنة من ربه هو الله تعالى نفسه!

وأما الوجه الثالث: فهو أن الشاهد هو جبريل عليه السلام؛ فكيف يقوم جبريل ـ وهو الملك وليس البشر الذي يعيش بينهم ـ بالشهادة؟!

وزادوا في التعتيم أن جعلوا الشاهد هو مَلَك يحفظه صلى الله عليه وآله! فما علاقة ﴿بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ بالحفظ؟!

واضطر بعضهم إلى إيراد التفسير الصحيح أن الشاهد هو علي عليه السلام، ولكن استناداً إلى رواية تجعل من الذي نزل في علي عليه السلام هي هذه الآية فقط!

أقول: اضطروا، لأنهم عالجوها فوراً بضربها برواية «اللسان» في قالب سؤال من محمد بن الحنفية رضي الله عنه لأبيه عليه السلام، والذي يفهم محمد أن الشاهد هو أبوه عليه السلام، ولكن أباه يخيب ظنه فيقول أنه لسانه! مع إضافة «وددت أن أكون هو» من أجل أن يقطع بمنع التفسير الصحيح!

*

طريقة الكتمان ٣: إهمال الوجه الصحيح على وضوح ارتباطه بالآيات

مثال / آية المنذر والهادي ــ الرعد:٧

هذه آية شكلت مشكلة لهم، لأنها تحصر مهمة النبي صلى الله عليه وآله بالنذارة فقط. ولا شك في أن النبي صلى الله عليه وآله هو الهادي في حياته، فلا بد إذاً من الذهاب إليه لمعرفة التفسير، وقد كان منه صلى الله عليه وآله أن قال أن علياً عليه السلام هو الهادي «بعده»، فحلّت الإشكال.

رووا الرواية، ربما من أجل ضربها بقولهم أن فيها «نكارة شديدة»! مع أن المتن هو الأصح من جميع ما جاؤوا به، فلا يبقى إلا السند، وهذا ميدانهم الذي يتلاعبون فيه بالقرآن كما يشاؤون ـ بتعديل هذا وتجريح ذاك حسب الهوى المذهبي.

وقالوا: إنّ لكل قوم داعية؛ وهو باطل لأن الداعية ليس بالضرورة يكون هادياً، كما أن أكبر داعية إلى الله هو رسول الله صلى الله عليه وآله فكيف يستثنيه؟

وقالوا: إنّ الله تعالى هو هادي كل قوم. وهذا معلوم، ولكنه من خلال الأنبياء عليهم السلام فلماذا يستثني النبي صلى الله عليه وآله من مهمة الهداية؟

الوجه الثالث: أن لكل قوم نبي يهديهم. وهذا مرفوض من جهتين: (١) أنه استثنى سيد الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله، (٢) أن النبوة بعد أن ختمت، هل تتوقف الهداية؟

والوجه الرابع: أن الهادي هو القائد، والقائد هو الإمام. ولكن أليس بعض الأئمة سيأخذونك إلى جهنم من أئمة النار كما نص الكتاب العزيز؟ وزادوها ضعفاً عندما قالوا أن الإمام هو العمل! لكن العمل هدف الهداية لا أنه هو الهادي.

وألطف وجه هو أن الهادي هو محمدﷺ؛ فلماذا استثنته الآية إذاً؟!

وهناك وجه سادس: أن الهادي هو من يدعوهم إلى الله. وهذا باطل، لأن من يدعو ليس بالضرورة بإمكانه أن يهديهم الهدى المطلوب، فيجب أن يكون هدى على مستوى الهدى الذي يقوم به رسول اللهﷺ.

وربما وجدوا حلاً وسطاً لتشخيصها بعليعليه السلام، فأوردوا رواية عنهعليه السلام أن «الهادِي رَجلٌ من بَنِي هاشِم» ما فهمه المفسرون أنهعليه السلام يقصد نفسه. فلماذا هذا التعتيم منهعليه السلام والمقام مقام بيان للقرآن مقام للهادي بعد النبيﷺ؟ هذا مستحيل.

*

طريقة الكتمان ٤: إهمال مجرد الإشارة إلى أن ما يذهبون إليه يمكن أن لا يكون أكثر من مصاديق، بينما الوجه المهمل هو على الأقل المصداق الأفضل

مثال / آية الحسد ـ النساء:٥٤

أحياناً تحتار كيف أن القرآن يمكن أن يكون أشد وضوحاً من أجل أن لا يتلاعب هؤلاء بكتاب الله!

آية تتحدث عن حسد لناس معينين، ثم ترد الحاسدين بمقابلة مع أمة سابقة تحدد أن المحسودين فيها هم آل نبيها إبراهيمعليه السلام، فهل توجد صعوبة عقلية في تشخيص أن المحسودين هم آل نبي هذه الأمة محمدﷺ؟!

لا توجد! ولكن الصعوبة نفسية.

هل يعقل أن يأتوا بتفسير أن المحسود هو النبيﷺ؟ هل كان عسيراً

على القرآن أن يقول: «فلقد آتينا إبراهيم» من أجل أن نفهم أن المحسود هو المقابل لإبراهيم عليه السلام في أمتنا وهو النبي محمد صلى الله عليه وآله؟

وكأنهم لم يكتفوا بهذا، فإذا بهم يأتون بوجه آخر هو أن المحسودين هم المسلمون عموماً! مرة أخرى لا يمكن لأن المقابلة كان يجب أن تكون «فلقد آتينا أمة إبراهيم أو أتباع إبراهيم». هذا علاوة على أن ليس المسلمون جميعاً من أوتوا علم الكتاب والحكمة الخ.

❊

طريقة الكتمان ٥: إهمال البيان الرسولي للآية قيد البحث، بينما هم يأتون بأي رواية حديثية، بل رواية رأي صحابي أو تابعي، إذا ما دعمت رأيهم

مثال / آية التطهير ـ الأحزاب:٣٣

كان التعتيم على آية التطهير، أو شطرها المتعلق بأهل البيت عليهم السلام، أسهل من غيرها؛ لأن السياق جعلهم يقولون أنها تعني زوجات النبي صلى الله عليه وآله.

فإذا ما جئتهم ببيان النبي صلى الله عليه وآله، المتنوع في هذا، ولكن الأشهر والأقوى وهو المعروف بحديث الكساء، حيث جلّل نفسه الزكية مع علي وفاطمة والحسنين عليهم السلام وقرأ الآية، فإنهم يقولون: نعم، ولكن الزوجات داخلات أيضاً؛ لأنهن من أهل البيت اصطلاحاً عرفياً لا خلاف عليه.

فإذا ما قلت لهم: ولكن المبيّن للقرآن هو النبي صلى الله عليه وآله وليس العُرف، فإذا ما خالف العرف فإن بيانه صلى الله عليه وآله هو المقدم، فإنهم لا بد وأن يأتوا برأي قديم، وعندها يأتوك برأي لشخص معروف بنصبه لأهل البيت عليهم السلام وهو عكرمة

غلام ابن عباس!

هذا في تحديد المقصودين. أما في نفي من يقولون أنهن مقصودات، فإنه عندما أرادت أم سلمة رضي الله عنها أن تدخل داخل الكساء فإن النبي صلى الله عليه وآله منعها وقال «إنك من أزواج النبي» جواباً على سؤالها «ألست من أهل البيت»؟ لينفي صلى الله عليه وآله نفياً قاطعاً دخول الزوجات في هذا الشطر من الآية.

هذا مع أنهم لم يجدوا أياً من زوجات النبي صلى الله عليه وآله من ادّعت التطهير وإذهاب الرجس عنها، حتى التي حاربت علياً عليه السلام فكانت بأشد الحاجة إلى الدعم القرآني.

*

طريقة الكتمان ٦: الاعتداء حتى على ساحة الذات المقدسة

مثال / آيتا التصدق عند النجوى ـ المجادلة:١٢ ـ ١٣

رأينا كيف أن آية الأمر بالتصدق عند نجوى الرسول صلى الله عليه وآله نزلت لترفع بعد بضعة أيام، ما يعني أن الله تعالى لم يرد منها جمع الصدقات لتمكين النبي صلى الله عليه وآله من إعانة الفقراء، ولكن من أجل أن يبين حقيقة هائلة عظيمة في حق علي عليه السلام، عندما وجدناه هو وحده من عمل بالآية المباركة على الرغم من ضيق حالته المادية يومئذ، في الوقت الذي امتنع المقتدرون من الصحابة كلهم أجمعون من دفع ولو صدقة يسيرة.

هذا التّفرّد العلوي أزعج المفسرين، فبلغوا الغاية في التبرير من أجل إخراج الصحابة الكبار المقتدرين من الإدانة، بحيث طعنوا في حكمة الله تعالى في إنزال الآية، عندما قالوا أن الآية تؤلم قلب الفقير الذي لا يجد فالله

تعالى رفع الحكم!

أوصلوا التهمة إلى الله تعالى من أجل الدفاع الشديد عن بعض الصحابة الكبار، وكأن كرامة الصحابة كما يعبّرون لم تعد مقدمة على أهل البيت الطاهرين عليهم السلام ولا حتى على النبي صلى الله عليه وآله، بل حتى على الذات العليا للمولى عز وجل.

*

فهل يعقل قبول المفسرين بهذه التفسيرات المزاجية، المتخبطة، المتناقضة، المتساقطة، والتي لا علاقة لها بالنص الواضح ولا بالمنطق السليم ولا ببيان النبي صلى الله عليه وآله؟

هل الذي أنزل هذه الآيات المباركات إله واحد أم آلهة متعددون كل يريد شيئاً مختلفاً عن الآخر؟!

هل الذي أنيط به بيان الكتاب العزيز، وهو الأعلم به من الخلق، فتح لهم الباب أمام هذه التفسيرات التي تسقط بعضها بعضاً ولا تترك المسلم إلا في حيرة؟ ﴿بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾

على أن القرآن لا يغالبه أحد ويغلبه، بل العكس هو الذي سيكون...

وكيف لا والحق يقول ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ الأنبياء:١٨...

ويقول ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يوسف:٢١.

والحمد لله ربّ العالمين.